@ketab_n
Follow Me
26.4.2017

سومرست موم

تجربتي في الأدب والحياة

ترجمة جعفر صادق الخليلي
قدم له وراجعه الدكتور عناد غزوان اسماعيل

منشورات عويدات
بيروت ـ لبنان

سومرست موم

تجربتي في الأدب والحياة

ترجمة جعفر صادق الخليلي
قدم له وراجعه الدكتور عناد غزوان اسماعيل

منشورات عويدات
بيروت ـ لبنان

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار

منشورات عويدات

بيروت ـ لبنان

الطبعة الاولى : تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٥

Twitter: @ketab_n

تعريف

بقلم
الدكتور عناد غزوان اسماعيل
استاذ الادب العربي بجامعة بغداد

١

يؤلف وليم سومرست موم موسوعة ادبية جليلة الشأن ، تجلت في آثاره التي تركها لنا في مسرحياته وروایاته وقصصه القصيرة ومقدماته في النقد وادب الرحلات ، وقد ترجم بعضها الى اللغة العربية[١] .

موم كاتب انكليزي امتاز ادبه بوضوح الرؤيا في الاداء والتعبير ، واتسم بتتابع الصورة العالمية العامة وتجسيد النظرة الواقعية في فهم الطبيعة الانسانية المتحررة من قيود الزمان والمكان ، الطبيعة الحرة التي يفهمها انسان العصر على حقيقتها ، بعيدة عن الزخرفة اللفظية والمجاز المتكلف والاسلوب المصطنع والتجربة المفتعلة . حاول موم ، من خلال تجاربه وخبراته واسفاره ورحلاته ، ان يرسم لقارئه صورة صادقة عن مشكلات الانسان الاعتيادي المعاصر . وقد صرح بذلك في اكثر من مكان ، سواء أكان ذلك على لسان بعض شخصيات مسرحياته او احداث روایاته او مواقفه الخاصة ، فهو يقول بصراحته المعروفة : « لم اكن ارى الفرد كما

---

(١) منها : ارواح هائمة في الادغال ، ترجمة حلمي مراد ، مطبوعات «كتابي» عدد ٢٤ القاهرة .
- جزيرة الاحلام ، دار الهلال ، القاهرة .
- بينيلوبي ، ترجمة مفيد الشوباشي ، مراجعة فؤاد اندراوس ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة .
- زوجة الكولونيل ، ترجمة عبد اللطيف شرارة ، دار المعارف ، بيروت ، ١٩٥٩ .
- قلب غانية ، دار الهلال ، القاهرة .
- المرأة اللعوب ، المكتب التجاري ، روايات اليوم ، بيروت .
- الدائرة ، ترجمة عزيز متري عبد الملك ، مراجعة علي فهمي ، تقديم دريني خشبة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

Twitter: @ketab_n

يراه (كنت) ، غاية بحد ذاته ، وانما اراه مادة نافعة لي ككاتب ، فأنا أعنى بالمغمور اكثر من عنايتي بالمشهور ... فان الانسان العادي هو الذي علينا نحن الكتاب ان نعالجه ، فأصحاب التيجان والطغاة وملوك المال لا ينفعوننا شيئا ، ولو ان الكتابة عنهم كثيرا ما اجتذبت الكتاب ، غير ان الفشل الذي اصاب جهودهم دل على ان مخلوقات كهذه لا تصلح ان تكون ارضا خصبة لعمل فني . اذ ليس من اليسير اظهارهم على حقيقتهم. ان الانسان العادي هو مزرعة الكاتب الغنية المعطاء . ان فرديته فجائية ، وتنوعه اللامحدود معين لا ينضب . انه عين ثرة لا تغيض ، ولن تجد حدا لما تدخره لك من مفاجئات » .

وهو من خلال هذه النظرة الايجابية حاول النفاذ الى واقع الذات الانسانية بروح اتسمت بالشمولية والاهتمام بالطبقات الدنيا والسخرية من الطبقة الارستقراطية ، فهو على الرغم من نشأته البرجوازية « كان يرى ان مستقبل العالم سوف ينتقل الى أيدي الطبقات الكادحة والبروليتاريا ، طالبا من البيروقراطية الحاكمة الا تركب رأسها في مناوءة الذين ستؤول اليهم مقاليد الحكم ، ان عاجلا أو آجلا » [1] .

ان اسلوب موم مزيج من مذهبين أدبيين كبيرين ظهرا في أواخر القرن الثامن عشر : المذهب الواقعي ، والمذهب الطبيعي ، فوصفه للاحداث يتسم بالفوتوغرافية الواضحة الصريحة دونما عناء وتكلف ، مع قدرة وموهبة في الدقة والتفصيل ، بالاضافة الى تجسيده واهتمامه واستنباطه وتعليله لما توحيه صور الحياة الطبيعية العامة الينا من حس وعاطفة وفكر وشعور ، اذ سرعان ما شاعت قصصه ورواياته ومسرحياته المعتمدة على دقة خلق الحبكة القصصية على طريقة الكاتب الفرنسي المشهور (غي دي موباسان)[2] في ايجازها وكثافتها الفنية . وحين يكتب موم للمسرح مباشرة « فانه يطالعنا بملاه لا تقل جمالا وعمقا عن ملاهي اوسكار وايلد . كما ان له من تمكنه من صناعته ، وعمق احساسه بالوقائع ، وقوته وواقعيته ، ما يجعله واحدا من اكبر كتاب المأساة المشهورين الذين عرفتهم انكلترا » [3] . وقد وصفه بعض النقاد بأنه قد ادخل الواقعية في الرواية

---

(١) مقدمة المترجم .

(٢) Ency. Brita., Vol. VI, 1974, p. 701.

(٣) بول دوتان ، الادب الانجليزي، دار الفكر العربي، ط ١ ، القاهرة، ١٩٤٨ ، ص ٢٤٦ .

Twitter: @ketab_n

الاغترابية[1] التي خلقها نتيجة أسفاره الكثيرة حين كان يبحث عن الشمس ويسعى الى البلاد المجهولة . فقد كوّن موم لنفسه سمعة طيبة في عام ١٩١٩ بكتابته مسرحية (زوجة قيصر) ومسرحية (السيدة والجمال) وهما « ملهاتان تدوران حول حياة الطبقة الراقية ، امتزجت فيهما السخرية بالنقد ، واعقبهما بملهاتين كاملتين فضح فيهما ببلاغة مؤثرة حياة الاغنياء العاطفية . وتعد مسرحية (الدائرة) التي ظهرت عام ١٩٢١ ، وهي احدى هاتين المسرحيتين ، من اكمل مسرحيات موم ، بينما مسرحيته الموسومة بـ (الافاضل) التي ظهرت عام ١٩٢٣ تبين قسوة وانحطاط العالم الذي تصفه هذه الملهاة التي احسن صياغتها ... لقد استحوذ المؤلف دونما عناء يذكر على ادارات المسارح التجارية ، واستمر نجاحه من العقد الثالث الى الرابع من القرن العشرين »[2] .

٢

تعلق موم بالتربية الفرنسية تعلقا عجيبا وان كان انكليزي الاصل والنسب، فجذور طفولته الاولى فرنسية ، وثقافته الفنية فرنسية ، ومحاكاته الاسلوبية كانت لكتاب فرنسيين ... فرنسا هي التي علمته وخلقت فيه القدرة على تقدير الجمال ، وغذت فيه الحس النقدي والشعور العميق : « فرنسا هي التي علمتني الكتابة » كما يقول موم ذاته . ان زياراته المتكررة الى فرنسا وحبه المتأصل الى عشق الفن والطبيعة والترحال اسباب دفعته الى البحث عن منابع الفن الاصيل المتمثل في رسوم الفنانين المعروفين وقتئذ . وقد كان متحمسا للمدرسة الانطباعية في الرسم إبان نشأتها الاولى في باريس ... فهو يعتقد ان قيمة الفن الاولى تكمن في مدى تأثيره على الجمهور وخلق الاحساس ، وهذا يعني ان قيمته لا تتأتى من جماله فحسب، بل بالقدر الذي تقدمه من حدث صائب في حياة الانسان ... قد يقترب اسلوب موم النثري من اسلوب برنارد شو لما فيه من ابانة ووضوح ، وعلى الرغم من ان القارىء قد لا يتفق مع كل ما يقوله موم ، فانه يفهمه بوضوح دونما عناء وغموض .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

(٢) بي.ا. ايفور ايفانز ، تاريخ الادب المسرحي الانكليزي ، ترجمة علاء الدين حمودي وعبد المطلب عبد الرحمن ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

Twitter: @ketab_n

موم كاتب واقعي وفيلسوف ، فهو يرى ان الرخاء مرافق للسعادة ، وان السعادة ليست غاية في حد ذاتها ... وقد اشار موم في مسرحيته (الدائرة) على لسان احد شخوصها ، الا جدوى من النواح والسوداوية والسير وراءها ، بل يتحتم على الانسان السعي الى الحياة كما تظهر في اطار السعادة والتفاؤل .. فقد عبر موم عن تجاربه وذاته بحرية تامة ووضوح بارع في كثير من قصصه ومسرحياته ورواياته ومقالاته ، فقد سكب في هذه الآثار المختلفة شتى الاحاسيس والمشاعر الذاتية وما تضمنت من مرارة وتعاسة كان قد عانى منهما موم منذ نشأته الاولى في باريس ، فشبابه في لندن ، فظهوره كاتبا واقعيا يعرفه جمهور القراء ويسعى الى مشاهدة مسرحياته الكثيرون من عشاق المسرح في لندن . فهو معروف في الاوساط العامة بأنه شيخ الاقصوصة وليس مسرحيا او روائيا او ناقدا ، ذلك لان قصصه القصيرة قد وصلت الى اذهان كثيرة من القراء والمستمعين عن طريق المجلات الشائعة والراديو والسينما والتلفزيون .. لقد وصلت الى مئات الآلاف من القراء وربما الملايين[1] الذين لم يشهدوا مسرحا او يقرأوا كتابا .

تأثر موم في كتابة الاقصوصة ـ وكما مرت الاشارة الى ذلك ـ بطريقة موباسان وتشيخوف ، ولكنه كان اقرب الى محاكاة موباسان في اسلوبه الادبي .. فقد قرأ موم آثار موباسان واعاد قراءتها بين الحين والحين الآخر عندما كان صبيا فشابا . وعندما بلغ موم الثامنة عشرة من عمره وبدأ بالكتابة كان من الطبيعي ان يكون موباسان مثله الادبي والانموذج الذي يحاكيه ويقتدي به . فالاقصوصة في نظر موم قطعة من قصة لا يؤثر طولها على قيمتها الفنية ، بل تتجلى قيمتها في بحثها عن الموقف والحدث والحالة النفسية . واذا كان نجاح الاقصوصة متوقفا على صراحتها ووضوح اهدافها وفنية حبكتها ، فان اقاصيص موم مثال رائع لمثل هذا النجاح الادبي ، ذلك لان الشوق العميق الى قراءتها لدليل كاف على شيوعها ، حتى لقد وصف موم بأنه « اوسع كاتب قصة في مجال القراءة في هذا القرن »[2] .

---

(1) R.A. Cordell, Somerset Maugham, Indiana University Press, Bloomington, 2nd Ed. 1961, pp. 79-80, 160-162, 164-165.

(2) Ibid. p. 165.

Twitter: @ketab_n

لم يناقش موم في آثاره الادبيـة القضايا السياسية والاجتماعيـة بالدرجة التي ناقش فيها قضايا الفن والادب والفلسفة ، وقد تجلت هـذه الظاهرة الادبيـة في كتابه الموسوم بـ (التلخيص) والذي احسن المترجم الاستاذ جعفر صادق الخليلي بتسميته بـ (تجربتي في الادب والحياة) .

٣

ان كتاب موم (تجربتي في الادب والحياة) ليس غريبا عـلى قراء آثاره الادبية الاولى ومقدماته المختلفة ، فهو ، في الواقع ، خلاصة لافكاره ومواقفه في الادب والفن والاخـلاق والدين والفلسفة ، بالاضافـة الى اشاراته الكثيرة الى بعض المناسبات والاحداث التي اثرت في حياة موم كاتبا وانسانا وناقدا ... فالكتاب ليس ترجمة ذاتية او لونا مـن الوان ادب السيرة كما يتصور البعض ، وقد صرح بهذه الحقيقة موم نفسه وهو يستهل كتابه بقولـه : « ليس هـذا الكتاب ترجمة لحياتي ، ولا هـو بمذكرات ، فلقد ادرجت في كتبي الماضيات ما صادفني في حياتي . ولكم اتخذت من تجربة مرت بي نواة انسج حولها من الحوادث ما يبرز صورتها. ولكم من اشخاص مروا في حياتي اصبحوا شخوصا يمثلون عـلى مسرح كتبي . فالحقيقة والخيال في كتبي مزاج متداخل بحيث لا اكاد اميز احدهما عن الآخر . »

الكتاب اضواء نافذة في قضايا الفلسفة والفن والنقد والحياة لا تخلو من نكتة لاذعة واعتراف صريح ، وسخرية نادرة ، وجرأة بارعة ، وموقف واقعي لا يتسرب اليه شك او ينفذ اليه غلو واسراف .. انه سجل لآرائه في اكثر الموضوعات التي شغلت باله في سني حياته .. انه يحـدد آراءه بصراحة تامة ليس لمجرد التحـديد فحسب ، بل من اجـل الوصول الى النتيجة حيث يجد راحة لنفسه في الوصول اليها « لان النتائج التي توصلت اليها ، كما يقول موم ، ما برحت تطوف في ذهني كما تطوف بقايا سفينة في بحر هائج » . فلا بد له من تدوينها والوقوف عليها لانها اهم مظهر من مظاهر حياته الانسانية من جهة ، ولانها رسمت فلسفته من جهة اخرى ...

تناول الكتاب مجموعة من القضايا النقـدية المهمة : الخلود الادبي وابعاده الفلسفية ، فن الكتابة ، لغة الكتابة ، الجمال وقيمه المادية والروحية،

Twitter: @ketab_n

مصادر الكتابة واهميتها التاريخية ، ميلاد القصيدة وشخصية الشاعر ، مقومات الفن الشعري ، الموسيقى الشعرية واثرها في الفن النثري ، الغموض في النثر والشعر ، فهو يرى مثلا وجود ضربين من الغموض عند الكتاب « احدهما يعزى الى الاهمال ، والآخر مقصود • فهناك من يكتنف الغموض كتاباته لانه لم يتعلم كيف يكتب بوضوح ، ويكثر هذا الضرب عند الفلاسفة المحدثين ورجال العلم وحتى عند نقاد الادب ••• وسبب آخر هو ان الكاتب نفسه غير متوثق من معانيه ، فشعوره بما يريد الافصاح عنه ضعيف لا يستطيع معه ان يكون في ذهنه تعبيرا دقيقا عنه ، اما لضعف تفكيره او لكسله ، فمن الطبيعي الا يجد التعبير الصادق لفكرة مشوشة • وهذا يرجع ، اكثر ما يرجع ، في كثير من الكتاب ، الى انهم لا يفكرون قبل الكتابة ، وانما هم يفعلون ذلك اثناءها ، كأن القلم يخلق الفكرة • وفي هذا خطر كبير ينبغي ان يحذره كل مؤلف ، ذلك ان للكلمة المدونة سحرها ، والفكرة تتخلق باتخاذها شكلا مرئيا ، ومن ثم تقف حائلا دون توضيحها ••• وهناك لون آخر من الغموض المقصود يتنكر في زي الارستقراطية المقصورة على الخاصة ، فيغلف المؤلف معانيه بالغموض لئلا يدركها العامي » •

ان نظرة موم الى الغموض الفني في الادب المعاصر تكشف عن حس واقعي وتجربة اصيلة في هذا الميدان ، وهو ينظر الى هذه القضية النقدية المهمة نظرة موضوعية علمية • فهو ينطلق من مبدأ الوضوح واشراق العبارة وصدق التجربة •• لا شك في انه ناقد منهجي علمي في هذا الباب ، وان كان نقاد الادب، في الواقع، قد اختلفوا في تحديد ابعاد هذا الموضوع، فجمعوا بين الغموض ظاهرة فنية في الادب وبين تيار الوعي واللاوعي ظاهرة نفسية في حياة الاديب ••• ان النقاد لم يتهجموا على موم ولم يتجاهلوه ، لانه يحمل في نظرته بذور الواقعية النقدية •

ويقرن موم بين الغموض الفني ومكان الكلمة منه حين يؤكد موسيقى اللفظة وغنائيتها وقدرتها النغمية دونما اخلال بمعناها ، فهو يقرر « ان للكلمة حكم المستبد ، فهي تحيا بمعناها ، فان انت لم تقم وزنا لها فلا يمكنك ان تزن شيئا ابدا » • وهو بذلك يناقش قضية المعنى واللفظ واركان الصورة الادبية في مدى الانسجام والتناسق الحاصل من الملاءمة

Twitter: @ketab_n

بين هـذين العنصرين الرئيسين .. ولما كان موم مـن انصار الوضـوح والواقعية في الادب فانه يدعو بحكم الضرورة الى توكيد الجانب المعنوي في الصورة الادبية ، دون ان يتناسى ما لجمال اللفظ وموسيقاه من اثر في تقويم القيمة الجمالية والفنية للاثر الادبي . فالبساطة عند موم « تكون زيفا ان انت لم تقل ما ينبغي لكونك غير قادر عـلى التعبير عنه بأسلوب بعينه . على المرء ان يكتب بأسلوب عصره . فاللغة كائن حي دائم التطور وسعيك الى ان تكتب مثلما كان يكتب المؤلفون في الماضي البعيد ليس الا بعثا للتصنع » . هـذه نظرة تؤمن بالتطور والحركة في اللغـة الادبيـة ، وترفض الجمود والسلفية ، وقد جسدها موم بصراحة ودقة واقعيتين .

واذا تجاوزنا قضايا الكتاب الادبية ، فانه مصدر غني لفلسفة موم ومواقفه من ظواهر الكون ، الطبيعـة ، الديـن ، التصـوف ، الجمال ، الايمان ، الفلسفة ، يستطيع القارىء العربي الاستفادة منها لانها مواقف وآراء صادرة عن تجربة واختبار ، اذ لا قيمة لحياة المرء بلا اختبار . لا شك في ان بعض آراء موم تبدو متطرفة في بعض الامور، وخاصة الدينية منها ، ولكنها من جهة اخرى تعكس واقع هذا الاديب ، وتكشف عـن جوانب كثيرة من سيرته الذاتية تصلح مصدرا مهما من مصادر دراسة ادبه لمـن يرغب في هذه الدراسة .

لقد اجاد المترجم في نقل هذا النص الادبي الرفيع الى اللغة العربية بأمانة وصدق ، وقـد كان في ترجمته اديبا بارعا يتوخى الوضوح ودقـة التعبير ، فقد وقف طويلا عند بعض نصوصه يتأملها ويقرأ عنها ويفكر في مضمونها حتى اهتدى الى ترجمتها بوعي وادراك وحس ادبي ناضج ، فقد عرفت الاستاذ جعفر صادق الخليلي زميلا حميما احب القراءة واحبته منذ نعومـة اظفاره ، حتى ان تخصصه باللغة الانكليزية جاء دليلا على حبـه الاستزادة من منابع الثقافة الاوروبية، فقرأ ، وترجم ، وكتب ، وعلق، ونقد فأصاب ، وما زال كذلك صديقا وفيا للكتاب . وهو اذ يقـدم هذا الاثر الادبي الجليل الى قراء عربيتنا انما يقدم خـدمة علمية لثقافتنا العربيـة المعاصرة يستحق عليها كل تقدير وثناء .

بغداد ١٩٧٥/٩/١٥ د. عناد غزوان اسماعيل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تقديم

بقلم
جعفر صادق الخليلي

لست أراني بحاجة الى الاسهاب في تقديم هذا الكاتب العالمي ، فقد أُلّفت عنه الكتب المطولة والمقالات العديدة ، والقيت عنه المحاضرات في أنحاء العالم الغربي ، وترجم أكثر انتاجه الى لغات شتى ، ومثلت مسرحياته في عدد من أقطار اوروبا وأمريكا ، حتى أنه وبرنارد شو ظلا مسيطرين على لندن زمنا طويلا لا تمثل مسرحية لغيرهما على مسارحها ، وحتى أن مجلة (بنج) الشهيرة رسمت في أحد أعدادها صورة كاريكاتيرية تمثل شكسبير يعض على أصبعه حسدا وهو يتأمل اعلانا عن أربع مسرحيات لسومرست موم تمثل في أربعة مسارح في لندن بوقت واحد .

برّز موم في ثلاثة من أهم ميادين الادب ، هي : الرواية ، والقصة والمسرح ، على الرغم من أنه كتب في الرحلات ، وفي النقد ، ونشر المقالات، والقى المحاضرات ، في غير تلك من الميادين .

تمتاز كتابات موم بانسانيتها وشمولها وعنايتها بالطبقات الدنيا وسخريتها من الطبقة الارستقراطية . وعلى الرغم من نشأته البرجوازية فقد كان يرى ان مستقبل العالم سوف ينتقل الى أيدي الطبقات الكادحة والبروليتاريا ، طالبا من البيروقراطية الحاكمة الا تركب رأسها في مناوءة الذين ستؤول اليهم مقاليد الحكم ، ان عاجلا أو آجلا .

كان موم أوسع الكتّاب شعبية خلال النصف الاول من هذا القرن حتى وصفوه بأنه موباسان الانجليز . استطاع موم ان يستحوذ ، قرابة نصف قرن ، على اهتمام طبقتين مختلفتين منشأ وتفكيرا ومعيشة : الطبقة المثقفة ، والطبقة الشعبية ، على الرغم من اختلاف ذوقيهما ، وبخاصة الطبقة المثقفة التي كانت تزوّر عما تستسيغه الطبقة الاخرى . وهذا ما لم يبلغه

Twitter: @ketab_n

الا القلة من مشاهير الكتاب • صحيح أن برنارد شو استطاع ان يرغم مختلف الطبقات على ارتياد المسرح لمشاهدة تمثيلياته ، ولكن من المشكوك فيه انه استطاع ان يرغمها على قراءة المقدمات التي كتبها لمسرحياته • وعلى الرغم من ان شو ويز موم في طول فترة الكتابة للمسرح ، الا أنه بقي على نفس الوتيرة اللامعة التي كانها منذ البداية كدرامي لا يجارى • الا ان موم بخلاف شو ، عالج مختلف أساليب الكتابة وأجاد فيها جميعا ، فلم تقتصر فرديته واصالته على أسلوب واحد ، بل تجلت في كل ما كتب على تنوعه ، مواكبا اختلاف الاذواق وتطور الاساليب بمرور الزمن • فليس من المستغرب اذن ان نلاحظ اختلافا بينا في العرض والاسلوب عند موم فيما بدأ به وفيما انتهى اليه • فاذا كانت (ليزا من لامبث) تتخذ مكانها في اطار اسلوب الادب الفيكتوري ، نجد في (الليدي فريدريك) كوميديا اخلاقية تنتسب الى الاسلوب الادواردي • وفي (الدائرة) و (خيارنا) يكتب للطبقة المعنية بالمسرح في العشرينات • وفي الثلاثينات يكتب (حد الموسى) بأسلوب جديد يتفق والحياة المحمومة المهلهلة التي سادت بعيد الحرب العالمية الاولى •

الخيط الرئيس في كتابات موم هو الرفض الايجابي • انه يرفض اصدار أحكام عاجلة تحت ضغط العاطفة الآنية• ففي رحلاته المتعددة الى شتى أنحاء العالم يتاح له ان يتصل اتصالا مباشرا بما يبحث عنه : المادة الخام للكتابة ، فيسجل الملاحظات ، ويرسم الخطوط ، ويربّي الشخوص ولكنه لا ينشر ذلك قصصا متكاملة الا بعد سنوات ، بعد ان تكون العاطفة الآنية التي أثارتها قد خبا لهيبها ولم يبق منها الا ما ينفع أساسا لقصة عالمية المنحى ، انسانية النزعة ، وان تكن محلية الحوادث والاطار •

هناك جانب آخر من جوانب الاختلاف بين موم وشو • فعندما يبتكر شو شخصية من شخوصه ، يمنحها منذ البداية ما يريده لها من مباديء فلسفية واتجاهات عقائدية أو سياسية ، فكأنه ينتقيهم انتقاء من بين أفراد المجتمع ، وهكذا الالتزام • وليس كذلك موم دائما ، فقد لا يستبين لك في بعض شخوصه اتجاه معين أو نظرة خاصة الى العالم ، وأشخاص لهم بعض جانب من هذا لا شك موجودون •

ولد وليام سومرست موم في باريس عام ١٨٧٤، وتوفي في جنوب فرنسا

Twitter: @ketab_n

عام ١٩٦٥[1] • تلقى دراسته الاولية في بريطانيا، وتخرج طبيبا عام ١٨٩٧ • نشر روايته الاولى(ليزا من لامبث) في نفس السنة وهو في الثالثة والعشرين، وأصدر مجموعته القصصية الاولى عام ١٨٩٩ • مثلت أولى مسرحياته (رجل مرح) عام ١٩٠٣ • آخر ما كتبه للمسرح كانت مسرحية (جزيرة شيبي) عام ١٩٣٣ • اقتبست بعض قصصه للسينما لاول مرة في الاربعينات• له أكثر من مئتي قصة ، جمع أكثرها في أربعة مجلدات • وجمع أهم مسرحياته في ستة مجلدات • له أكثر من ثلاثين رواية مطولة ، عدا كتب الرحلات وغيرها •

اما كتابه (The Summing Up) الذي اتقدم بترجمة له فهو بحق (تلخيص) لاكثر من نصف قرن من التجربة والمعاناة في مختلف مجالات الادب والمسرح والقصة والشعر والفلسفة والنقد • انه عصارة حياة حافلة لانسان اديب جاب معظم ارجاء المعمورة باحثا وملاحظا ومتقصيا ومسجلا ، فهو يستحق عناية كل معني بدراسة الادب عموما ، والقصة والرواية والمسرحية على وجه التخصيص •

واني على الرغم من اختلافي مع المؤلف في بعض من آرائه ومقولاته ، واتفاقي معه في اخريات ، فقد سعيت ان تكون الترجمة امينة ليكون القارىء العربي اقرب الى تفهم مقاصد المؤلف ، سواء في افكاره او في اسلوبه ، ولكي تعم فائدته دارسي الادب بمختلف فنونه •

بغداد — جعفر صادق الخليلي

(١) ذكرت سلسلة (بنكوين) في عدد من نشرياتها عن موم انه توفي عام ١٩٦٦ ، غير ان المجلس البريطاني الوطني لرابطة الكتاب قال في (ادباء ومؤلفاتهم) ج ٢٢ انه توفي عام ١٩٦٥ .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

ليس هذا الكتاب ترجمة لحياتي ، ولا هو بمذكرات ، فلقد ادرجت في كتبي الماضيات ما صادفني في حياتي • ولكم اتخذت من تجربة مرت بي نواة انسج حولها من الحوادث ما يبرز صورتها • ولكم من اشخاص مروا في حياتي اصبحوا شخوصا يمثلون على مسرح كتبي • فالحقيقة والخيال في كتبي مزاج متداخل بحيث لا اكاد أميز احدهما عن الآخر • فليس مما يمتعني ان اسجل الحقائق مجردة ، بعد ان افدت منها افضل فائدة ، حتى وان استطعت استعادة ذكراها ، ذلك انها تبدو لي تافهة • كان في حياتي ألوان ، ومتـــع ، وان خلت مـــن روح المغامرة • ان لي ذاكرة ضعيفـــة لا تستوعب الحكاية الجيدة حتى تتكرر ، ومن ثم اكون قد نسيتها قبل ان تتاح لي فرصة سردها على احد ، بل انني لا اتذكر حتى نكاتي الخاصة، الامر الذي أضطر معه الى ابتداع نكات جديدة • واني مدرك ان عجزي هذا يجعلني أقل ألفة ومؤانسة •

لم اكتب يوميات ابدا • واني لاتمنى لو انني فعلت ، بعد نجاحي الاول ككاتب مسرحي • ذلك انني التقيت حينذاك العديد من الشخصيات من ذوي الشأن ، فلعلهـــا كانت تكون سجلا ممتعا • كانت ثقـــة الناس بالطبقة الارستقراطية وبالاقطاعيين قد تضعضعت في تلك الحقبـــة لسوء تصرفاتهم في جنوب افريقيا ، ولكن هؤلاء لم يفطنوا لما حدث ، فظلوا على ثقتهم السابقـــة بأنفسهم • كنت اسمعهم في المحافـــل السياسية التي كنت اختلف اليها يتحدثون عن ادارة الامبراطورية البريطانية وكأنها شأن مـــن شؤونهم الخاصة ، وكان يعتورني احساس غريب وهم يبحثون الانتخابات العامة ، فينسّبون (توم) لوزارة الداخليـــة • ويتساءلون عمـــا اذا كان (ديك) يرضى بارلندة • لا اظن ان احدا يقبل اليوم عـــلى قراءة قصص (مسز همفري وارد) المملة ، الا ان بعضها يصور خير تصوير حياة الطبقة

Twitter: @ketab_n

الحاكمة يومئذ • فلقد كان القاص يعنى بهم كثيرا ، وحتى الذي لم يكن يعرف احدا منهم كان يرى لزاما عليه ان يكتب باسهاب على ذوي المراكز الرفيعة • لا شك في ان من يلقي نظرة على برامج حفلات التشيل يومذاك ستستحوذ عليه الدهشة لرؤيته اسماء العديد من شخوص التشيلية من ذوي الالقاب • كان مديرو الفرق يرون ان ذلك مجلبة للجمهور ، وكان الممثلون يعجبهم القيام بأدوار النبلاء • غير انه بعد تضاؤل اهمية الارستقراطيين السياسية ضعف اهتمام الناس بهم ، وراح المتفرجون يقبلون على مشاهدة مسرحيات تمثل حياة الطبقات التي ينتمون اليها ، كالتجار والمهنيين الذين كانوا يديرون شؤون البلاد حينذاك • وقد جرت العادة ــ وان لم تصبح قاعدة ــ على انه لا يجوز للكاتب ان يعرض للشخصيات ذوي الالقاب الضخمة ، الا اذا كان الموضوع يستلزم ذلك • ومع ذلك فقد كان استجلاب الجمهور من الطبقات الدنيا ما يزال مستعصيا ، فقد كانت القصص والمسرحيات التي تعالج امورهم توصف بالقذارة • وقد يبدو غريبا ان تجد الناس الآن يعنون بحياة هذه الطبقات التي نالت السلطة السياسية نفس عنايتهم السابقة بذوي الالقاب ، ثم بالبرجوازية الثرية •

في هذه الحقبة التقيت اشخاصا كانوا، بسبب من منزلتهم او شهرتهم او مركزهم ، يظنون ان القدر قد هيأهم ليكون لهم شأن في التاريخ • الا انني لم اجد فيهم ذاك البريق الذي صوره لي خيالي • الانجليز امة سياسية ، ولطالما دعيت الى حفلات كانت السياسة فيها الحديث السائد ، غير اني لم اكتشف في السياسيين المبرزين الذين التقيتهم اية قابلية متميزة ، فاستنتجت ــ ولعلني كنت متسرعا ــ ان حكم امة لا يقتضي قدرا كبيرا من الذكاء • ولقد تعرفت منذ ذلك الحين ، وفي العديد من البلدان ، بكثير من السياسيين الذين تسنموا مراكز عليا ، الا ان عقلياتهم المتوسطة ما برحت مدعاة لحيرتي ، فلقد وجدت معرفتهم بشؤون الحياة المألوفة ضعيفة ، ولم اجد فيهم ومضة من ذكاء او خصبا في خيال • كنت احيانا اميل الى الظن بأنهم مدينون بمراكزهم اللامعة الى موهبة في الخطابة عندهم ، اذ يكاد يكون مستحيلا عليك تسنم السلطة في مجتمع ديمقراطي ان لم تكن قادرا على حمل الجمهور على الاصغاء اليك • ان موهبة الخطابة ، كما نعلم ، لا ترافق

Twitter: @ketab_n

دائما قوة الفكر ، الا انني وقد التقيت سياسيين لا يبدو عليهم كثير ذكاء ، موفقين في ادارة الشؤون العامة ، لا يسعني الا ان اراني مخطئا ، فالظاهر انه لكي تحكم امة يقتضي لك موهبة خاصة دونما حاجة الى مقدرة عامة • كذلك لاحظت رجالا كوّنوا ثروات ضخمة ونجحوا في ادارة مشاريع كبيرة ، الا انهم ، فيما عدا ما يتصل بشؤون عملهم ، كانوا يفتقرون حتى الى الادراك الفطري السليم •

بل ان الكلام الذي كنت اسمعه حينذاك لم يكن يتسم بالحذق الذي كنت اتوقع ، فقلما استمعت الى ما يستوجب امعان الفكر • كانت احاديث سهلة ، مرحة ، شيقة ، سطحية • اما الاحاديث الجادة فلم يكن يتطرق اليها احد ، لان التطرق الى مثل ذلك في مجتمع عام فيه حرج ومضايقة ، كما كان تهيبهم من إلصاق صفة السوقية بهم يحول بينهم وبين الخوض في احب المواضيع اليهم ، فالكلام لا يكاد يتجاوز مزحة منمقة او نكتة باهتة قلما استحقت التكرار ، حتى ليخيل للمرء ان غرض الثقافة لم يكن الا لتمكين المرء من ان يلبس هراءه لبوس الرفعة والسمو • ولا اظنني التقيت بأحد امتع حديثا ولا أكثر ايناسا من (ادموند جوس) • كان مسرفا في القراءة ، ولو انها على ما يبدو لم تكن متعمقة ، الا انه كان ذكي الحديث ، يتمتع بذاكرة مذهلة ، حسن الادراك ، ذا مكر ودهاء • كانت تربطه مع (سوينبرن) صداقة وثيقة ، وكان يتحدث عنه بأسلوب مبدع غير متكلف، الا انه كان يتحدث ايضا عن (شللي) وكأنه اقرب المقربين اليه ، على الرغم من انه ما كان يمكن ان يكون قد زامله •وقد بقي لسنوات عديدة يصاحب شخصيات مرموقة • كان ذا خيلاء ، عرف تفاهة اصحابه فاستطابها ، وانا واثق انه اظهرهم ادعى الى التسلية مما هم كانوا في الواقع •

٢

لطالما عجبت من لهفة بعض الناس وتطلعهم الى لقيا المشاهير من الناس • ان اعتبارا تناله من معرفتك رجالا مرموقين ليس سوى دليل على انك قليل الاعتبار • والمشاهير انفسهم يصطنعون الاساليب اصطناعا لمعاملة من يصادفون ، وهي غالبا ما تكون قناعا سميكا يحرصون على الا تنكشف

Twitter: @ketab_n

دخيلتهم من خلفه • انهم يمثلون الدور الذي يتوقعه الناس منهم ، ويتعلمون بسرور الزمن كيف يجيدون التمثيل • الا انك تكون مغفلا لو ظننت ان هذا التمثيل الظاهر يتسق مع الانسان في الباطن •

قليلون اولئك الذين كنت شديد التعلق بهم ، الا ان اهتمامي بالناس عموما لم يكن لذواتهم ، بل لدواعي عملي • لم اكن ارى الفرد ، كما كان يراه (كنت) ، غاية بحد ذاته ، وانما كنت اراه مادة نافعة لي ككاتب ، فانا اعنى بالمغمور اكثر من عنايتي بالمشهور ، فهو في اكثر الاحايين يحكي ذاته ولا يجد ما يدعوه الى اصطناع شخصية مغايرة يحتمي بها من العالم او يؤثر بها فيه ، فقد اتيح لمزاجه فرصة ارحب للتطور والنمو في نطاق نشاطه المحدود • ولما لم يكن له يوما شأن ما ، فلم يخطر له على بال ان به ما ينبغي ستره عن الاعين ، بل انه ليكشف عما في نفسه من غرابة اطوار لانها لا تبدو له اطوارا فيها غرابة • ومهما يكن ، فان الانسان العادي هو الذي علينا نحن الكتاب ان نعالجه ، فاصحاب التيجان ، والطغاة ، وملوك المال ، لا يغنوننا شيئا ، ولو ان الكتابة عنهم كثيرا ما اجتذبت الكتاب ، غير ان الفشل الذي اصاب جهودهم دل على ان مخلوقات كهذه لا تصلح ان تكون ارضا خصبة لعمل فني ، اذ ليس من اليسير اظهارهم على حقيقتهم • ان الانسان العادي هو مزرعة الكاتب الغنية المعطاء • ان فرديته فجائية ، وتنوعه اللامحدود معين لا ينضب • والعظيم غالبا ما يكون نسيج وحده ، انما الوضيع هو الذي يكون فيضا من عناصر متناقضة • انه عين ثرة لا تغيض ، ولن تجد حدا لما يدخره لك من مفاجئات • انه لافضل عندي ان اقضي شهرا على جزيرة قاحلة مع بيطري على ان اقضيه بصحبة رئيس لوزارة •

٣

سوف اعنى في هذا الكتاب بتحديد آرائي في اكثر المواضيع التي شغلتني في سنيّ حياتي ، لان النتائج التي توصلت اليها ما برحت تطوّف في ذهني كما تطوف بقايا سفينة محطمة في بحر هائج • ولقد بدا لي انني ان دونتها في ترتيب ما فلعلها تكون اوضح في نفسي مترابطة فيما بينها • كان هذا يجول في خاطري منذ امد طويل ، ولقد نويت على ذلك اكثر من

Twitter: @ketab_n

مرة عندما كنت اعتزم القيام برحلات كانت تستغرق اشهرا عدة ، فقد كانت هذه فضلى المناسبات ، ولكني كنت دائما اراني غرضا لشتى الانطباعات ، فلقد شاهدت الكثير من الغرائب والتقيت بالعديد من الاشخاص الذين اثاروا خيالي ، حتى انني لم اكن اجد الوقت الكافي للتفكير • كانت تلك اللحظات مفعمة بالحياة والاشراق ، فلم اكن استطيع توجيه تفكيري الى التأمل والاستبطان •

ومما حال دون ذلك ايضا تضايقي من تنظيم افكاري في نفسي ، ذلك انني وان كنت قد كتبت الكثير ، الا انني كنت في ذلك الكاتب الروائي الذي يتخذ من نفسه احد شخوص الرواية ، فالعادة المستديمة يسرت علي الحديث على ألسنة مخلوقات ابتدعتها ، بامكاني ان اقرر ما يفكرون به بأيسر مما اتحكم بما افكر به انا نفسي • كان الاول مدعاة لمسرتي دائما ، وكان الآخر ثقيلا علي فأرجأته طوعا • اما الآن فلم يعد بوسعي ان اطيل ارجاءه اكثر ، فسني الشباب تمتد وتتطاول حتى ليعسر على المرء ان يتصورها ستنقضي ، وحتى في عقود الكهولة ، وما ينتظره المرء من الحياة ، ليس اسهل من ان يجد الانسان ما يتذرع به لتأجيل ما يود تحقيقه ولكنه لا يريد • الا ان الساعة آتية ولا ريب حين لا يجد المرء مندوحة عن التفكير في الموت • فهنا وهناك يتهاوى معاصروه من حوله • والانسان فان كما نعلم (كان سقراط بشرا ولذلك فانه ••• الخ) • ومع ذلك فاننا لا نرى في هذا سوى مجرد مقدمة منطقية فحسب ، الى ان نحمل حملا على الاعتراف بأن نهايتنا ، بحسب جريان المألوف من الامور ، لا يمكن ان تكون بعيدة عنا • ان نظرة عابرة الى عمود الوفيات في (التايمس) تشعرني بأن صحة الانسان في الستينات من العمر لا يوثق بها ، واراني استشيط غضبا كلما خطر لي انني سأموت قبل كتابة هذا الكتاب • لذلك فقد بدا لي انه من الخير لي ان ابدأ به فورا ، وعند اتمامه سأتفرغ لمواجهة المستقبل هادئا ، اذ اكون حينئذ قد اكملت مهمتي في الحياة • ليس بامكاني بعد هذا ان اقنع نفسي بأني لست مستعدا لكتابته ، ذلك اني ان لم احزم امري الآن على ما هو مهم في نظري فلن يكون لي كبير امل في ان افعل ذلك فيما بعد • وانه ليسعدني الآن أن اؤلف فيما بين هذه الافكار التي ما زالت تحوم في رأسي مبعثرة ، وبعد الانتهاء من تدوينها سأطرحها جانبا

Twitter: @ketab_n

وسأكون حرا في ان اشغل نفسي بأمور أخرى ، ذلك ان لي املا ألا يكون هذا آخر ما اكتب ، فالمرء لا يموت بمجرد كتابة وصيته ، وانما هو يكتبها من باب الاحتياط • ان تنظيم المرء اموره استعداد جميل لقضاء ما بقي له في الحياة دون ان يخشى المستقبل • بانهائي هذا الكتاب اكون قد عرفت موطن قدمي ، وسأستطيع حينئذ ان اتصرف بما بقي لي من رصيد السنين•

٤

لا مندوحة لي في ان اكرر في هذا الكتاب امورا سبق ان ذكرتها • وهذا ما دعاني الى ان عنونه باسم (التلخيص) • فعندما يقوم الحاكم بتكييف قضية ما ، فانه في الواقع انما يستخلص الحقائق التي عرضت على المحلفين ويعلق على (الدفوع) ، ولكنه لا يتقدم بأدلة جديدة • ولما كنت قد سكبت حياتي كلها في كتبي ، فان اكثر ما سأقوله الآن لا بد انه قد سبق ذكره في احدها ، وليس هناك الا القليل من المواضيع التي راودتني دون ان اعالجها فيما سبق ايجازا او اسهابا • فكل ما استطيعه الآن هو ان ارسم صورة مترابطة لمشاعري وآرائي ، وان استزيد شرحا لآراء لم يتح لي اليها غير اشارة عابرة في قصصي ومسرحياتي •

ولا يخلو هذا الكتاب من الانانية ، اذ سيتناول الكلام على امور معينة تدور حولي وتعنيني ، وذلك لاني انما استطيع التحدث عما كان له علي بعض اثر ، ولكن ليس عن افعالي ، اذ لا رغبة عندي في الكشف عما في قلبي ، لاني ألتزم بحدود للالفة بيني وبين قرائي ، فهناك امور اختص بها وحدي دون غيري ، وليس هناك من يعري نفسه ليكشفها بكل ما فيها• لم يكن الغرور هو وحده الذي منع اولئك الذين حاولوا كشف انفسهم امام العالم من ان يذكروا الحقيقة بكاملها ، فاختلاف الميول ، وخيبة الامل، واستغرابهم من انهم قادرون على ارتكاب اعمال تبدو لهم شاذة ، تجعلهم يسبغون اهمية كبيرة على حوادث هي في الواقع مألوفة ومبتذلة • يقص (روسو) في معرض (اعترافاته) حوادث قد هزت مشاعر البشرية • انه ، بتلك الصراحة التي وصفها بها ، قد زيف قيمه الاخلاقية ، مسبغا عليها اهمية اعظم مما كانت لها حقا • لقد اغفل ذكر حوادث خيّرة او غير مرذولة

Twitter: @ketab_n

في الاقل لانها بدت له عادية لا تستحق التسجيل • هناك من لا يعنى بفعاله الحسنة الطيبة ، ولكنه يتعذب لما ارتكبه من صغاير • هذا هو الضرب الاغلب الذي يكتب عن نفسه • انه يستبعد خصاله الحميدة ، فيظهر وكأن ليس فيه سوى الخور واللااخلاقية والرذيلة •

٥

انني اكتب هذا الكتاب لازيح عن ضميري افكارا معينة ظلت تحوّم حوله زمانا طويلا سلبت فيه راحتي ، فلست اطلب بهذا اقناع احد ، وما انا بواعظ ، ولا رغبة عندي في ان اكشف للآخرين ما اعرف ، وليس يهمني كثيرا توافق الناس معي • وبديهي انني اراني على صواب ، والا ما كان هذا رأيي ، والآخرون على خطأ ، وان كنت لا ارى في كونهم كذلك اساءة لي ، بل لا اراني استاء ان ظهر لي ان حكمي يختلف عن حكم الاغلبية • ان لي غريزة اثق بها •

ان علي ان اكتب كما لو كنت شخصا ذا مكانة مرموقة ، وانني لكذلك حقا ــ في نظري ــ فانا اهم شخص في العالم ، ولو انني لا انسى الاخطر لي مطلقا ، حتى بصرف النظر عن مفهوم (المطلق)• لم يكن الكون ليختلف لو انني لم اخلق اصلا ، ولئن بدا انني اكتب وكأن لا شك في اهمية بعض من تتاجي ، فان ذلك لا يعدو ان يكون كذلك بالنسبة لي في اية مناقشة يتاح لي فيها ان اشير الى هذا النتاج • قليل من الكتاب الجديين (ولست اقصد الذين يكتبون في مواضيع جادة فحسب) من لا يبالي بمصير انتاجه بعد موته • ان من الممتع ان يبقى المرء مقروءا لبضعة اجيال ، وان يجد له مكانا ، مهما يكن ضيقا ، في تاريخ ادب بلاده • ولست اعني ان يكون المرء خالدا ، فالخلود الادبي لن يدوم ، على اي حال ، سوى بضع مئات من السنين ، ومن ثم لا يكون سوى خلود في قاعات الدرس ، غير اني انظر الى هذه الامكانية المتواضعة بعين الشك • فلقد اردكت في حياتي كتّابا كان لهم في عالم الادب اكثر مما كان لي، ومع ذلك طواهم عالم النسيان • فجورج ميريديث وتوماس هاردي كانا في عداد الخالدين يوم كنت شابا يافعا بعد • اما اليوم فانهما لا يعنيان شيئا كثيرا

Twitter: @ketab_n

بالنسبة للشبان ، ولو انهما قد لا يعدمان من حين الى آخر ناقدا يكتب عنهما عندما يعوزه موضوع آخر ، فيستحث بعض القراء هنا وهناك على طلب بعض كتبهما من المكتبات ، ولكني لا اشك في ان ايا منهما لم يكتب ما يضارع (رحلات كاليفر) او (ترسترام شاندي) او (توم جونس) من حيث انها ما زالت تقرأ حتى اليوم .

في الصفحات التالية سيبدو لكم انني اتحدث بلهجة الواثق ، ذلك انني سأضجر القارىء ان بدأت كل جملة بعبارة (في اعتقادي) او (كما ارى) . غير ان كل ما سأقوله ليس سوى تعبير عن رأيي الخاص ، وللقارىء ان يرى ما اراه او ان يخالفه ، ولئن كان له من الاصطبار ما يعينه على متابعة القراءة ، فانه سوف يلاحظ ان الامر الوحيد المؤكد عندي هو ان ما يمكن التوثق منه قليل واقل من القليل .

٦

لقد بدأت الكتابة أول ما بدأت كأمر طبيعي مألوف عندي لا انفكاك لي عنه ، كالوزة التي لاانفكاك لها عن الماء ، ومع ذلك فحتى الآن لم اتغلب تماما على اندهاشي من كوني صرت كاتبا ، فلست أرى سببا دعاني الى ان أكونه ، سوى ميل قهار لا يقاوم ، كما لا أجد سببا أثار هذا الميل في نفسي ، فمنذ أكثر من مئة عام وعائلتي تحترف المحاماه . ولقد جاء في (الموسوعة الوطنية للتراجم) ان جدي كان ثاني اثنين أسسا الجمعية القانونية المتحدة ، وفي مصور المتحف البريطاني توجد قائمة مطولة بمؤلفاته في القانون ، والكتاب الوحيد الذي ألفه في غير هذا الباب كان مجموعة من المقالات كان ينشرها في المجلات ، ثم نشرها في كتاب غفل من اسمه . وقد حدث ان وقع الكتاب في يدي مرة ، بشكله الجميل وتجليده المتقن بجلد العجول ، ولكني لم أقرأه حينذاك ومن ثم لم استطع الحصول على نسخة منه بعدئذ ، ولكم أسفت على ذلك ، فلعلني كنت سأتعرف على الكاتب من خلاله . عاش جدي سنوات عديدة في (جانسري لين) لانه كان أمين سر الجمعية التي أسسها ، وعند تقاعده وانتقاله الى (كينسفتن كور) المطل على (البارك) ، أهدي له طقم للشاي والقهوة وحاملة أطباق ، من

Twitter: @ketab_n

فضة ، دقيقة الصنع مزخرفة ، حتى أنها كانت مدعاة لتضايق سلفه • وقد أخبرني محام كنت أعرفه منذ طفولتي أنه دعي مرة لتناول الطعام على مائدة جدي ، حيث أخذ بنفسه يقطع شرائح اللحم ، ثم ناوله خـادم طبقا من البطاطا المشوية دون تقشير • ان هناك ألوانا من الطعام ألذ من البطاطا غير المقشرة مع كثير من الزبد والفلفل والملح ، ولكن يظهر ان جدي لم يكن يرى ذلك• وقام جدي من مكانه وراح يقذف كل لوحة معلقة على الجدران بتلك البطاطا ، ثم عاد الى مكانه وراح يتناول طعامه دون ان ينبس ببنت شفة • فسألت صاحبي عن أثر هذا السلوك في الحاضرين ، فقال ان أحدا لم يلق بالا الى ما حدث • وقال لي أيضا ان جدي كان أقبح قزم رآه في حياته • وقد زرت مرة مقر الجمعية في (جانسري لين) حيث توجد له صورة لارى بنفسي مدى صحة الوصف ، ان كان ما قاله صاحبي ذاك صحيحا • فلا ريب ان الرسام كان من أكبر المتزلفين لجدي ، فقد وهبه عينين دكناوين تحت حاجبين سوداوين فيهما غمزة ساخرة ، وفكا يدل على الصلابة ، وأنفا مستقيما ، وشفتين حمراوين بدا عليهما الاستياء ، وشعره الاسود منفوش كشعر الآنسة (انيتا لوس) ، وفي يده ريشة الكتابة ، والى جانبه صفت مجموعة كتب من مؤلفاته ولا ريب • وعلى الرغم من ردائه الاسود فلم يبد لي بالهيئة الوقور التي كنت أتصورها ، بل بدا شريرا بعض الشيء • وقبل سنوات عديدة ، عندما كنت أتلف بعض الاوراق مما كان يخص أحد أبنائه ، المرحوم عمي ، عثرت على يوميات جدي ، ويرجع تاريخها الى مطلع القرن التاسع عشر ، يوم كان في ريعان شبابه ، يقوم بجولة في فرنسا والمانيا وسويسراء واني لاتذكر الآن وصفه لشلال الراين الصغير في (شافتهاوزن)، فقد حمد الله وأثنى عليه لأنه بخلقه هذا الشلال (المذهل) قد منح «مخلوقاته التسعة فرصة يدركون فيهـا ضآلتهم تجاه عظمته الجبارة المتجلية فيمـا يبـدع » •

٧

توفي والدي وأنا بعد حدث صغير ، فقد ماتت أمي وأنا في الثامنة ، ولحقها أبي بعد سنتين ، فلم يعلق بذهني شيء عنهما سوى السماع• ولست أدري ما الذي حدا بأبي ــ الا ان يكون نفس الدافع الذي حدا بابنه لمعرفة

Twitter: @ketab_n

المجهـول ـ فحمله على الرحيـل الى باريس مستشارا قانونيا للسفارة البريطانية هناك • كان مكتبه يواجه السفارة في (فوبورغ سان انوريه) ولكنه كان يسكن فيما كان يدعى حينذاك باسم شارع (دانتان) ، ذلك الشارع العريض الذي تزينه أشجار الكستناء على الجانبين ، والمتفرع عن (رون بوان) • كان رحالة عظيما بالنسبة لعصره ، فقد زار تركيا واليونان وآسيا الصغرى ومراكش وحتى مدينة فاس التي لم يكن قد زارها الا قلة. كان يملك مكتبة عامرة بكتب الاسفار • وكانت شقته في شارع دانتان مزدانة بالتماثيل الطناجرية والمصنوعات الروديسية والخناجر التركية ذوات المقابض المزخرفة بالفضة •

كان في الاربعين يوم تزوج أمي وهي تصغره بأكثر من عشرين سنة • كانت جميلة جدا وكان قبيحا جدا • قيل لي انهما كانا معروفين في باريس ذاك العصر باسم (الجمال والوحش) • كان أبوها عسكريا مات في الهند ، فرجعت ارملته ، جدتي ، الى فرنسا بعد ان بددت ثروة طائلة ، وعاشت هناك على مرتب زوجها التقاعدي • أظنها كانت ذات شخصية وموهبة ، فقد ألفت بالفرنسية عددا من القصص المطولة للاطفال ، وبعض القطـع الموسيقية الغنائية التي كانت تعزف عادة في قاعات الاستقبال • ويطيب لي ان اتخيل ان ممثلات فرقة (اوكتاف فويله) الكريمات المحتد كن يسردن قصصها ويتغنين بأغانيها • عندي لها صورة فوتوغرافية صغيرة تظهرها امرأة نصفا في رداء فضفاض ، ذات عينين جميلتين فيهما عزم وطيبة • اما امي فقد كانت ضئيلة الحجم ، ذات عينين دكناوين وشعر ذهبي ضارب الى الحمرة ، وملامح فاتنة وبشرة رائعة • كان الجميع معجبين بها ، وكانت (الليدي انكليسي) من أقرب المقربين اليها ، وكانت هـذه امريكية ماتت حديثا عن عمر مديد • لقد اخبرتني انها قالت لامي مرة « انك جميلة جدا وان عددا من الرجال متيمون بك حبا ، فما الذي يبقيك وفية لهذا القـزم القبيح الذي اتخذتيه زوجا ؟ » فردت عليها أمي قائلة « أنه لا يجـرح شعـوري مطلقا » •

الرسالة الوحيدة التي عثرت عليها لها كانت ضمن أوراق عمي التي كنت انقب فيها بعد وفاته• واذ كان عمي من رجال الدين، فقد طلبت منه في رسالتها ان يكون الاب الروحي لاحد أبنائها ، وتعرب له بعبارات بسيطة

Twitter: @ketab_n

متدينة عن أملها في ان قبوله للرابطة المقدسة التي تدعوه لها سيكون له في مولودها الجديد ذلك الاثر الذي سيجعله يترعرع رجلا صالحا يخشى الله. كانت شديدة الولع بقراءة القصص . وهناك في غرفة البليارد في الشقة بشارع داتتان كانت خزانتان كبيرتان صفت فيهما مؤلفات (توخنيتز) . كانت تعاني من مرض السل ، واني لأتذكر صف الاتن الذي كان يقف ببابنا ليمدنا بالحليب الذي كان معروفا يومذاك بأنه علاج لهذا المرض . وفي الصيف كنا نتخذ سكنا في (دوفيل) التي لم تكن يومها عصرية ، بل كانت قرية صغيرة لصيد السمك ، تفضلها قرية (تروفيل) . وفي أخريات أيامها كنا نقضي الشتاء في (بو) . كانت يوما مضطجعة في سريرها بعد نوبة نزيف ، ترى انها لم يبق لها من العمر كثيرا ، فخطر لها ان أبناءها لن يتذكروها عندما يكبرون بعد موتها ، فنادت على وصيفتها فألبستها ثوبا للسهرة من الحرير الابيض ، وذهبت الى المصور . كان لها ستة أبناء ، وماتت في النفاس . كان أطباء ذلك العصر يعتقدون ان الحمل والوضع يفيدان المصابات بالسل . ماتت في الثامنة والثلاثين .

وبعد موتها أصبحت وصيفتها مربيتي . اما قبل ذلك فكل مرباياتي كن فرنسيات ، كما انهم أرسلوني الى مدرسة للاطفال فرنسية ، فلم يكن غريبا ان تكون معرفتي باللغة الانجليزية ضعيفة . قيل لي انني كنت مرة أقف عند شباك عربة قطار فرأيت حصانا ، فصرخت في أمي بمزيج من الفرنسية والانجليزية قائلا :

« Regardez, Mamma, voilà un orse »

أغلب الظن ان ابي كان رومانسيا ، فقد عنّ له ان يبني بيتا نسكنه في الصيف ، فاشترى قطعة أرض على قمة تل في (سر سنس) ، حيث كان المنظر رائعا في السهل الممتد تحته ، وعلى البعد كانت باريس . وكان هناك طريق ينحدر نحو النهر حيث قرية صغيرة . كان يريد البيت ان يشبه (فيللا) على البسفور ، تحيط بالطابق الاعلى منه الاشجار الباسقة . وقد اعتدت ان أصحبه كل يوم أحد في قارب ينساب في نهر السين لنتفقد اعمال البناء الجارية . وعند الانتهاء من السقف ، بدأ ابي بتأثيث البيت بشراء زوج من الاطر الحديد للسوقد ، وطلب مقدارا كبيرا من الزجاج نقش عليه رسما

Twitter: @ketab_n

يطرد الشر كان قد شاهده في مراكش • صبغ البيت بالابيض والشبابيك بالاحمر ، ونظمت الحديقة ، وأثثت الغرف ، ومن ثم مات أبي •

٨

تركت المدرسة الفرنسية ، وبـدأت اختلف يوميا الى شقـة القس الانجليزي في الكنيسة الملحقة بالسفارة لتلقي الدروس على يديه • كانت طريقته في تعليمي الانجليزية هي ان يجعلني اقرأ اخبار المحاكم في صحيفة (ستناندرد) بصوت مرتفع • وما زلت اتذكر الرعب الذي ركبني وانا اقرأ خبر حادث القتل الذي وقع في القطار بين باريس وكاليه • لم اكن قـد تجاوزت التاسعة يومذاك • بقيت زمنا طويلا غير واثق من تلفظ الكلمات الانجليزية • ولا انسى خجلي لسماع ضحك زملائي في المدرسة التحضيرية عندما قرأت يـوما كلمة معينة كما لو كانت تتفق نطقا مـع كلمة اخرى مختلفـة •

لم اتلق في حياتي غير درسين اثنين في الواقع • فعلى الرغم من اني كنت اكتب مقالات في المدرسة ، فلست اتذكر ان احدا ارشدني الى كيفية تركيب الجمل الانجليزية • والدرسان المذكوران جاءا متأخرين في حياتي حتى انني اخشى الا استفيد منهما ، فالدرس الاول كان قبل سنوات قليلة• كنت يومها ازور لندن لبضعة اسابيع ، فاستخدمت فتاة كسكرتيرة • كانت خجولة ، على شيء من الجمال ، غارقة في علاقة غرام مع رجل متزوج • واذ وصلتني المسودات المطبوعة على الآلة الكاتبة من كتابي (خبز وخمر) ، فقد طلبت منها ان تصطحب النسخة معها لتصحيحها اثناء عطلة الاسبوع • كنت اريدها ان تضع قائمة بالاغلاط الهجائية التي ربما كان قـد ارتكبها كاتب الطابعة ، وكذلك الاخطاء التي تحدث بسبب رداءة الخط في الاصل• الا انها كانت فتاة سليمة النية ، فأدركتني على الظاهر من كلامي • وعندما اعادت المسودات اردفتها باربع صفحات من التصحيحات • ولا بـد ان اعترف بأني شعرت بشيء من الغيظ ، ثم بدا لي ان من السخف ألا استفيد ان امكن من الجهد الذي بذلته ، فجلست ادرسها • اظن ان الفتاة قـد تلقت دروسها في كليـة للسكرتاريـة ، فراحت تقرأ كتابي بنفس الروح

Twitter: @ketab_n

الملتزمة التي كان اساتذتها يقرأون بها واجباتها المدرسية ، فالملاحظات التي ملأت بها تلك الصفحات الاربع كانت جائرة وقاسية ، فلا شك ان استاذها في اللغة الانجليزية لم يكن يتساهل قط ولم يكن يعترف بطريق وسط او باحتمال وجود رأيين حول قضية واحدة ، وعليه فان تلميذته النجيبة لم تكن تطيق رؤية حرف جر في نهاية جملة ، ولكل تعبير عامي وضعت علامة تعجب استهجانا ، ولم ترض لك ان تستعمل الكلمة مرتين في الصفحة الواحدة ، وهي على استعداد تام لاعطائك كلمة مرادفة في المعنى لتحل محلها • واذا كانت قد اعجبتني فخامة جملة ذات عشرة اسطر ، كتبت عنها تقول : « اوضح ، والافضل ان تقطعها الى جملتين او اكثر » • او اذا شئت ان استمتع بالوقفة القصيرة باستعمال شبه فاصلة ، كتبت تقول : « ضع نقطة » • او اذا تجرأت على وضع نقطتي شرح (:) كان تعليقها الجارح « بطل استعمالها » • غير ان افظع نقداتها كان تعليقها على ما كنت احسبه نكتة جيدة ، حيث قالت : « أأنت واثق مما عندك من حقائق ؟ » • وبالاجمال ادركت مما لاحظت ان أستاذها في الكلية لم يكن ليمنحني درجات عالية •

اما الدرس الثاني فقد تلقيته على يد استاذ مهذب ذكي كان يقيم معي عندما كنت اقوم بتصحيح مسودات كتاب آخر ، فقد تفضل بطلب قراءته ، فترددت ، لاني ادركت انه سيصدر حكمه عن معيار الاجادة ، الامر الذي يصعب بلوغه • وعلى الرغم من علمي بغزارة معلوماته عن الادب الاليزابثي ، فان اعجابه البالغ بـ (استر ووترز E. Waters) جعلني اشك في حسن ادراكه لمميزات تتاجنا المعاصر • ان من يعرف عن كثب القصة الفرنسية في القرن التاسع عشر لا يمكن ان يقيم كبير وزن لها ، الا اني كنت اود ان يخرج كتابي على خير وجه ممكن ، فرأيت ان من المحتمل ان يفيدني نقده • وكان في الواقع متساهلا فيه ، وقد اعجبني ، لانه كشف عن اسلوبه في معالجة ما يكتبه طلابه • واعتقد ان استاذنا كان ذا موهبة طبيعية في اللغة ما فتىء ينميها • كان ذا ذوق رفيع ، وان ادهشني اصراره على الايمان بقوة الكلمة المفردة • كان يفضل الكلمة القوية على ذات الجرس ، فمثلا ، كنت قد كتبت ان تمثالا سيقام في ساحة معينة ، فاقترح هو ان أقول ان التمثال سوف ينتصب ، ولكني لم أمتثل له ، لنفور أذني

Twitter: @ketab_n

من سماع السين والصاد متعاقبين • وقد لاحظت كذلك أنه لا يريد من الكلمة أن تكون لبنة في توازن بناء الجملة فحسب ، بل وفي بناء الفكرة أيضا• وهذا حق ، لان الفكرة قد تفقد تأثيرها ان هي عرضت بغتة ، الا ان الامر الى رهافة الحس اقرب ، اذ ان ذلك قد يجرنا الى الحشو اللفظي ، وهذا اوضح في الحوار المسرحي ، فالممثل قد يعترض المؤلف قائلا : «أليس بامكانك ان تضيف كلمة او كلمتين في هذه الجملة ؟ ان موقفي ليبدو مبتورا لو انني توقفت هنا دون زيادة » • ولكم تمنيت في نفسي وأنا أستمع الى ملاحظات الاستاذ لوان ارشاداته المعقولة والعميقة تلك قد اتيحت لي وانا بعد في مرحلة الشباب ، اذن لكان ما كتبت خيرا مما كتبت •

٩

لذا فقد كان علي ان اتعلم بنفسي • رجعت الى القصص التي كتبتها ايام شبابي الاولى لاكتشف ما كان فيّ من مواهب طبيعية ، رأس مالي ، قبل ان افكر في كيفية تطويرها • فوجدت ان في اسلوبي مسحة من الغطرسة والتكبر قد اكون معذورا عليهما لسني • وفيه ايضا شيء من النزق والحدة وهما نقص في طبعي ، ولكني اتحدث الآن عن طريقة اعرابي عن نفسي ، وانه ليبدو لي انني كنت امتاز بوضوح طبيعي وبراعة في كتابة الحوار السهل •

عندما قرأ (هنري ارثر جونس Henry Arthur Jones) وهو يومئذ من مشاهير كتّاب المسرحيات ــ روايتي الاولى ، أسرّ الى صديق بأنني سأكون من أنجح كتّاب المسرح في الوقت المناسب • أظن أنه لاحظ فيها الاتجاه المباشر والطريقة المؤثرة في عرض منظر تكشف عن روح مسرحي • أما لغتي فعادية ومفرداتي محدودة مع ضعف في قواعد النحو وابتذال في الجمل ، الا اني كنت ارى ان الكتابة عندي غريزة طبيعية كالتنفس ، لذلك لم اتلبث للنظر فيما اذا كان ما اكتب حسنا ام رديئا ، ولم اتنبه الا بعد سنوات عديدة الى ان الكتابة فن دقيق لا يأتي مطواعا الا بعناء ومشقة • تكشفت لي هذه الحقيقة عندما بدأت الاقي صعوبة في نقل أفكاري الى الورق • كنت اكتب الحوار بيسر وبسهولة ، ولكن كنت

Twitter: @ketab_n

أجدني في ورطة وحيرة عند محاولتي كتابة صفحة وصفية ، فأقضي الساعة والساعتين أعالج جملتين أو ثلاثا دون أن تسلس لي قيادها فأستطيع تقويمها ، فعزمت على ان اعلم نفسي الكتابة ، ولم يكن هناك لسوء الحظ من استرشد به ، فكثرت اخطائي، ولو ان موجّها ، كالاستاذ الظريف الذي ذكرته من قبل ، اخذ بيدي لوفرت على نفسي جهدا ووقتا عظيمين ، فمرشد كهذا كان لا بد سيرشدني الى مواطن كفاياتي واتجاهاتها وسبل تنميتها ؛ فمن العبث ان اجرب عملا ليست له عندي القابلية المطلوبة • غير ان الذوق الادبي كان يتجه يومئذ باعجابه الى النثر المزخرف الموشى ، والى العبارات المنمقة والجمل المرصعة بالبديع والنعوت الغريبة، فالمثل الاعلى للادب كان كالقطعة الموشاة بالذهب تقف منتصبة بنفسها ، والشاب الذكي كان يقرأ (والتر بيتر W. Peter) بحماس ، بينما كنت اراه مصابا بفقر الدم • كنت اشعر ان وراء موجات الصنعة الفخمة هذه شخصيات هدهم الضعف والضنى • كنت شابا فتيا مفعما بالحيوية • كنت اريد هواء نقيا وحركة وعنفا • كان يصعب علي ان اتنفس في ذلك الجو الميت ذي العطر الثقيل ، وان اظل في تلك الغرف الصامتة ، حيث كان التحدث بغير الهمس يتنافى واللياقة • ولكني لم استمع لصوت المنطق السليم ، واقنعت نفسي ان ذلك كان قمة الثقافة ، واعرضت كشحا عن العالم الخارجي حيث الناس يصرخون ويتشاجرون ويتبالهون ويفسقون ويثملون • لقد قرأت (نوايا) و (صورة دوريان جرى) ، ولقد اثملني ما قرأته من ضروب التعابير الغريبة النادرة التي تزين صفحات (سالومي) • اذهلني فقري في المفردات ، فذهبت الى المتحف البريطاني ومعي قلم وورق وسجلت اسماء الاحجار الكريمة النادرة ، واسماء الوان الاصباغ البيزنطية القديمة ، والاحاسيس الناجمة عن لمس انواع الاقمشة ، واصطنعت جملا حشرتها فيها جميعا • ولكن من حسن حظي انني لم تسنح لي فرصة استعمالها ابدا ، وهي ما زالت طي اوراقي القديمة ترحب بكل من يعن له ان يكتب هراءا • كان الشائع يومئذ ان الترجمة الرسمية للانجيل هي اعظم نثر ادبي وضع في اللغة الانجليزية • فقرأته بعناية بالغة ، وعلى الاخص (نشيد الانشاد) مدونا تلك الجمل التي جلبت انتباهي ، ومسجلا قوائم بالكلمات الغريبة او الجميلة • درست (الموت المقدس) بقلم (جرمي تايلر Jeremy Tailor) ورحت استنسخ مقاطع منه ثم اكتبها من الذاكرة ، لاباريه في اسلوبه •

Twitter: @ketab_n

وكانت الثمرة الاولى لذاك الجهد المضني كتيبا عن الاندلس بعنوان (ارض العذراء المباركة) • سنحت لي الفرصة قبل ايام ان اقرأ فقرات منه • انني اعرف الاندلس اليوم افضل بكثير مما كنت اعرفها يومذاك ، كما اني قد غيرت كثيرا من آرائي التي كتبتها عنها • ولما كان هذا الكتيب على شيء من الرواج في امريكا ، فقد رأيت انه يستحق اعادة النظر فيه • ولكني سرعان ما ادركت استحالة ذلك ، فهذا المؤلف شخص مختلف لم اعد اتذكره مطلقا ، واضجرتني قراءته ايما ضجر • الا ان ما اهمني فيه هو النثر الذي كنت اتمرس على كتابته ، وهو نثر شيق ، رمزي ، متكلف ، يفتقر الى الموضوع والعفوية ، فانت تشـم منه رائحـة نباتات الاحواض الزجاجية المدفأة ، او رائحة مائدة يوم الاحد والهواء في الغرف الزجاجية المؤدية الى قاعة للطعام فسيحة في بيت كبير في (بيسووتر) • ان فيه الكثير من النعوت المنسجمة ، ومفرداته مفعمة بالعاطفة • انه لا يذكرك بالمطرزات الايطالية الموشـاة بالنقوش المذهبة ، وانما يذكرك بستارة من تصميم (بورن جـونس Burne-Jones) وانتاج (موريس Morris)

١٠

لست ادري أهو شعور داخلي قد اهاب بي بأن هذا اللون من الادب لا يأتلف وميولي أم هو طبيعة في تكويني العقلي ، الامر الذي حملني في حينه عـلى الالتفات الى كتاب العصر الاوغسطيني • لقـد سحرني نثر (سويفت Swift) ، وقر رأيي عـلى ان اسلوبه هـو الاسلوب الامثل للكتابة ، ورحت ادرسه دراسة مثلما فعلت مع (جرمي تايلر) من قبل ، فاخترت (حكاية المركن) • لقد قيل ان العميد (سويفت) عندما اعـاد قراءتها في اخريات ايامه قال : « ما اعظمني من عبقري ! » ولكني ارى ان عبقريته كانت اوضح في بعض من كتبه الاخرى ، فهي رمزية مملة وفيها سخرية سطحية ، الا ان اسلوبها معجب ، ولست اتصور الانجليزية كتبت بأبدع من ذلك ، فلا فقرات مزهرة ، ولا لفتات خيالية ، ولا صور بعيدة عن الواقع • انه نثر متحضر طبيعي متزن صريح ، فلا تجد محاولة لانتزاع الاعجاب بكلمات منتقاة ، بل الظاهر ان سويفت قد تناول اول كلمة خطرت له ، وكانت دائما الكلمة المناسبة للمكان المناسب ، وذلك لما كان يتمتع به

Twitter: @ketab_n

من ذهنية منطقية ذكية • ان قوة جمله وتوازنها يرجعان الى ذوقه الرفيع • فأخذت استنسخ فقرات منه ، كما فعلت من قبل ، ثم اعيد كتابتها من الذاكرة ، وعمدت الى ابدال بعض الكلمات أو تغيير ترتيبها في الجملة ، فلاحظت ان انسب الكلمات هي التي استعملها سويفت وان افضل ترتيب لها هو الذي رتبه • انه النثر المنزه •

الا ان للكمال قصورا كبيرا ، ذلك انه خليق بأن يصبح مملا • فأسلوب سويفت قريب الشبه بالقنوات الفرنسية التي تجري في ارض متموجة فاتنة تحدها على الجانبين اشجار الحور • ان سحرها الصامت يملؤك رضا ، ولكنه لا يثير فيك عاطفة ولا يحرك خيالا ، فانت تسير ازاء القناة وتظل تسير ، وعلى حين غرة تجدك وقد انتابك السأم • فعلى رغم كونك من المعجبين بسويفت لديباجته المشرقة ورصانته وطبيعيته وعدم تكلفه ، فانك بعد حين تراك وقد سرح بك الخاطر ، ما لم يكن لك اهتمام خاص بما تقرأ • ولو اتيح لي ان استعيد ايامي الاولى كرة اخرى لوهبت لدراسة ادب (درايدن Dryden) مثلما وهبت لسويفت من وقت ، اذ اني لم انتبه له الا بعد ان فقدت رغبتي في دراسات مضنية كهذه • ان قلم درايدن لذيذ • ومع انه يفتقر الى كمال سويفت والى تأنق (اديسون Addison) الجزل ، الا ان فيه لسحرا من خطرات الربيع ، ومن انسياب الحديث السهل ، ومن البداهة المرحة • كان درايدن شاعرا مجيدا ، الا ان الرأي السائد هو ان شعره كان يفتقر الى الموسيقى ، والغريب ان الموسيقى في نثره الرقيق اللامع كان السمة البارزة فيه ، فالاسلوب الذي كتب به درايدن لم يسبقه اليه احد في انجلترا ، وقلما جاراه من جاء بعده ايضا • لقد تألق نجم درايدن في لحظة سعيدة ، فان تشبعه بأدب اليعاقبة العميق وبتعابيرهم المزخرفة الضخمة ، وتأثره بما في الادب الفرنسي من لباقة التعبير الحي المهذب ، كل ذلك اتاح له ان يحيل ادبه الى وسيلة ليس لمعالجة المواضيع الجادة فحسب ، وانما للتعبير عن الافكار الهينة العابرة أيضا • كان على رأس أدباء (الروكوكي Rococo) • ولئن كان سويفت يذكرك بفناة فرنسية ، فان درايدن يشبه نهرا انجليزيا يتلوى مرحا حول التلال وخلال المدن المنشغلة بهدوء وفي القرى الناعسة ، يتلكأ مرة في ارض منبسطة كريمة ، ويندفع اخرى دفاقا فيما بين الغابات الباسقة ، فهو نابض بالحياة ، متنوع ، كاسح ، يعبق بشذى الريف الانجليزي •

Twitter: @ketab_n

لا شك في ان العناء الذي بذلته قد افادني ، فقد بدأت اكتب خيرا من ذي قبل ، ولو اني لم ابلغ حد الجودة ، اذ كنت ما ازال جافا قليل الجرأة . عمدت الى صياغة عباراتي بأسلوب معين ، دون ان ادرك ان الاسلوب كان موجودا بالفعل . كنت اعنى بالكلمات اين اضعها ، ولم يخطر لي ان ترتيب الكلمات في نظام معين ، مما كان مألوفا في القرن الثامن عشر ، عاد امرا نشازا في اوائل هذا القرن . وبمحاولتي تقليد سويفت في اسلوبه استحال علي ان ابلغ اثر النفاذ المباشر الذي طالما اعجبني فيه . كتبت عددا من المسرحيات ولم اشغل نفسي بغير الحوار ، ولم اعد ثانية الى كتابة القصة الا بعد خمس سنوات . وفي هذا الوقت اقلعت عن طموحي في ان اكون اسلوبيا ، ونبذت التفكير في الكتابة الموشاة واتجهت الى الكتابة الخالية من المحسنات اللفظية والصنعة . كان عندي الكثير مما اريد ان اقوله ، بحيث لم يكن لي ان ابعثر كلماتي سدى . كان كل همي ان ادون الحقائق ، فوضعت نصب عيني الا استعمل النعوت ، وهو هدف مستحيل . لقد اعتقدت انك ان عثرت على التعبير الدقيق امكنك الاستغناء عن النعت . وتصورت بعين الخيال ان كتابي سيكون اشبه ببرقية مطولة جدا ، اطرحت من باب الاقتصاد كل كلمة لم أجد وجودها لازما لتوضيح المقصود . ولكني لم اعد قراءته بعد انهائي تصحيح المسودات ، لذلك لا اعلم مدى قربي من ذلك الهدف ، غير ان انطباعي عنه هو انه طبيعي اكثر مما سبق ان كتبت ، ولو انني واثق من انه متهافت وفيه الكثير من الاغلاط النحوية .

ومنذ ذلك احين الفت عددا آخر من الكتب . ومع اني توقفت عن دراستي المنهجية لكبار الادباء القدامى ، اذ كانت (العين بصيرة واليد قصيرة) ، فقد واظبت بجهد متواصل على تحسين كتابتي . لقد عرفت قابليتي وحدودها ، وبدا لي ان من المعقول ان يكون هدفي هو الاجادة ضمن تلك الحدود . كنت ادرك افتقاري الى الحماس العاطفي ، وضحالة مفرداتي اللغوية بالرغم من جهودي لاغنائها . كان حظي من المجاز والتشبيه ضئيلا ، والمحسنات البديعية الاخرى لم تكن تحضرني الا نادرا . كانت اللمحات الشاعرية والاخيلة التصويرية فوق طاقتي . كنت اعجب بكل ذلك ايما اعجاب في نتاج غيري ، باستعاراتهم البعيدة الغور ، وبتعابيرهم الايحائية التي يسبغونها على افكارهم ، الا ان مخيلتي لم

Twitter: @ketab_n

تسعفني ابدا بمثل هذا اللون من الكلام المموه ، حتى تعبت من محاولة الاتيان بما لم يأتني بيسر • ولكني من جهة اخرى كنت على درجة كبيرة من دقة الملاحظة بحيث كنت أرى اشياء كثيرا ما خفيت على غيري • وكنت قادرا على التعبير عما ارى بجلاء • كان لي تفكير منطقي ، ولئن كان شعوري بغرابة الكلمة وغناها ضعيفا ، فقد كنت قوي الاحساس بجرسها • كنت ادرك انني لن ابلغ الكمال الذي اريد فيما اكتب ، الا انني كنت اراني قادرا على اجادة الكتابة ببذل الجهد حسبما تتيحه لي نقائصي الخَلقية • وباعمال الفكر تبين لي ان علي ان اسعى لبلوغ الوضوح والبساطة والجرس ، وهي معايير رتبتها بحسب ما رأيت فيها من اهمية •

١١

لم اكن اطيق كتّابا يطلبون من القارىء ان يدرك بنفسه مايرومون هم اليه • ما عليك الا ان تقرأ لاعظم الفلاسفة لترى ان من الممكن التعبير عن اعقد الافكار باوضح لغة• قد يصعب عليك ان تتفهم افكار (هيوم Hume) ولئن لم تكن مطلعا على مبادىء الفلسفة فستفوتك مدلولاتها • الا ان احدا ، مهما تكن ثقافته ، لن يغرب عنه معنى كل جملة • قليلون اولئك الذين كتبوا ادبا انجليزيا اسمى مما كتب (بركلي Berkeley) • هناك ضربان من الغموض تجدهما عند الكتّاب • احدهما يعزى الى الاهمال ، والآخر مقصود • فهناك من يكتنف الغموض كتاباته لانه لم يتعلم كيف يكتب بوضوح ، ويكثر هذا الضرب عند الفلاسفة المحدثين ورجال العلم ، وحتى عند نقاد الادب ، وهو امر غريب حقا ، فانت ترى ان من يكرس حياته لدراسة عمالقة الادب لا بد ان يكون له من رهافة الحس بجمال اللغة ما يجعل كتاباته واضحة سهلة في الاقل ، ان لم يستطع اضفاء الجمال عليها، ولكنك تجد فيما يكتبون الجملة بعد الجملة عليك ان تكرر قراءتها لتفهم مغزاها حينا ، او تخمن المعنى تخمينا احايين اخرى ، لان من الواضح ان كتّابها لم يفصحوا عما كانوا يريدون •

وسبب آخر للغموض هو ان الكاتب نفسه غير متوثق من معانيه ، فشعوره بما يريد الافصاح عنه ضعيف ، لا يستطيع معه ان يكوّن في ذهنه

Twitter: @ketab_n

تعبيرا دقيقا عنه ، اما لضعف تفكيره او لكسله ، فمن الطبيعي الا يجد التعبير الصادق لفكرة مشوشة • وهذا يرجع ، اكثر ما يرجع ، في كثير من الكتاب الى انهم لا يفكرون قبل الكتابة ، وانما هم يفعلون ذلك اثناءها ، كأن القلم يخلق الفكرة • وفي هذا خطر كبير ينبغي ان يحذره كل مؤلف ، ذلك ان للكلمة المدونة سحرها ، والفكرة تتخلق باتخاذها شكلا مرئيا ، ومن ثم تقف حائلا دون توضيحها • وما اسهل ما يتقمص هذا الضرب من الغموض لبوس التقصد العنيد • وبعض الكتاب الذين لا يفكرون بوضوح يحسبون ان لافكارهم دلالات اعمق مما يبدو لاول وهلة • وانه لنفاق ان يظن انها حقا اعمق من ان تكتب بجلاء يفهمه الجميع • وبديهي الا يخطر لكتاب من هذا اللون ان اللوم واقع على عقولهم التي تعوزها الدقة في التفكير • وهنا ايضا يتجلى سحر الكلمة المكتوبة ، وانه لمن السهولة بمكان أن يقنع المرء بأن الجملة التي لا يفهمها كل الفهم يمكن ان تعني اكثر بكثير مما يدركه • ومن هنا تكون المسافة قصيرة لوصول المرء الى حيث يجد نفسه وقد اعتاد على تدوين افكاره بكل ما فيها من غموض اصيل ، ولا يعدم هؤلاء بعض الحمقى الذين يكتشفون فيها معاني خفية •

وهناك لون آخر من الغموض المقصود يتنكر في زي الارستقراطية المقصورة على الخاصة ، فيغلف المؤلف معانيه بالغموض لئلا يدركها العامي، فمعانيه العميقة جنينة سرية لا يدخلها الا المنتجبون من تغلب على العديد من الصعاب الخطرة • وهذا الضرب من الغموض ليس مجرد تظاهر فارغ فحسب ، وانما هو قصير النظر ايضا ، فللزمن مكره البارع ، فان كان المعنى متهافتا احاله الزمن الى الفاظ جوفاء لا يقبل احد على قراءتها ، وكان هذا مصير التصانيف المتعبة لاولئك الكتاب الفرنسيين الذين وقعوا تحت تأثير (غيلوم ابولونير Guillaume Apollinaire) • الا ان الزمن قد يلقي احيانا ضوءه النافذ القاسي على ما كان عميقا ، واذا بهذه الالتواءات اللغوية لم تكن سوى ادوات تنكر لآراء جد مبتذلة • واليوم لم يبق ما لا نفهمه من شعر (مالارمه Mallarmé) الا القليل ، ولم يعد من الصعب ان ندرك انه يفتقر الى الاصالة كل الافتقار بالرغم من بعض مقاطعه الجميلة ، الا ان مادة شعره كانت مثال التفاهة الشعرية في عصره •

Twitter: @ketab_n

١٢

ليست البساطة من الميزات الظاهرة كالجلاء ، ولقد سعيت اليها لاني كنت افتقر الى الوفر الخصب الذي اعجبت به في الآخرين الى حد ما ، ولو انه يصعب علي هضمه من حيث الكمية. فقد استسيغ من (رسكين Ruskin) صفحة واحدة اطالعها ، اما عشرون فقد لا اطيقها الا بعناء وملل ، على ان شيئا من الالهام يتوافر في العبارة الايقاعيـة والوصف البهي ، والكلمـة المفعمة بالشاعرية ، والجمل الاعتراضية التي تمنح البناء ثقلا وجلالا وعظمة كالتي تثيرها الموجة اثر الموجة في عرض البحر ، فالكلمات اذ تنتظم متتابعة يكون لها على الاذن وقـع الموسيقى ، فتكون اثارة عاطفية لا فكريـة ، ويسهل على جمال التنغيم هذا ان يؤدي بك الى ان ترى الا حاجة لك بان تعنى بالمعنى . بيد ان للكلمة حكم المستبد ، فهي تحيا بسعناها ، فان انت لم تقم وزنا لها فلا يمكنك ان تزن شيئا ابدا ويزوغ عقلك . ان اسلوبا كهذا يتطلب موضوعا يناسبه ، فلا يناسب الاسلوب الفخم ان يدور حول امر تافه . لم يبلغ احد من كتاب هذا الاسلوب ما بلغه (سير توماس براون Sir Thomas Browne) من النجاح ، وحتى هـذا لم ينجح دائما مـن الوقوع في هذه الهاوية ، ففي الفصل الاخير من كتابه المدعو (هايد ريوفيا) الذي يدور حول مصير الانسان تتناسب المادة مع اللغة الفخمة التي كتبت بهـا ، حيث يلقي الطبيب النروجي قطعة من النثر لـم يسبق لها مثيل في الادب ، ولكنه عندما يصف عثوره عـلى جراره بنفس الاسلوب الفخم يكون التأثير اقل بهجة (عندي في الاقل) . عندما يصطنع كاتب معاصر لغة فخمة ليقول ان مومسا قد قفزت الى الفراش مع شاب متبذل ، يحق لك ان تشعر باشمئزاز .

ولئن كانت الخصوبة تتطلب مواهب ليست في كل فرد ، فالبساطة ايضا لا تتأتى يسيرة بالطبع ، فهي تستوجب الالتزام الصارم . واحسب ان لغتنا هي الوحيدة التي ارتؤى فيها ان يوضع اسم لذلك النثر الموصوف بانه (الرقعة الارجوانية) ، ولم تكن هـذه التسمية ضروريـة لولا انها متميزة ، فالنثر الانجليزي اقرب الى التعقيد منه الى التبسيط ، ولو انه لم يكن كذلك دائما ، اذ لا نثر أصدق وأقوم وأغني بالحياة من نثر شكسبير ولكننا ينبغي الا ننسى انه كان حوارا كتب للكلام ، فلسنا ندري كيف

Twitter: @ketab_n

كان يمكن ان يكون أسلوبه لو انه كتب مقدمات لمسرحياته ، كما فعل (كورنيه Corneille) ، فلعلها كانت تشبه رسائل الملكة اليزابث من حيث التأنق اللفظي • غير ان النثر الاسبق ، كنثر (سير توماس مور Sir Thomas More) مثلا ، لم يكن سمجا ولا من النثر الخطابي الموشى، فقد كان منبثقا من التربة الانجليزية • في اعتقادي ان انجيل الملك جيمس قد أضر بالنثر الانجليزي ضررا بليغا ، ولو اني لست من الحمق بحيث انكر جماله الرائع • انه لجليل حقا ، غير ان الانجيل كتاب شرقي واخيلته الاجنبية لا تمت الينا بصلة ، فهذه المبالغات وهذه الاستعارات والمجازات المنمقة غريبة على نزعتنا • ولا يسعني الا ان ارى ان اكثر النكبات التي حلت بحياة بلادنا الروحية من جراء الانفصال عن كنيسة روما كان سببه ان هذا الانجيل بقي زمانا طويلا يقرأ كل يوم ، بل ان كثيرين لم يكونوا يقرأون غيره ، فهذه الترانيم والمفردات المتينة والفخامة اللفظية غدت جزءا لا يتجزأ من وعي الامة وادراكها ، فطغى الزخرف على الانجليزية البسيطة الصادقة ، وراح البلداء من الانجليز يلوون ألسنتهم في افواههم ليحاكوا انبياء العبرانيين في الكلام • لقد كان في مزاج اللغة الانجليزية ، ولا ريب ، شيء ما جعلها تتآلف • فلعله كان افتقارا الى الدقة في التفكير ، او ربما كان اعجابا ساذجا بالكلمة الجميلة لذاتها ، او قد يكون شذوذا فطريا وحبا بالتوشية والتطريز • ومهما يكن ، فقد راح النثر الانجليزي منذئذ يصارع الانجراف نحو الادب المترف • واذا ما رأينا روح اللغة تتيقظ حينا ، كما حدث عند درايدن وادباء عصر الملكةآن، فما كانت هذه الا ومضات سرعان ما خبت طي ادب الادعياء من امثال (جيبون Gibbon) و (الدكتور جونسن Dr. Johnson) • وعند استعادة النثر الانجليزي جزالته على يد (هازلت Hazlitt) و (شللي Shelley) و (تشارلس لامب Charles Lamb) في خير ما كتب ، عاد ففقدها ثانية عند (دي كوينسي De Quincey) و (كارلايل Carlyle) و (مريديث Meredith) و (والتر بيتر Walter Peter) من الواضح ان الاسلوب الفخم ألفت للنظر من بسيطه ، وكثيرون يرون ان الاسلوب غير الملفت للنظر ليس اسلوبا ، فيعجبهم والتر بيتر ، ولكنهم يقرأون لـ (ماثيو ارنولد Mathew Arnold) مقالا دون ان يلتفتوا برهة الى تلك الاناقة والدقة والاتزان التي كتب بها ما اراد ان يقول •

Twitter: @ketab_n

من الاقوال المعروفة ان الاسلوب هو الرجل ، الا انه قول ينطوي تحته الكثير من المعاني • فاين الرجل في (غوته Goethe) ، أهو في اغانيه البلبلية ام في نثره الفظ ؟ وهازلت ؟ انما ارى ان الرجل المضطرب يضطرب اسلوبه ايضا ، والقلب يغرق اسلوبه في الخيال ، وذو الخاطر السريع يذكره الامر بمئات الامور الاخرى فيشحن عباراته بالاستعارة والتشبيه ، ما لم يكبح جماح نفسه • والفرق كبير بين الاسلوب الفخم الذي انماز به الكتاب اليعاقبة الذين اثملتهم الثروة اللفظية الطارئة على اللغة ، والاسلوب المنتفخ الاجوف الذي ميز جيبون والدكتور جونسون ، اللذين وقعا ضحيتين لنظريات فاسدة • اني لاستمتع بقراءة كل كلمة كتبها الدكتور جونسون ، فهو يتصف بالذوق والبراعة الساحرة ، ولم يكن ليبزه احد لولا انه انصرف الى الكتابة بذلك الاسلوب ، فهو لم يخطىء الادب الجيد حيثما وجده ، ولم يقم ناقد بتقريظ ادب درايدان مثله ، فقد قال عنه ان موهبته الفريدة هي فكره النير الجلي • وفي احدى (تراجمه) قال : « ان من يريد ان يبلغ في الانجليزية اسلوبا اليفا في غير فظاظة، انيقا في غير ادعاء، عليه ان يوصل ليله بنهاره يدرس مؤلفات اديسن » • ولكنه عندما اخذ هو نفسه يكتب كان ذلك لهدف مختلف تماما ، فقد استبدل جلال الاسلوب بالبهرجة اللفظية • لم يعط التربية السليمة ليدرك ان البساطة وعدم التكلف هما أصدق دلائل السمو •

وما مسألة كتابة النثر الجيد سوى مسألة تربية عالية • فالنثر ، بخلاف الشعر ، فن مدني ، والشعر فن (باروكي Baroque) ، والباروك مأساة وضخامة وغموض ، وهي عناصر تتطلب عمقا والهاما ، ولا يسعني الا ان اعتبر كتّاب العصر الباروكي ، كمؤلفي انجيل الملك جيمس ، وسير توماس براون و (جلانفيل) ، شعراء اخطأوا السبيل اليه • والنثر فن روكوكي ، وهو احوج الى الذوق منه الى المتانة ، والى اللياقة قبل الالهام ، والى القوة دون الفخامة • فالشكل للشعر كاللجام الذي لا يمكن بدونه ان تركب حصانا ، الا ان تكون بهلوانا ، ولكنه للناثر (كالشاصي) الذي بدونه لا يكون لسيارتك وجود • وليس من قبيل المصادفات ان يكون اجود النثر قد كتب عند مولد الاسلوب الروكوكي حيث بلغ برشاقته واعتداله ازهى عصوره • فقد ظهر الاسلوب الروكوكي في الوقت الذي اصبح فيه الباروكي اسلوب خطابة وفخفخة ، فرغب عنه الناس سأما وملالا،

Twitter: @ketab_n

وكان ذلك تعبيرا طبيعيا لاناس يثمنون حياة التمدن • فروح المرح والتسامح والحصانة احالت الامور المأسوية العظيمة التي شغلت الناس في النصف الاول من القرن السابع عشر الى مسائل فيها غلو وافراط • فالحياة كانت اوفر رخاء ، ولعلها كانت المرة الاولى في مدى قرون استطاع فيها المثقفون ان يسترخوا في مقاعدهم متمتعين بفراغهم • ولقد قيل ان النثر الجيد ما كان اشبه بحديث الرجل المهذب ، وهذا ليس بمستطاع الا اذا تحرر عقل الانسان من القلق الملح ، فعيشه ينبغي ان يكون مضمونا بعض الشيء والا تنتاب روحه هموم داهمة • ان عليه ان يعني بنقاء الحضارة وتهذيبها لطفا ورقة • وعليه ان يعنى بشخصه (أولم يقولوا لنا ان النثر الجيد ما كان يشبه ملابس الرجل الانيق المناسبة في غير زهو ؟) ثم عليه ان يخشى الاملال ، فلا هو بالوقح ولا هو بالوقور الزميت ،وانما يكون مناسبا وان ينظر الى (التحمس) نظرة ناقد • تلك تربة جد صالحة للنثر ، لذلك ليس لنا ان نعجب من انها اتاحت الفرصة المناسبة لظهور افضل كتاب النثر في العصر الحاضر (كفولتير Voltaire) مثلا • ولعل قصور بعض الكتّاب الانجليز عن بلوغ شأوه الذي يبدو طبيعيا فيه يرجع الى الطبيعة الشاعرية في اللغة الانجليزية • وعلى قدر تمكن كبار الادباء الفرنسيين من الاداء الجزل الرزين الدقيق يكون الاعجاب بهم •

١٣

ولئن قلت بأهمية الموسيقى اللفظية ، وهي ثالثة الخصائص التي ذكرتها ، فلا بد لك ان تعتمد على حساسية اذنك • فالعديد من القراء ، ومثلهم من الكتاب المجيدين ، يفتقرون الى هذه الخاصة • من المعروف ان الشعراء كثيرا ما استعملوا الجناس ، ذلك لانهم يعتقدون ان تكرار الصوت ضرب من ضروب الجمال • ولكني لا اراه كذلك في النثر ، وان استعمل في النثر فينبغي ان يكون لسبب معين ، لان وروده عرضا لا يكون ذا وقع حسن على الاذن ، غير ان الاستعمال العرضي من الشيوع بحيث لا يحسبه السامع منفّراء وكثير من الكتاب يوردون سجعتين متتاليتين دون غضاضة، او يتبعون اسما طويلا فظيعا بنعت اطول وافظع ، او يحشرون بين الكلمة والاخرى ادوات عطف من الحروف، الصامتة مما يكاد يحطم فكك عند النطق • تلك هي بعض من امثلة طفيفة واضحة اوردتها لاثبت انه اذا

Twitter: @ketab_n

استعملها كتاب مجيدون فذلك لانهم لا اذن لهم • والكلمة لها وزن ، وجرس ، وشكل ، وانك بتدبرك هذه الاوجه الثلاثة فحسب تستطيع كتابة جملة تلذ العين وتطرب السمع •

لقد قرأت العديد من الكتب على النثر الانجليزي، فوجدت الاستفادة منها صعبة اذ ان اغلبها غامض ونظري مفرط وزجري • الا ان ذلك لا ينطبق على معجم (فاولر Fowler) للغة الانجليزية الحديثة ، فهو كتاب جليل ، لا اظن احداً يستغني عنه مهما يكن متمكنا ، ومطالعته ممتعة لان فاولر احب البساطة والدقة والادراك السليم ، ولم يكن يحتمل الادعاء الباطل • كان يرى بحق ان المصطلحات الكلامية الدارجة العمود الفقري لاية لغة ، ويحبذ العبارة المفعمة بالحيوية • لم يكن ايمانه بالمنطق شديدا ، كما انه لم يتوان عن امرار الاصطلاح عبر قواعد النحو • فالنحو الانجليزي صعب جدا ، وقليل من الكتاب امكنهم تجنب الوقوع في اغلاط نحوية ، فعلى الرغم من اشتهار (هنري جيمس Henry James) مثلا بالحيطة والحذر فقد ارتكب اغلاطا نحوية ما كانت الا لتغضب المدرس لو ارتكبها احد طلابه • ان معرفة النحو امر لازم ، فالالتزام به فيما تكتب خير من عدمه ، ولكن ينبغي الا يغرب عن البال ان النحو هو الكلام قد انتظم ، وان الاستعمال هو المحك الوحيد • واني لافضل الجملة سهلة غير متكلفة ، وان تكن ملحونة ، على تلك الجارية مجرى نحويا • ان من الفروق بين الفرنسية والانجليزية هو ان بامكانك في الفرنسية ان تتقيد بالنحو وان تكون طبيعيا تماما ، وانت لست دائما كذلك في الانجليزية • ومن مصاعب الانجليزية ان جرس الكلمة الملفوظ يطغى على شكلها المكتوب • لقد وهبت الكثير من عنايتي وتفكيري لموضوع الاسلوب ، فكتبت بضع صفحات لم اجدني قادرا على تحسينها ، وكتبت الكثير الكثير الذي لم يرضني فأهملته لاني لم استطع ان اكتب خيرا منه بالرغم من محاولتي ذلك • فليس بامكاني ان اقول عن نفسي ما قاله جونسون عن (بوب Pope) « انه لم يترك هفوة دون تقويم ، اهمالا لها او يأسا من اصلاحها » • فانا لا اكتب وفق رغبتي بل وفق قدرتي •

غير ان فاولر لم يملك اذنا ، فلم يدرك ان على البساطة ان تتنازل احيانا للجرس • لا اقول ان الكلمة المهجورة او الميتة او حتى المتكلفة

Twitter: @ketab_n

تكون مناسبة لمجرد انها تمتاز بجرسها على الكلمة النافذة الواضحة ، او لمجرد كونها تزيد من اتزان الجملة • ولكني ابادر بالاضافة الى قولي بأنك ان كنت ممن يستسيغون الخضوع للنغمة المبهجة ، فلا يجوز لك ذلك على حساب الوضوح لما قد يلقيه ذلك من الغموض على المعنى ، فكل شيء خير من الا تكتب بوضوح • وليس هناك من نقد يوجه الى وضوح البيان وبساطته سوى احتمال الجفاف ، وهذه مجازفة تستحق التحمل ان انت ادركت ان صلعتك خير لك من شعر مستعار مجعد الخصلات • ومع ذلك فان في الكلمة ذات النغمة لخطرا ينبغي دركه ، فهي غالبا ما تكون رتيبة • عندما بدأ (جورج مور George Moor) الكتابة كان اسلوبه ضعيفا حتى ليخيل اليك انه كان يكتب بقلم كليل على نفايات من الورق ، ولكنه اكتسب بمرور الايام لغة موسيقية ، وتعلم كتابة عبارات ترتد عن الاذن بتراخ غامض ، ومما كان يملؤه سرورا انه لم يشعر قط بالاكتفاء منها ، ولكنه لم ينج من الاملال ، كالمويجات الرخية اذ تلعق الساحل الحصوي ، فأنت لا تلبث حتى تعتاد اذنك على صوتها فلا تعود تحس به • انه مستديم العذوبة بحيث انك تتوق الى بعض نشاز فيه ، الى فاصل مفاجيء يحطم هذا الانسياب الحريري • ولست أدري كيف يتسنى التحفظ ازاءه • ولعل خير وسيلة لذلك هي ان تكون قابلية الكاتب لسرعة السأم أقوى وأعنف مما لدى قرائه بحيث ينتابه الضجر قبلهم ، فعليه ان يحذر الانجراف في هذا التيار ، وان يسأل نفسه ، إما واتته التعابير المنغمة بيسر وسهولة ، ان كانت هذه قد غدت عنده عملا آليا • انه لمن اشق الامور ان يكتشف المرء تلك اللحظة التي تفقد فيها تعابيره رنينها المؤثر • قال الدكتور جونسن « ان من سعى فاستحدث لنفسه اسلوبه يندر ان يكتب بعد ذلك بيسر وسهولة » • وعلى الرغم من اعجابي باسلوب ماثيو أرنولد الذي كان يناسب أغراضه ، فانه كثيرا ما كان مزعجا • كان اسلوبه اداة اصطنعها اصطناعا لكل الاحوال ، بخلاف يد الانسان القادرة على القيام بأعمال شتى •

اما اذا كنت قادرا على الكتابة بوضوح وببساطة وبموسيقية مع الاحتفاظ بحيوية التعبير ، فقد بلغت الكمال كاتبا ، كما كان يكتب فولتير • ولكننا نعلم مدى خطورة السعي وراء الحيوية ، فهو قد يجرنا

Twitter: @ketab_n

الى بهلوانية (ميريديث Meredith) المملة • ومع اختلاف كل من(ماكولي Macauley) وكارلايل في الاسلوب ، فانهما ممتعان ، ولكن على حساب الاسترسال الطبيعي غير المصطنع ، فاشراق اسلوبيهما الخاطف يدير الرأس ولكنه يدمر قوة الاقناع عندهما ، فلا عليك ان لم تقتنع بجدية قيام فلاح في يده طوق بالنط من خلاله بين الخطوة والاخرى وهو في طريقه ليحرث أرضه • فالاسلوب الجيد ينبغي ألا ينم عن الجهد ، بل يبدو وكأنه مصادفة جميلة • ليس في فرنسا اليوم ، في رأيي ، كاتب يثير الاعجاب أكثر من (كـوليت Colette) ، فهي تكتب بشكل لا تتصور معه انها تبذل أي جهد فيه • قيل لي ان بعض العازفين على البيان يمتازون بأسلوب طبيعي في العزف لا يمكن أن يجاريهم فيه أبرع الموسيقيين الا بجهد جهيد ، فأعتقد ان ثمة كتابا لا يقلون عن أولئك حظا ، منهم كوليت • لقد سألتها عن ذلك ، ولشد ما أدهشني قولها أنها تعيد الكتابة مرات ومرات ، بل قـد تقضي نهارا بأكمله في كتابة صفحة واحدة • فليس المهم اذن كيف يتوصل المرء الى أثر اليسر • ولئن كنت أنا قـد بلغت ذلك ، فانما بالعنـاء المضني ، فالطبيعة قلما تمدني بالكلمة أو بالعبـارة المناسبة دون ان تكون مبتذلة أو غريبة •

١٤

قرأت ان (اناتول فرانس Anatole France) اقتصر على استعمال تراكيب ومفردات كتاب القرن السابع عشر الذين اعجب بهم ايما اعجاب • فان صح ذلك فانه يفسر لنا افتقار لغته الفرنسية الجميلة البسيطة الى شيء من الحيوية • غير ان البساطة تكون زيفا ان انت لم تقل ما ينبغي لكونك غير قادر على التعبير عنه بأسلوب بعينه• على المرء ان يكتب بأسلوب عصره، فاللغة كائن حي دائم التطـور ، وسعيك الى ان تكتب مثلما كان يكتب المؤلفـون في الماضي البعيد ليس الا بعثـا للتصنع • فأنا لا أتوانى عن استعمال عبارة أو كلمة عامية دارجة اليوم اذا كان لها شيء من الاشراق والواقعية ، على الرغم من علمي بأن شعبيتها زائلة وانها لن تكون مفهومة في مدى عشر سنوات ، فان اتخذ الاسلوب شكلا كلاسيا فسيعين ذلك على الاستعمال الحكيم لتعابير ملائمة محليا ووقتيا • وعندي خير للكاتب ان

Twitter: @ketab_n

يكون خشن الكتابة من ان يتكلف التظرف والتأنق ، فالحياة خشونة وغلظة وهل غير الحياة يبتغي الكاتب ؟

اننا معشر الكتاب الانجليز علينا ان نتعلم بعض الدروس من زملائنا الامريكيين ، الذين أزاحوا عن أنفسهم نير انجيل الملك جيمس ، ولم يتأثروا الا أقل التأثر بشيوخ الادب القديم الـذين نعتبر نهجهم في الكتابة جزءا من تراثنا الثقافي • فلقد صاغ زملاؤنا اسلوبهم ــ وربما دون تقصد ــ من لغة التخاطب المحيطة بهم ، فامتاز بالاستقامة والنماء والحافز ، مما اسبغ على اسلوبنا المهذب مسحة من الوهن الكسول • ولم يخل هذا من فائدة للكتاب الامريكيين الذين عملوا بعض الوقت في الصحافة ، اذ غدت كتاباتهم أنفذ اذعا وانبض بالحياة من صحافتنا ، لذلك فاننا نقرأ صحفنا اليوم كما كان اسلافنا يقرأون الانجيل ، وان لم يخل ذلك من فائدة ايضا ، لان الصحف ، وبخاصة الرائجة منها ، تمدنا بخبرات لا يمكننا نحن الكتاب ان نستهين بها ، فهي بمثابة المواد الخام نتناولها من مظانها مباشرة ، وانه لمن الحمق ان نشيح عنها بانوفنا لما فيها من رائحة الدم والعرق ، اذ ليس بامكاننا ، وان شئنا ، ان نتهرب من تأثير هـذا النثر اليومي • غـير ان الاساليب الصحفية في فترة ما تكاد تتشابه ، لكأن يدا بذاتها قد سطرتها ، فيستحسن الاقلال من تأثيرها بقراءات مغايرة ، وخير وسيلة لذلك هـو المثابرة على مطالعة ما كتب في عصر لا يبعد كثيرا عن عصرنا ، فنحصل بذلك على معيار نزن به اسلوبنا لنقترب من الهدف الذي نقصده • اما انا فقد وجدت في دراستي لادب هازلت و (كاردينال نيومن Cardinal Newman) فائدة كبرى في هذا المضمار ، ولو اني لن اقلـد ايا منهما ، فالاول بلاغي مسرف يبلغ في التوشية حد الاثارة ، شأن الادب الفكتوري القـوطي ، والثاني يتصنع التأنق تصنعا ، ولكنهما يستحقان الاعجاب في خير ما كتبنا ، فأثر تقادم العهد عليهما ضئيل ، فتظنهما من المعاصرين ، فهازلت مشـرق الديباجة في قوة ونشاط ١٠ نك لتحس بوجود الانسان فيما بين السطور ، لا الانسان الظاهري الوضيع المشاكس العنيد الذي عرفه الناس في ايامه ، وانما الانسان المثالي الـذي تخيله في نفسه (والانسان الخفي في ذواتنا لا يقل عن الانسان الظاهر للعيان ضعفا واستدرارا للعطف) • اما نيومن فكان ذا رشاقة انيقة في اسلوب موسيقي ساخر تارة وجاد تارة اخرى ،

Twitter: @ketab_n

كالارض المعشبة ، لين العريكة باتزان ووقار ، كلاهما كتبا بجلاء ، ولكن ليس بتلك البساطة التي يتطلبها نقاء الذوق ، وفي هذا بزهما ماثيو ارنولد • كانا بارعين في تقييم العبارة وعرفا كيف تكتب الجملة التي تسر الناظرين ، وكان لهما اذن مفرطة الحساسية •

ولئن قدر لاحد ان يجمع خصائصهما في اسلوب الكتابة الحديث ، فسيكون مجيدا لا يجارى •

١٥

لطالما خطر لي انه كان بالامكان ان اكون كاتبا أفضل لو انني انقطعت بكليتي للادب وحده• ففي فترة مبكرة من عمري ــ لا أتذكر في أي سن ــ عنّ لي ، وأنا لا أملك الا حياة واحدة ، ان اعتصر منها ما امكن ، فلم يكفني ان اقتصر على الكتابة فحسب • كنت أريد ان أجعل من حياتي ميدانا تؤلف الكتابة الجانب الاساس منه الى جانب الجوانب الاخرى المناسبة للانسان والتي يأتي الموت في النهاية ليتوجها بالكمال • كانت فيّ جوانب نقص عديدة • كنت ضئيل الحجم ، رخو العضلات مع قدرة على التحمل ، اتلعثم ، خجولا ، ضعيف البنية ، تعوزني القابلية الرياضية التي تلعب دورا كبيرا في حياة الانجليز • ونتيجة لكل ذلك ، أو لبعضه ، أو لدافع طبيعي ــ لست أدري ــ كنت أجد في نفسي عزوفا عن الناس ، الامر الذي كان يعسّر عليّ التعرف بهم والاستئناس بصحبتهم • وعلى الرغم من اني أحببت الناس أفرادا ، الا اني لم أعن بهم جماعات • لم يكن لي شيء من روح الالفة الآسرة التي تشد الناس بعضهم الى بعض عند اول لقاء • ومع اني على مر السنين تعلمت كيف أضفي جوا من الحميمية على الموقف ان اضطررت الى التحدث مع غريب ، الا اني لم أحب أحدا من النظرة الاولى ، ولا اتذكر أني بادأت أحدا بالكلام دون معرفة سابقة في قطار أو باخرة ، ما لم يكن هو البادىء• وقد منعني ضعف بنيتي من التمتع بذاك التآلف الذي يبعثه الكحول فيما بين الناس ، اذ قبل ان يصل بي الامر الى هذا الحد من السكر ــ ذلك الحد الذي يجعل كثيرين ممن وهبوا بني سليمة يرون الناس جميعا اخوانا لهم ــ تكون معدتي قد انقلبت غثيانا• وهذه كلها مناقص كبيرة في الرجل وفي الكاتب • فكان عليّ ان اجالدها

Twitter: @ketab_n

مجالدة ، فوضعت خطة واتبعتها باصرار ومثابرة • ولست أزعم انها كانت خطة مثلى ، الا انها كانت خير خطة على ما اظن ــ كنت اتمناها في ظروفي وبتلك الامكانات المحدودة التي اعطيتها •

وارسطو ، فيما كان يبحث عن وظيفة الانسان ، قال : « انه لما كان يشبه النبات نموا والحيوان احساسا ، ثم انفرد بملكة التعليل ، فان وظيفته هي الفعالية الروحية » • ولكنه لا يخلص من هــذا الى ما قد يتبادر الى الذهن انه هو النتيجة المنطقية ، وهي ان وظيفة الانسان ان يتعهد تلك المظاهر الثلاثة التي عزاها اليه ، بل قال ان عليه ان يستمسك بالذي انفرد به • وقد نظر الفلاسفة الاخلاقيون الى الجسم نظرة ريبة وتوجس ، وقالوا ان ما يرضي الجسد قصير الامد • ولكن المتعة لا يقلل منها انها لا تدوم ، فمن الممتع ان تقفز الى ماء بارد في يوم قائظ ، وان لم تعد تحس بالبرودة بعد لحظة ، والابيض لا يكون انصع بياضا ان ظل أمامك يوما واحدا أو سنة كاملة • لذلك جعلت محاولتي تجربة كل متع الحس جزءا من خطتي • ولم اكن اخشى الافراط ، ففي الافراط انتعاش أحيانا ، وهو يمنع الاعتدال من ان يصبح عادة ثقيلة ، وهو ينشط الجسم ويريح الاعصاب • والروح غالبا ما تكون أوفر حرية وانطلاقا عندما يكون الجسم قد اشبعت رغباته ، فالنجوم تبدو اشد التماعا احيانا عند النظر اليها من هوة مما لو نظر اليها من عل • واقوى المتع التي ينصاع لها الجسد هو الاتصال الجنسي ــ لقد عرفت رجالا وهبوا كل حياتهم لهذه المتعة • انهم الان قد طعنوا في السن ، ولكني لاحظت ــ لدهشتي ــ انهم يرونها خير ما قضوا من سنوات • انه لمن سوء حظي انني جبلت على تعنت حال بيني وبين الانهماك كثيرا في هذه المتعة بالذات • لقد كنت معتدلا لاني كنت صعب الارضاء • وعندما كنت ارى من حين الى آخر اشخاصا اشبعت عاشقات كبيرات شهواتهم كانت دهشتي من قوة شهيتهم اشد من حسدي لهم لفوزهم • لا ريب انك لن تجوع ان انت لم تترفع عن القديد واللفت •

والناس اكثرهم يحيا حياة عشواء قلّبا تقلب الحظوظ • فكثير اولئك الذين يجبرهم المحيط الذي ولدوا فيه وضرورات الحصول على القوت على ان يسلكوا سبيلا مستقيما ضيقا ليس فيه انحراف الى يمين ولا الى شمال • اولئك هم الذين فرض عليهم الطراز الواحد من العيش ، والحياة

Twitter: @ketab_n

هي التي فرضت ذلك عليهم فرضا • وما من شيء يمنع ان يكون هذا الطراز كاملا تام الجوانب ، تماما كالطراز الذي يرتضيه آخرون لانفسهم اختيارا • غير ان للفنان مركزا متميزا • ولست اقصد بالفنان من كان لنتاجه قيمة فنية ، بل اقصد من يشتغل بالفن ، ولكم كان بودي ان اعثر على لفظة ادل ، ففي كلمة مبدع غرور وادعاء بالاصالة ليس هناك ما يسوغهما الا القليل • كذلك لفظة صانع لا تكفي ، فالنجار صانع على الرغم من انه يمكن ان يكون فنانا بأضيق معاني الكلمة، ولكنه لا يملك، عموما، من حرية العمل ما يملكه اقل الكتاب شأنا او اضعف الرسامين ريشة ، فبامكان الفنان ان يكيف حياته كيفما يشاء ضمن تحديدات معينة • وفي المهن الاخرى ، كالطب والقانون مثلا ، انت حر في ان تختار ايا منها ، ولكنك لن تكون حرا بعد الاختيار ، بل تصبح مقيدا بقوانين وانظمة مهنتك ويفرض عليك ان تسلك سلوكا معينا ، وهكذا يكون طراز حياتك قد تقرر • ولكن الفنان ــ ولعل المجرم ايضا ــ هو وحده الحر في ذلك •

وجدتني ، وانا بعد شاب يافع ، احب ان اضع لحياتي خطة ، ولعل ذلك كان بسبب ميلي الطبيعي للنظام ، او لعله كان بدافع امر اكتشفته في نفسي سأتحدث عنه فيما بعد • انما يعاب على هذا الالتزام قتله الانطلاق العفوي • فمن الفروق الكبيرة فيما بين الناس في الحياة الواقعية والناس في حياة الخيال هو ان الاولين مخلوقات ذوو مشاعر • ولقد قيل ان الميتافيزيقا نتيجة تعليلات فاسدة لما نؤمن به غريزيا ، فمن الممكن القول كذلك اننا في سلوكنا الحياتي نضفي صفة التروي والتدبر على افعالنا لابرار قيامنا بما نحب ، فالخضوع للنزوة الحافزة جزء من اسلوب الحياة • ولكني ارى ان فيه عيبا اكبر مما سبق ، وهو انه يقودك الى ان تحيا في المستقبل اكثر مما ينبغي • وقد اكتشفت هذا العيب في نفسي منذ امد بعيد ، وعبثا حاولت تصحيحه ، لم اتمن يوما ان تتلكأ اللحظة العابرة ريثما استخلص منها مزيدا من المتعة ، اللهم الا اذا تقصدت ذلك بالفعل ، فهي وان اتتني بما كنت اتوق اليه مشوقا ، فان خيالي كان في نفس لحظة تحقق المتعة منشغلا بمتعة متوقعة مشكوك فيها • ما مشيت يوما في شمال بيكادللي الا وكنت بكليتي في اشد التطلع لمعرفة ما يجري في جنوبه • وهذه حماقة • ان اللحظة التي نعيشها هي كل ما يمكن ان نكون واثقين

Twitter: @ketab_n

منه ، فمن المعقول ان نستخلص منها اقصى ما تعطي ، والمستقبل سيكون يوما حاضرا ، وسيبدو عندئذ غير ذي خطر كما هي الحال الآن مع الحاضر • ولكن المنطق السليم قلما ينفعني ، ليس لان الحاضر لا يرضيني ، وانما انا اتقبله كأمر محتم يتداخل ضمن الخطة ، ولكن ما يثير اهتمامي هو ما سيأتي •

اخطاء كثيرة تلك التي ارتكبتها • كنت احيانا اقع في فخ من الغريب ان الكاتب هو المعرض له ، ذلك هو رغبتي في ان اقوم في حياتي الواقعية بما كنت احمل شخوص قصصي على القيام به • لقد اقدمت على امور كانت غريبة على طبيعتي ، ولكني اندفعت فيها بعناد ومكابرة لاني ، لغروري ، لم اكن اريد الاعتراف بالهزيمة • كنت اعنى اشد العناية بأراء الآخرين • لقد ضحيت في سبيل التافه من الامور لاني لم اكن اقوى علي الايذاء • نعم ، لقد ارتكبت حماقات • ان لي ضميرا مرهفا ادى بي الى ان ارتكب امورا معينة في حياتي لا اراني قادرا على نسيانها ، ولو كان الحظ قد جعلني كاثوليكيا لامكنني الخلاص بالاعتراف ، وبأداء ما يفرض علي من قصاص كنت سأنال الغفران ، ومن ثم ابعدها عن فكري الى الابد • ولكني كنت مضطرا الى معالجتها حسبما تراءى لي ولست نادما عليها ، ذلك ان اخطائي الكبيرة هي التي علمتني التسامح مع الآخرين ، وان استغرق ذلك مني وقتا طويلا ، فقد كنت في شبابي شديد التعنت • وما زلت اتذكر غضبتي عند سماعي احدهم يذكر رأيا جديدا علي وان لم يكن مبتكرا ، بأن النفاق جزية تدفعها الرذيلة للفضيلة • كنت ارى ان على المرء ان يكون جريئا فيما يفعل• كانت لي مثلي من النزاهة والاستقامة والصدق• لم يكن ضعف الانسان يثير حفيظتي مثلما كان يثيرها جبنه • لم اكن استطيع صبرا مع الانتهازيين وذوي الكلام المبطن ، فلم يكن يخطر لي انني اكثر الناس افتقارا الى التسامح •

١٦

من الغريب ان اساءاتنا تبدو لنا لاول وهلة اقل شناعة من اساءات الآخرين • يغلب على ظني ان ذلك يعزى الى معرفتنا بالملابسات التي احاطت بها ، لذلك فانا نعذر انفسنا على ما لا نعذر الآخرين عليه • انا

Twitter: @ketab_n

نلوي كشحا عن نقائصنا ، واذا ما اضطررنا الى مواجهتها اضطرارا ، فاننا نستسهل عندئذ غض النظر عنها • اننا محقون في ذلك حسبما اري ، فهذه النقائص جزء منا وعلينا ان تتقبل ما في نفوسنا خيرا كان ام شرا • لكننا عندما نحكم على الآخرين ، فاننا لا نقوم بذلك كأشخاص نعرف أنفسنا على حقيقتها ، بل كأشخاص نتخيلهم وقد أطرحنا منهم كل ما يمس غرورنا ويحط من مكانتنا في اعين الناس • ولنأخذ مثلا بسيطا ، ما اشد احتقارنا لشخص نمسكه متلبسا بالكذب • ولكن من ذا الذي يستطيع ان يقول انه لم يكذب في حياته ، ليس مرة واحدة بل مئة مرة ؟ ان الدهشة لتصعقنا اذ نكتشف ان رجالا عظاما كانوا ضعفاء صغرة ، مخادعين آنانيين ، شبقين، تافهين ، مسرفين • وهناك كثيرون يرون ان من المعيب تعرية ابطالهم للملأ • وفي الوقع ليس هناك الكثير مما يفرق بين الرجل والرجل ، فكل منهما مزاج من عظمة وصغار ، من فضيلة ورذيلة ، من نبل ودناءة • بعض له شخصية اقوى او فرصة اوفى ، بحيث يتاح له ان يمنح غرائزه حرية اكبر للظهور ، ولكنهم جميعا متشابهون بالقوة لا بالفعل • وأنا لست بأفضل من معظم الناس ولا باسوأ منهم ، ولكني اعلم انني لو دونت كل عمل قمت به وكل فكرة خطرت لي لاعتبرني العالم وحش فسوق كبيرا •

اني لاعجب كيف تصل الصفاقة ببعضهم الى حد ادانة الآخرين عندما يكون ذلك ادانة لافكاره هو بالذات • ان جانبا كبيرا من حياتنا نقضيه مستغرقين في احلام اليقظة ، وكلما كنا اوسع خيالا كانت احلامنا اكثر تنوعا وافعم بالحياة • كم منا من يقدر على مواجهة احلام يقظته مسجلة ومبسوطة امامه ؟ لا بد اننا سنذوب خجلا ونعول بالبكاء ، أيمكن حقا ان نكون بهذه الحقارة ، بهذه الروح الشريرة ، بهذا الصغار ، بهذه الانانية ، بهذه الدعارة ، بهذا النفاق ، بهذا الغرور ، بهذا التقلب • لا شك في ان خيالاتنا هذه ما هي الا جزء منا كأفعالنا تماما ، ولو ان مخلوقا اطلع على مكنونات افكارنا الخفية هذه لكنا مسؤولين عنها كما نحن مسؤولون عن افعالنا • والناس ينسون خواطرهم الفظيعة التي تطوف في رؤوسهم ولكنهم يثورون عندما تنكشف لهم في الآخرين • يقص علينا (غوته) في (الشعر والحقيقة) كيف أنه في حداثة سنه لم يكن يحتمل التفكير في ان أباه محام من الدرجة الوسطى في فرانكفورت • كان يشعر ان دما نبيلا يجري في عروقه،

Twitter: @ketab_n

فلذلك راح يقنع نفسه ان أميرا رحالة قد مر بالمدينة فالتقى بأمه فأحبها فكان هو حصاد اللقيا • وفي النسخة التي قرأتها من هذا الكتاب كتب الناشر تعليقا غاضبا على هذا الموضوع ، فقد بدا له انه لا يناسب شاعرا عظيما ان يطعن في عفة امه التي لا يرقى اليها الشك ، لكي يتباهى مزهوا بارستقراطيته الزنيمة • كان الأمر مخجلا ولا شك ، ولكنه لم يكن غير طبيعي ، واجرأ على القول بأنه لم يكن غير مألوف • لا ريب في ان قليلا من الاطفال الرومانيين المتمردين الخياليين لم تستهوهم فكرة انهم لا يمكن ان يكونوا من صلب آباء بلداء محتشمين ، ويعزون ما يجدونه في انفسهم من تفوق ، الى شاعر مجهول او موظف كبير او امير حاكم ، حسبما يبدو لامزجتهم • ان موقف غوته الجليل في سنيّه الاخيرة ليملؤني اكبارا ، فهذا الاعتراف يثير فيّ أحر المشاعر • ان رجلا ينتج الروائع يكون بشرا بالرغم من ذلك •

لا استبعد ان تكون الخواطر الداعرة السود والافكار الخسيسة الانانية التي عششت في رؤوس القديسين على الرغم من ارادتهم ، هي التي كانت تذيقهم العذاب وهم يهبون انفسهم لفعل الخير وللندم وافتداء آثامهم الماضية • فالقديس اغناطيوس لويولا ، عندما رحل ، كما نعلم ، الى مونسرات ، اعترف اعترافا شاملا ونال الغفران ، الا ان شعورا بالاثم عميقا ظل مستحوذا عليه حتى كاد ان يدفعه الى قتل النفس • كان قبل الاعتراف يحيا حياة كالتي يحياها شاب كريم المحتد ، مزهوا بمظهره ، عاشر البغايا ، وقامر ، ولكنه كشف مرة عن شهامة نادرة ، وكان دائما شريفا مخلصا كريما شجاعا • فاذا كان قد حرم السكينة والسلام فان افكاره هي التي حالت دون غفرانه لنفسه • وانه لمما يبعث على الرضى ان يبتلى حتى القديسين انفسهم بمثل ذلك • ولطالما ساءلت نفسي ، وانا ارى عظماء رجال الارض باستقامتهم وجلال ابهتهم ، هل خطر لهم ، وهم على تلك الحال ، ان افكارهم تنشغل احيانا في خلواتهم ، وهل اقلقهم التفكير في الاسرار المكنونة في عقلهم الباطن ؟ أغلب ظني ان مجرد العلم بشيوع احلام اليقظة هذه بين الناس ينبغي ان يبعث على التسامح مع انفسنا ومع الآخرين • انه لمن الخير لو ان تلك الاحلام استطاعت ان تحيل نظرتنا الى اخواننا البشر ، وحتى الى البارزين منهم ، نظرة لطف وحسن ظن ، والا نأخذ أنفسنا بكثير

Twitter: @ketab_n

من الشدة • كنت عندما استمع الى القضاة في المحاكم وهم يكيفون الملابسات الاخلاقية بحماس زائف ، اتساءل ان كان بمقدورهم ان يتناسوا كونهم من البشر كليا حسبما كانت كلماتهم توحي بذلك • ولكم تمنيت ان يضع سعادة القاضي (اولد بيلي) الى جانب باقة الورد امامه لفافة من ورق التواليت ، فقد كان ذلك كفيلا بأن يشعره أنه بشر لا يختلف عن غيره في شيء •

١٧

قيل عني أنني عيّاب ، واتهمت بأني أظهر الناس بأسوأ مما هم • لا اراني فعلت هذا • بل كل ما فعلته هو انني ابرزت فيهم سمات اغمض كثير من الكتّاب عيونهم عنها• احسب ان أهم شيء لفت نظري في الكائنات البشرية هو افتقارهم الى الثبات والمثابرة • لم أجد في حياتي فردا واحدا متجانس الصفات • ولشد ما ادهشني ان ارى اكثر الميول تناقضا تكون في الشخص الواحد ثم يكون من ذلك انسجام مقبول • ولكم تساءلت كيف ان خصائص ظاهرها التنافر يمكن ان توجد في الشخص ذاته • فلقد عرفت سفلة لا تنقصهم القدرة على التضحية بالنفس ، ولصوصا دمثي الاخلاق ، وعاهرات يرين الشرف كل الشرف الا يبعن القيم النبيلة بالمال • ان كل ما استطيع قوله تفسيرا هو ان عند كل امرىء ايمان متأصل فيه تأصلا غريزيا يكون معه نسيج وحده في العالم ، وهو ، لعله بذلك ، يرى ان فعاله ، ان لم تكن طبيعية او سليمة ، فانها في الاقل مغتفرة ، حتى وان لم يغفرها له الآخرون • لقد عنيت بالتناقض الذي لاحظته في الناس ، ولكني لم ابالغ فيه • ان ما يوجه لي من لوم احيانا قد يكون ناشئا عن اني لم استهجن صراحة سيئات شخوص قصصي ، بل امتدحت حسناتهم فحسب • انه لنقيصة في الا تهزني آثام الآخرين ما لم يكن لها تأثيرها الخاص علي ، وحتى لو كان لها ذلك فقد تعلمت اخيرا ان اعذرها • وانها لخصلة حسنة الا تتوقع الكثير من الناس ، وعليك ان تكون شاكرا لهم معاملتهم اياك بالحسنى ، ولكن ليس لك ان تستاء ان هم أساؤوا اليك • كما قال (الاثيني الغريب) : « انالفرد منا صنيعة اتجاهات ميوله وطبيعة روحه » • فافتقار الناس الى ملكة التخيل هو الذي يمنعهم من رؤية الامور الا من حيث

Twitter: @ketab_n

وجهة نظرهم ، ولكن ليس من الانصاف ان نخاصمهم لكونهم مفتقرين الى هذه الملكة .

ولو اني نظرت الى رذائل الناس دون فضائلهم لكان لانسي محقا . ولكن لا احسبني فعلت ذلك ، اذ لا شيء أجمل من الطيبة ، ولطالما راقني ان اكشف عن مواطن الجمال في اناس هم ، بمقاييس المجتمع ، مدانون دون رحمة ، فكشفت عنها لاني رأيتها ، وقد بدت لي احيانا اشد تألقا لما قد أحاط بها من آثام حالكة . وأني لارى الطيبة في الطب فأسلم بها ، ويسليني ما اكتشفت من مثالبه أو آثامه . واني لاهتز كلما رأيت الطيبة في شرير ، واهز كتفي سماحا عندما ارى ما فيه من شر . انني لست قيما على أحد ، ولا أنا بالحكم الفيصل بين الناس ، انما راض بمجرد ملاحظتهم ، وقد هدتني ملاحظتي الى الاعتقاد بأن ليس هناك فرق كبير بين الصالح والطالح على وجه العموم ، بخلاف ما يريد الاخلاقيون ان نعتقده .

ومع ذلك فاني لم أغتر بالناس على ظواهرهم . ولعلني قد ورثت هذا التأني في التمحيص عن آبائي الذين ما كانوا ليصبحوا محامين مبرزين لولا تبصرهم الذي جنبهم الانخداع بالظاهر ، او لعلني مدين بذلك الى افتقاري لذاك الانطلاق العاطفي البهيج الذي يجعل الكثيرين عند لقيا الناس يتقبلون منهم البطء بدل الاوز ، كما يقول المثل . ومما شجعني على ذلك مراسي كطالب للطب . لم أكن أريد ان اكون طبيبا . ما كنت أريد الا ان أكون كاتبا ، ولكني كنت استحي ان اصرح بذلك ، لانه لم يكن مسموحا حينذاك ان يقدم شاب في الثامنة عشرة ومن عائلة محترمة على اختيار الادب مهنة . كانت الفكرة من الاستحالة حتى اني لم احلم بافشائها لاحد . كنت ارى ان علي ان امتهن المحاماة ، الا ان اخوتي الثلاثة الاكبر مني سنا كانوا قد امتهنوها فلم يكن يبدو ان لي مكانا بينهم .

١٨

تركت الدراسة في وقت مبكر . لم اشعر بسعادة عند ايداعي مدرسة تحضيرية في كانتربري على اثر وفاة والدي ، فالمدرسة لم تكن تبعد سوى ستة اميال عن (وايت ستيبل) حيث كان عمي الوصي علي قسا فيها . كانت

Twitter: @ketab_n

تلك المدرسة ملحقة بمدرسة (كينكز سكول) القديمة ارسلت اليها وانا في الثالثة عشرة • أحسست بالرضى عند انتهائي الصفوف الأولية حيث كان المعلمون متنمرين مرعبين • ولكني أصبت بخيبة أمل لمرضي واضطراري الى قضاء فصل دراسي في جنوب فرنسا • كانت أمي واختها قد ماتتا بالسل • واذ ظهر ان رئتي قد أصابتها العدوى ، قلق علي عمي وعمتي فأرسلاني الى مدرس خاص في (هيرس) • وعند عودتي الى كانتربري لم تعجبني كثيرا لان أصدقائي كانوا قد اصطفوا زملاءً جددا فشعرت بالوحدة • كانوا قد نقلوني الى صف اعلى بعد تخلفي ثلاثة اشهر فلم اشعر اني في المكان المناسب ، وكان مراقب الصف يضايقني ، فأقنعت عمي بأن من الخير لرئتي ان اقضي الشتاء التالي على ساحل الريفييرا بدلا من البقاء في المدرسة ، وان من خطتي بعد ذلك ان اذهب الى المانيا لتعلم الالمانية واكمال المواضيع المطلوبة لدخولي كمبرج • كان عمي ضعيفا قبال حججي القوية ، كما انه لم يكن يميل الي الميل كله ، الامر الذي لا الومه عليه ، فلا اظنني كنت صبيا محبوبا • ولما كان ما يصرفه علي من مالي الخاص ، فقد كان راغبا في تركي افعل ما اشاء • وايدت عمتي مشروعي بحرارة ، فقد كانت المانية مفلسة ، ولكن من عائلة نبيلة لها شعار ذو اشرطة وتربيعات تزهو به متباهية • سبق ان ذكرت في مكان آخر كيف انها ، بالرغم من كونها زوج قس معدم ، لم تتنازل بزيارة زوج صراف مثر كان قد اتخذ مسكنا مجاورا لنا يصطاف فيه ، وذلك لانه كان من طبقة التجار • فقررت ذهابي الى عائلة في (هايدلبرغ) كانت قد سمعت عنها من أقارب لها في (ميونخ) •

واذ رجعت من المانيا وأنا في الثامنة عشرة ، كانت لي أفكار عن مستقبلي عقدت العزم على تحقيقها • كنت اسعد من ذي قبل ، فلقد تذوقت طعم الحرية لاول مرة ، ولم اعد اطيق مجرد التفكير في ذهابي الى كمبرج والعودة الى قيود الدراسة • كنت اشعر اني غدوت رجلا وفي اشد الشوق للدخول الى معترك الحياة فورا ودونما اضاعة للوقت • كان عمي يأمل ان يراني غدوت رجلا وفي أشد الشوق للدخول الى معترك الحياة فورا ودونما اضاعة للوقت • كان عمي يأمل ان يراني التحق بالكنيسة على الرغم من علمه ان تلعثمي يجعلها مهنة ابعد ما تكون صلاحا لي • ولكني عندما اخبرته بأني لم أكن ذاهبا الى كمبرج تلقى الامر بلامبالاته المعهودة •

Twitter: @ketab_n

وما زلت أتذكر النقاش الذي جرى حول ما ينبغي ان أعمله • كان هناك اقتراح بأن التحق بالخدمة المدنية ، فكتب عمي الى صديق له من اكسفورد كان ذا مركز مهم في وزارة الداخلية ، يسترشد برأيه • فجاءه الجواب أنه بالنظر لاتباع نظام الاختبار ودخول طبقة جديدة في الخدمة المدنية لم يعد هناك مكان لابناء الذوات • فانتهى الموضوع الى ذاك الحد • ثم تقرر ان أصبح طبيبا •

لم تعجبني مهنة الطب ، ولكنها أتاحت لي السكنى في لندن فتهيأ لي بذلك ما كنت أصبو اليه من ولوج تجارب الحياة ، فالتحقت بمستشفى سنت توماس في خريف عام ١٨٩٢ • كانت مناهج السنتين الاوليتين مملة جدا ، فلم اعن بعملي اكثر مما كان يتطلبه نجاحي في الامتحان • لم اكن طالبا مرموقا ، ولكن كانت لي الحرية التي كنت اتوق اليها • لقد احببت مسكني الخاص حيث كنت اختلي فيه بنفسي ، وكنت افتخر باني جعلته جميلا ومريحا• كنت أقضي كل أوقات فراغي وما أستلّه من أوقات الدراسة في القراءة والكتابة • كنت اقرأ كثيرا جدا ، وملأت كراسات عديدة بأفكار لكتابة القصص والمسرحيات ، وبالكثير من الحوار والتأملات ، صريحة وساذجة ، مما كانت توحيه قراءاتي وتجاربي • كان اندماجي في حياة المستشفى طفيفا ، ولم يكن لي سوى القليل من الاصدقاء هناك لانشغالي بأمور أخرى • الا انني ، بعد مضي سنتين وبعد أن أخذت أعمل في قسم العيادة الخارجية، بدأت اشعر بالرغبة في عملي ، ومن ثم عملت في الردهات، حيث تعاظم حبي لعملي ، بحيث اني عندما اصبت بالتهاب اللوزتين على اثر قيامي بتشريح جثة كانت في حالة تفسخ شديد ، واضطراري الى ملازمة الفراش ، لم احتمل التريث حتى اتماثل للشفاء قبل ان استأنف عملي • كان علي ان انجز بعض الواجبات الموكولة الي للحصول على الشهادة ، وكانت هذه تستدعي زيارة الاحياء الفقيرة في (لامبث) ، واحيانا كان علي ان ازور أحياء فظيعة كانت الشرطة نفسها تتردد في ولوجها ، الا ان حقيبتي السوداء كانت تحميني فاستغرقني العمل استغراقا • وفي فترة قصيرة اوكلت الي حالات الطوارىء والاسعافات الاولية ليل نهار ، وكان ذلك متعبا ، الا انه كان ممتعا ايما امتاع •

Twitter: @ketab_n

١٩

كنت في ذلك على اتصال مباشر مع ما كنت ارغب فيه اشد الرغبة ، وهو الحياة الفجة التي لم تنلها يد الصقل • ولا شك انني قد لمست خلال تلك السنوات الثلاث كل احساس وعاطفة عرفهما الانسان ، اثارت فيّ غريزة المسرحي والقاص • وحتى الآن وبعد تصرم هذه الاربعين ما زلت اتذكر بعض الاشخاص بكل ملامحهم وتقاطيعهم بحيث اكاد ارسمهم • وان ما سمعته ذلك الحين ما برح يتلكأ في أذني • لقد شاهدت الناس يموتون ، وشاهدتهم يتحملون الالم ، وشاهدت فيهم كيف يكون الامل ، وكيف يكون الخوف ، وكيف تكون راحة النفس بعد عناء • شاهدت الاخاديد السود يحفرها اليأس على الوجوه • شاهدت الشجاعة والثبات • شاهدت الايمان يلتمع في عيون اناس آمنوا بما كنت اراه مجرد وهم • شاهدت التجلد الذي يستقبل احتمال الموت بالنكتة الساخرة كبرياء ، غشاء لما في النفس من هلع •

في ذلك الوقت (يوم كان الرخاء يعم معظم الناس والسلام يضم الجميع والازدهار مكينا) كانت مدرسة ادبية يعنى كتابها بالاسهاب في الكلام على ما لتحمل الالم من قيمة معنوية • لقد زعموا انه سليم ، وزعموا انه يربي التعاطف ورقة المشاعر ، وزعموا انه يفتح امام الروح مسالك من الجمال جديدة ، وييسر الاتصال بملكوت الله الروحي ، وزعموا انه يقوي الخلق فيطهره من دون الجسد ويسبغ على الباحث عن السعادة ــ لا على الذي يتفاداها ــ مزيدا من السعادة الكاملة • وقد نجح عدد من الكتب حول هذا الموضوع نجاحا بالغا ، وعاش مؤلفوها مرفهين ، يتناولون ثلاث وجبات طعام في اليوم ، موفوري الصحة ، وحسني السمعة • لقد دونت في ملاحظاتي ، لا مرة واحدة بل مرات عديدة ، الحقائق التي شهدتها • عرفت ان ليس في الالم ما يشرف ، بل فيه ما يهين • انه يجعل الرجل انانيا ، وضيعا ، صغير النفس ، مرتابا • انه يغرقه في التافه من الامور ، انه لا يزيده رجولة ، بل ينقص من رجولته • ولقد كتبت اقول بحماس اننا لا نتعلم الاستسلام والخضوع من آلامنا نحن ، بل من آلام الآخرين • وكان كل هذا تجربة فذة لي • فلست ارى للكاتب مراسا خيرا من ان يقضي بضع سنوات في مهنة الطب • انك ستتعلم الكثير عن الطبيعة البشرية في مكتب

Twitter: @ketab_n

محام ، ولكنك هناك تتعامل مع اناس يملكون كامل السيطرة على انفسهم، وقد يكذبون على المحامي قدر ما يكذبون على الطبيب ، ولكنهم اثبت على الكذب مع المحامي ، الذي قد لا يعنيه معرفة الصدق قدر ما يعنى بالمادة عادة ، فهو ينظر الى الطبيعة البشرية من زاوية خاصة ، بخلاف الطبيب ، وعلى الاخص ، طبيب المستشفى ، فانه يراها عارية ، لا يسترها التكتم ان وجد ، وقلما يوجد ، فالخوف يهزم كل دفاع ، وحتى الكبرياء تتهاوى وهنا • في معظم الناس دافع يحدوهم الى التحدث عن انفسهم حدوا ، ولا يكبح جماحهم سوى عزوف الآخرين عن الانصات ، فالتحفظ صفة مصطنعة لا تتربى فينا الا نتيجة لما نواجهه من صد ومعارضة • والطبيب كتوم ومن واجبه الاستماع الى تفاصيل ما يسمع •

ولرب طبيعة بشرية تتكشف امامك ، فان لم يكن لك عينان ترى بهما ، فلن تتعلم شيئا • وان كنت متحيزا او متغرضا ، او ان كنت عاطفيا رقيق المشاعر فستدخل الى ردهات المستشفى وتخرج منها وانت كما كنت جهلا بالانسان • فان كنت تبغي بعض نفع من تجربة كهذه ، وجب ان يكون لك عقل متفتح وان يكون لك اهتمام بالكائن البشري • واراني كنت جد محظوظ بهذا الخصوص ، ومع اني لم احب الناس حبا جما ، الا اني وجدتهم شيقين لا ينتابني منهم ملل • وانا بطبيعتي قليل الرغبة في الكلام ، بل احب الانصات ، ولا ابالي ان رغب فيّ الناس ام لم يرغبوا ، وليس بي ميل الى ان اكشف للآخرين ما اعرف ، ولا اشعر بضرورة اصلاح آرائهم ان كانت غلطا • ان بامكانك ان تحيل شخصا مملا الى متعة بالغة لو انك عرفت كيف تتناوله • اني لاذكر انني دعيت مرة الى جولة في احد الاقطار بصحبة سيدة كريمة أحبت ان تريني معالم المدينة ، فلم تنعد في أحاديثها المجالات السياحية ابدا ، وكان استعمالها للكلمات والتعابير الدارجة من السعة بحيث اني قنطت من استيعابها ، الا ان تعبيرا واحدا من تعابيرها لزق بذهني كما هو شأن المناسبات القليلة الذكية • كنا نجتاز صفا من البيوت الصغيرة المطلة على البحر ، فقالت : « هذه هي بيوت نهاية الاسبوع ، اذا كنت تفهم ما اقصد ، اعني انها يدخلها الناس ايام السبت ويغادرونها ايام الاثنين » • وكنت آسف لو فاتني قصدها •

انني لا ارغب في قضاء وقت طويل مع الثقلاء ، ولكني كذلك لا احب

Twitter: @ketab_n

المكوث طويلا مع الظرفاء ، اذ اني ارى الاختلاط الاجتماعي متعبا ، فالناس ترتاح نفوس معظمهم للتحادث وتنشط ، وأراه انا جهدا متعبا • كنت اتلعثم في الكلام وأنا بعد شاب ، فكان استمراري على الكلام طويلا ينهكني ، والآن وحتى بعد ان شفيت بعض الشفاء من تلعثمي ، ما زال الكلام يتعبني واني لاشعر بالارتياح كلما خلوت الى نفسي اقرأ كتابا •

٢٠

لن ادعي مطلقا بأن السنوات التي قضيتها في مستشفى سنت توماس قد اوصلت معلوماتي عن الطبيعة البشرية الى حد الكمال ، ولا أظن أحدا بالغا ذلك • ظللت ادرسها بعقلي الواعي والباطن اربعين عاما ، وما زلت اجد اشخاصا يستعصي علي تعليلهم • اناس ظننتني اعرفهم حق المعرفة ، واذا هم يثيرون عجبي لقيامهم بأفعال ما كنت أحسبهم فاعليها أبدا ، أو لاكتشافي اثرا لجانب ما رابني فيهم من قبل • ولربما يقع اللوم على ممارستي الطب الذي اوجد فيّ نظرة منحرفة ، ذلك ان من كنت اتصل بهم في المستشفى كانوا مرضى وفقراء لم يتربوا تربية صالحة • ولقد سعيت الى تفادي هذا ، وكذلك حاولت ان احذر التحيز • انني بالفطرة لا اثق بالآخرين واتوقع الشر منهم اكثر من الخير • وهذا هو الثمن الذي يدفعه من اتيحت له روح شفافة مرحة، تلك الروح التي تجعلك تستمتع بتناقضات الطبيعة البشرية ، ثم تحملك على عدم الوثوق بالناس ، وعلى البحث عن الدوافع الدنيئة التي يخفونها ، فالتباين بين المظهر والمخبر قمين بتسليتك ، وجدير بك ان تستخلقه ان لم تعثر عليه • انك تنحو الى اغماض عينيك عن الحق والجمال والخير لانها لا تفسح لك مجال الشعور بالمضحك • ان للمرح الفكه عينا ما اسرع ما تتلقف الماجن ، ولكنها كثيرا ما تزوغ عن رؤية القديس • واذا كان النظر الى الناس من زاوية واحدة يعتبر ثمنا باهظا لروح المرح فان ما يعوض ذلك عليك ثمين ايضا ، ذلك انك لن تغضب على من تضحك منهم • المرح يعلم التسامح • والفكه اذ يهز كتفيه مبتسما او ربما متنهدا اقرب الى اللامبالاة منه الى الادانة • انه لا يتفلسف اخلاقيا ، وانما يكتفي بالفهم والادراك ، والمدرك شفيق غفور •

ومع ذلك فان علي ان أقر بأنه على الرغم من التحفظات التي سعيت

Twitter: @ketab_n

ألا انساها فان تجربة السنوات التالية ايدت الملاحظات التي ادركتها عن الطبيعة البشرية ادراكا عرضيا لاني كنت احدث سنا من ان اتقصدها تقصدا ، وذلك اثناء تدريبي في العيادة الخارجية ثم في ردهات مستشفى سنت توماس ، وما زلت ارى الناس مثلما كنت اراهم حينذاك ، وهكذا صورتهم ، ولعلها ليست صورة صادقة ، وقد يراها الكثيرون بغيضة ، وهذا تجن لا شك فيه ، ذلك أني أرى الناس وفق مزاجي وبنيتي ، ولو ان أحدا اوفر تفاؤلا وحبورا وصحة وعاطفة صور نفس الاشخاص لاختلفت الصورة اشد اختلاف . ان كل ما استطيع ان ادعيه هو انني رأيتهم رؤية منطقية مترابطة .و يبدو ان بعض الكتاب لا يلاحظون ابدا ، وانما هم ينحتون شخوصهم نحتا عن صور في مخيلتهم ، اشبه ما يكونون بالرسامين الذين ينقلون رسومهم عما يتذكرون من الآثار القديمة ، ولا يحاولون النقل عن نماذج حية ، فهم ، على احسن الفروض ، يعطونك شكلا حيا لما في عقولهم من تخيلات . فان نبلت عقولهم نبلت الشخوص ، ولا يهم بعد ذلك اذا اعوزتها ما نألف في الحياة من مشكلات .

لقد اعتمدت في جميع نتاجي نماذج حية من الحياة . واني لاتذكر مرة ، ونحن في قاعة التشريح ، حيث كنت اقوم بقسطي من العمل ، سألني استاذ التشريح عن مكان عصب ما ، فلم اجده ، فدلني عليه ، فاعترضت لانه كان في غير موضعه الصحيح . ولكنه اصر على انه العصب الذي كنت ابحث عنه ، فقلت انها لا بد ان تكون حالة شاذة ، فابتسم وقال ان الاعتيادي في علم التشريح هو غير المألوف ، فاحنقني ذلك في حينه ، ولكن الملاحظة رسخت في ذهني ، وما زالت تفرض نفسها علي بكونها تصح تطبيقا على الانسان كما صحت تطبيقا في علم التشريح . فالاعتيادي من الناس هو الاندر وجودا لانه مثالي ، انه الصورة التي يرسمها المرء لخصائص الانسان السوية ، اما العثور عليها كلها في فرد بعينه فأمر يصعب توقعه . وهذا الشخص الزائف هو الذي يتخذه الكتاب الذين تكلمت عليهم نموذجا لهم ، وبما انهم يصفون ما يعتبر مستثنى فانهم قلما يبلغون التعبير الصادق عن الحياة . ان الانانية ، والعطف ، والمثالية ، والشهوانية ، والغرور ، والانطوائية ، والزهد، والجرأة ، والتكاسل ، والعنف ، والعناد، والتردد ، يمكن ان تجتمع كلها في الفرد الواحد وان يكون اجتماعها مع

Twitter: @ketab_n

ذلك على انسجام مقبول ، الا ان اقناع القراء بهذه الحقيقة استغرق زمانا طويلا .

لا اعتقد ان الناس في العصور المنصرمة كانوا يختلفون في شيء عن الذين نعرفهم الآن ، ولكن لا ريب انهم كانوا يبدون في نظر معاصريهم وحدة متكاملة ، لا كما نراهم اليوم ، ولولا ذلك ما عرضهم الكتاب عرضهم ذاك . والظاهر انه كان مقبولا ان يوصف الشخص من جانبه المرح ككل ، اما البخيل فبخيل فحسب ، والمتأنق متأنق فحسب ، والشره شره فحسب ، ولم يخطر ببال احد ان البخيل قد يكون متأنقا وشرها ايضا ، ومع ذلك فاننا كثيرا ما نرى نظيرا له ، وقد يكون ايضا ، وعلى نطاق اضيق ، شريفا ، ومستقيما ، ومعنيا بالمصلحة العامة ، وذا ميل اصيل للفن. عندما اخذ كتاب القصة يكشفون عن التناقضات في انفسهم او في غيرهم اتهموا بأنهم يهينون الجنس البشري . ان اول قاص فعل ذلك ، على حد علمي ، كان (ستندال Stendhal) في روايته (الاحمر والاسود[1] Le Rouge et le Noir) ، فاستشاط النقاد من معاصريه غضبا ، وحتى (سنت بوف Sainte-Beuve) كان عليه ان ينظر الى ما في قلبه ليرى المتناقضات التي يمكن ان تتعايش جنبا الى جنب على شيء من الانسجام ، قبل ان ينحني عليه باللائمة ، اذ ليس امتع من جوليان سوريل شخصية قصصية ابتدعها قاص، الا ان ستندال لم ينجح تماما فيجعله مقبولا، وذلك، حسبما ارى ، يرجع الى اسباب سأسردها فيما يأتي من صفحات هذا الكتاب . لقد بلغ ستندال في الارباع الثلاثة الاولى من القصة غاية الكمال اتساقا ومتانة ، فهو يملؤك رعبا حينا ، ويجعلك تتفجر عطفا حينا آخر . ان فيه ترابطا منطقيا مقبولا على الرغم من ارتعادك فرقا من بعض ما يقول.

غير ان ما بذره ستندال لم يؤت ثمره الا بعد زمان طويل . فبلزاك ، على ما له من عبقرية ، حذا حذو الاقدمين في تصوير ابطاله ، ومع انه اضفى عليهم الكثير من حيويته المتدفقة بحيث انك تتقبلهم واقعيين ، ولكنه لا يظهر منهم الا جانبهم المرح ، مثلهم مثل ابطال الملهاة القديمة ، تراهم ماثلين امامك ولكن من خلال العاطفة المسيطرة التي اثرت فيمن اتصلوا بهم . ويغلب على ظني ان من طبيعة البشر ان ينظروا الى الناس كما لو

(١) صدرت هذه الرواية في منشورات عويدات (الناشر)

Twitter: @ketab_n

كانوا جميعا على شاكلة متماثلة • انه لايسر على المرء ، تخلصا من الحيرة ، ان يقول عن شخص ما انه افضل الناس جميعا ، او انه كلب قذر • ان من المؤلم ان يكتشف المرء ان بطلا من ابطال وطنه بخيل ، او ان الشاعر الذي فتح آفاقا جديدة لمشاعرنا نفتاح • ان انانيتنا الفطرية تميل بنا الى الحكم على الناس من حيث علاقتهم بنا • نريد منهم ان يكونوا شيئا ما لنا ، وان يكونوا لنا ما هم بالفعل ،ونطرح ما بقي منهم لانه لا ينفعنا •

لعل هذه هي الاسباب التي تفسر العزوف عن قبول محاولة تصوير الانسان بمكوناته المختلفة المتنافرة ، وهي التي تدعو الناس الى الاعراض باشمئزاز عن صراحة كتاب السير الذين يكشفون حقيقة مشاهير الرجال • ان من المؤلم ان يقال ان مؤلف الخماسية الموسيقية لم يكن امينا في الامور المالية ولم يكن وفيا للذين احسنوا اليه • ولكن لعله لم يكن ليمتلك تلك المواهب العظيمة لولم تكن له مساوىء عظيمة ايضا • لست اراهم على صواب اولئك الذين يرون ستر مثالب العظام من الرجال ، بل ارى ان من الخير ان نعرفها ، فعندئذ ، ومع علمنا بأن لنا مثل ما لهم من مثالب ، يتاح لنا ان نؤمن بأن تلك لا تحول بيننا وبين بلوغ بعض ما لهم من فضائل ايضا •

٢١

افادني مراسي في الطب في معرفة مبادىء العلم الاساسية والاسلوب العلمي ، فضلا عن معرفة شيء عن الطبيعة البشرية ، وقبل ذلك كنت اعنى بالفن والادب فحسب ، الا ان تلك المعرفة كانت ضحلة ، لان متطلبات المناهج يومذاك لم تكن كثيرة ، ولكنها على كل حال ارتني الطريق الى ميدان كنت اجهله كل الجهل ، فألفت بعضا من المبادىء ، فدنيا العلم التي رأيتها في تلك اللمحة العجلى بدت لي مادية صلبة ، واذ اتفقت مفاهيمها مع انعطافي الذهني فقد احتضنتها مبتهجا • قال (بوب Pope) : « الناس ، دع الناس وما يقولون ، ولا تطمئن الى حكمهم فهو يميل حيث يميلون » • لقد راقني ان اتعلم ان عقل الانسان (وهو ذاته من نتاج الطبيعة) وظيفة من وظائف الدماغ الذي يسير على وفق قوانين العلة والمعلول ، كما هي

Twitter: @ketab_n

حال باقي اعضاء الجسم ، وان هـذه القوانين هي ذاتها المسيطرة عـلى حركات الاجرام والذرة • لقد استخفني الفرح لدى التفكير بأن الكون ليس سوى ماكنة ضخمة كل حدث فيه موكول الى حدث قبله ، بحيث ما كان يمكن ان يكون الا ما كان • راقت لغريزتي الفنية هذه المفاهيم ، كما انها ملأتني بشعور من الحرية لذيذ • لقد رحبت ، بكل عنفوان الشباب ، بفرضية بقاء الاصلح • كما اعجبت بكون الارض ذرة من طين تلف حول نجيم يبرد شيئا فشيئا ، وبأن التطور ، الذي انتج الانسان والذي يجبره على تكييف نفسه على وفق بيئته ، سيجرده من كل المؤهلات التي اكتسبها ما عدا تلك التي تلزمه بالضرورة لمكافحة انخفاض الحرارة المتزايد ، الى ان يعدو الكوكب ـ بعد ان يصبح رمادا جليدا ـ غير قادر على ادامة اي شكل من اشكال الحياة • كنت اعتقد بأننا لسنا سوى دمى تعسة تحت رحمة قدر قاس ، واننا ، نحن المقيدين بنواميس الطبيعة الصارمة ، قـد كتب علينا ان نخوض غمار الصراع الدائم في سبيل البقاء ، دون ان يكون امامنا سوى الهزيمة المحتومة • وتعلمت ان الانسان مدفوع بأنانية فظة ، وان الحب ليس الا مكرا دنيئـا تماكرنا الطبيعة به حفاظا على النـوع ، فاستنتجت من ذلك انه مهما يكن هدف الانسان فانه مخدوع ، ذلك لانه يستحيل عليه ان يستهدف الا ما كان له فيه رغبة انانية • حـدث مرة ان قمت بخدمة لصديق (لم اتمهل لاعرف ما دعاني الى ذلك ، مع اني كنت اعلم ان الانانية فقط هي وراء ما نعمل) فأراد ان يعرب لي عـن امتنانه (الذي لم يكن ما يدعوه اليه لان عطفي ذاك كان مقدرا تقديرا) فسألني عما يعجبني هدية ، فطلبت منه بدون تردد كتاب (المبادىء الاولى) تأليف (هربرت سبنسر Herbert Spencer) فقرأته برغبة وشوق، ولكني جزعت لايمانه العاطفي المسرف بالتقدم • فالعالم الذي عرفته كان ينحدر من سيء الى أسوأ• واتتابني شعور بالفرح بالغ عندما خطر لي ان احفادي الابعدين، وهم قد نسوا الفن والعلم والصنعة ، عراة يرتجفون في الكهوف يرقبون البرد والظلام الابدي • كنت متشائما كأعنف ما يكون التشاؤم ، ومع ذلك فقد كانت حيويتي ونشاطي يتيحان لي ان أستخلص الكثير من متع الحياة • كنت أطمح الى ان أكوّن لنفسي اسما في عالم الادب ، فعرّضت نفسي لكل تقلب وتغير قد يهيء لي استزادة من خبرة او جديدا من تجربة كنت اريدها• وقرأت كل ما كان يقع في متناول يدي •

Twitter: @ketab_n

٢٢

كنت في هذه الفترة أعيش مع جماعة من الشبان كانت لهم مواهب طبيعية تفـوق ما كان لدي كثيرا • كانوا يكتبون ويرسمون وينظمون ببراعة أثارت حسدي • كان لهم من حسن تقييم للفن ومن غريزة نقـد يئست من بلوغ مداهما• مات من هؤلاء بعض دون ان يبلغوا ما كنت اتوسمه فيهم ، وعاش منهم آخرون مغمورين • لقـد ادركت الآن ان كل ما كان عندهم لم يزد على موهبة الخلق والابداع الكامنة في الشباب ، فكتابة النثر ونظم الشعر وعزف بعض الانغام على البيان والرسم مواهب غريزية عند الكثيرين من الشبان ، فهي ضرب من اللعب يعزى الى سني حياتهم الفتية ، لا خطر لها الا بقدر ما للقصور التي يشيدها الاطفال على الرمل من خطر • واحسب ان سذاجتي هي التي جعلتني أعجب بمواهب رفاقي أولئك ايما اعجاب • ولو كنت أقل جهلا لادركت ان تلك الآراء التي بدت لي أصيلة فهيم قد اكتسبوها مستعملة ، وان شعرهم وموسيقاهم صدرا عن ذاكرة حافظة لا عن خيال حي • ان ما اريد قوله هو ان هذه البراعة ان لم تكن عامة فهي من الشمول بحيث يصعب استخراج أية قاعدة منها • الشباب هو الالهام • ان من احدى مآسي الفن مشهد هذا العدد الضخم من الذين أغواهم هذا الخصب الطارىء ، فكرسوا حياتهم للخلق والابداع بيد انهم يفقدون ذلك كلما تقدمت بهم السنون ، فيواجهون الزمن المستطيل قبالتهم ، ونداء الاستزادة والاملال يدعوهم ، بعد اذ لم تبق فيهم بقية من مؤهل ، فيرهقون ادمغتهم المنهوكة لابتداع ما ليس بمقدورها ابتداعه ، ويكونون من المحظوظين ان هم استطاعوا ــ بما في ذلك من مرارة معلومة ــ ان يقيموا اودهم بوسائل ذات صلة بالفن ، كالصحافة او التعليم •

وبديهي ان الفنان الحق ينبثق من بين هـؤلاء الذين يملكون تلك الملكات الطبيعية ، فبدونها لا يمكن ان يكون ذا موهبة ، ولكنها لا تعدو ان تكون جزءا من الموهبة فحسب • ونحن ، كل واحد منا ، نبدأ بأن نحيا في اطار فردية عقولنا ، ثم نبني العالم الخارجي الذي يناسبنا مما نكتسب من معرفة ومن اتصالنا بالعقول الاخرى • ولما كنا نتاج عملية تطور واحدة ، وبيئاتنا على قدر من التشابه ، فان ما نبنيه يكون متقارب التشابه كذلك ، ولكننا نتقبلها ، من باب اليسـر والسهولة ، على انها صنوان ، فنتحدث

Twitter: @ketab_n

عن عالم واحد • انما الفنان يختلف عن سائر الناس من وجه من الوجوه ، فيختلف كذلك عالمه الذي يبنيه • فمزاجه المختلف هذا هو خير ما فيه • وهو اذ يرسم الصورة لعالمه الخاص فتروق لعدد من الناس اما لغرابتها ، او لما فيها من امتاع أصيل ، أو لتوافقها مع مزاجهم (ذلك لان الواحد منا ليس صنو جاره ، بل قد يشبهه من وجه ، فلا تتقبل العالم تقبلا موحدا من كل الوجوه) ، أقـول ، عندما يرسم صورة مقبولة كتلك ، نعترف بأنه موهوب حقا • ان كان كاتبا فهو يشبع في قرائه حاجة مـا ، فيرافقونه في حياة روحية يرتضونها خيرا مما يرتضون الحياة التي فرضتها عليهم الظروف فرضا • الا ان هناك آخرون لا يروق لهم هـذا المزاج ، فهم لا يحتملون العالم الذي يرسمه الفنان بوسائله ، وقد ينفرون ، وعندئذ لا يبقى للفنان ما يقوله لهم ، فينكرون عليه موهبته •

لست أرى في العبقرية كبير اختلاف عن الموهبة ، ولست واثقا كذلك من انها تعتمد على أي اختلاف كبير في ملكات الفنـان الفطرية • فمثلا ، لا أظن ان كان (لسرفانتس Cervantes) ملكة في الكتابة فـذة ، ولو ان قليلا من الناس من ينكر عبقريته • كذلك ليس من اليسير ان نجـد في الادب الانجليزي شاعرا اوفر ملكة من (هريك Herrick) ومع ذلك ليس هناك من يدعي أنه كان أكثر من موهوب محظوظ • والعبقرية ، عندي ، مزاج من الملكات الفطرية للخلق والابداع مع مزاج شخصي يهيء للفنان ان يرى العالم بأعلى درجات الذاتية ولكن بعمومية شاملة بحيث ان دعوته لا تكون موجهة الى هذا أو ذاك من ضروب الناس ، بل اليهم أجمعين • وعالم العبقري عالم أوساط الناس ، الا انه أوسع وأنشط • وحديثه عـام شامل ، فاذا لم يستطع بعض النـاس استشفاف مدلوله بدقـة ، فانهم يشعرون بأهميته • والعبقري عادي ولكن فيه رفعة وسمو • وهو اذ يرى العالم بحيوية وحبور لما فيه من موهبة فطرية ، يراه بما فيـه من تناقض مطلق وبتلك النظرة السليمة التي تتفق ونظرة البشرية عموما اليه ، فهو يرى العالم ، كما يقـول (ماثيو ارنولد) بثبات وككل • ولكن العبقري لا يطلع علينا الا مرة او مرتين كل قرن ، وهنا يمكن تطبيق علم التشريح القائل بأن لا شيء أندر من الطبيعي السوي • فمن الغباء ان نحذو حذو الكثيرين ممن يصفون رجلا بأنه عبقري لكونه قد وضع بعض مسرحيات

Twitter: @ketab_n

لبقة أو رسم عددا من اللوحات الجيدة • أنه لحسن جدا ان تكون لنا موهبة ، فقليل من يملكونها ، وبالموهبة يصل الفنان الى الدرجة الثانية ، ولكن ذلك ينبغي الا يثبط من عزمه ، فتحت هذه الدرجة تتدرج أسماء الكثيرين من المؤلفين الفضلاء • فاذا تذكرت ان الموهبة هي التي انتجت قصة مثل (الاحمر والاسود) وشعرا مثل (فتى شروبشاير) ولوحات كالتي رسمها (واتو Watteau) فلن ينتابك الخجل من تتاجك• والموهبة لن تصل الدرجات العليا ، ولكن لها القدرة على ان تريك الكثير من المشاهد اللذيذة غير المتوقعة ، واديا صغيرا قلما وطئتها قدم ، أو جديولا ينساب خافت الخرير ، أو مغارة شاعرية السمات ، وذلك أثناء مسارها على السبيل الموصل اليها • وللطبيعة البشرية استقامة قد تزوغ أحيانا اذا ما نظر فيها على أوسع نطاق ، فهي تتراجع ازاء عظمة (تولستوي Tolstoi) في (الحرب والسلم) لتعود اليفة الى (فولتير Voltaire) في (كانديد) • انه لمن الصعب ان يعيش المرء دائما مع سقوف (ميشيل انجلو Michel Angelo) في كنيسة سيستين ، ولكن ذلك ممكن مع احدى لوحات (كونستابل Constable) في كاتدرائية ساليزبري•

ان لي ميولا معدودة ، وليس بامكاني ان أكون غير ما أنا ، وأنا متحزب بسبب من طبع وبسبب من ظروف ، كما اني لست اجتماعيا ، ولا أنا قادر على ان أشرب حتى استشعر أعظم الحب لبني جلدتي ، واللهو العابث يضجرني بعض الشيء ، فعندما ينشغل الناس بالغناء والطرب وهم على موائد الشراب ، أو ينحدرون في الزوارق النهرية ، اظل أنا في صمتي، بل انني لم اغن طيلة حياتي • اكره ان يلمسني احد ، وكثيرا ما اجتهد ألا انكمش مجفلا اذا ما اراد احد ان يلف ذراعه بذراعي • انني لا انسى نفسي ابدا ، واشمئز من الهياج والثورة ، ولا اراني اكثر ترفعا ، الا عندما اكون بين جمع استسلموا للمشاعر العارمة من فرح او حزن • وعلى الرغم من اني احببت مرات عديدة ، فلم اشعر ابدا بالسعادة والفرح • انني اعلم ان الحب خير ما يمكن ان تقدمه الحياة ، ولا شك ان الجميع قد استطابوه ولو لفترة وجيزة من الزمن • لقد احببت اكثر ما احببت اولئك الذين قل اهتمامهم بي او لم يهتموا بي اطلاقا ، واني لاشعر بالارتباك ازاء حب الناس لي • كانت معالجة امور كهذه ورطة لي ايما ورطة ، فلكيلا اجرح مشاعر

Twitter: @ketab_n

اولئك كنت اظهر عاطفة ما كنت احس بها في نفسي • ولقد سعيت باللطف حيثما امكن ، وبالشدة حيثما لم يكن اللطف ، ان اتخلص من السلاسل التي كان حبهم يقيدني بها • كنت اغار من استقلالي ، فانا غير قادر على الاستسلام الكلي • وعلى ذلك ، واذ لم اكن اتأثر بالمشاعر الاساسية التي يتأثر بها الرجل السوي ، فليس ممكنا ان يتصف تتاجي بالالفة وبالمسحة الانسانية الواسعة وبالرصانة الحية ، تلك الصفات التي هي من معطيات اعظم الكتاب فحسب •

٢٣

ليس من السلامة في شيء ترك الجمهور ينفذ الى ما وراء الستارة ، اذ سرعان ما سينزاح عنه الوهم ، ومن ثم ينفجر غضبه عليك ، فالتوهم هو ما كان يحب دون ان يدرك ان ما يعنيك هو الاسلوب الذي به ابتدعت إلوهم • لقد هجر الناس قراءة كتب (انطوني ترولوب A. Trollope مدة ثلاثين سنة لمجرد أنه اعترف بأنه كان يكتب في ساعات معينة منتظمة ، وبانه لم يأل جهدا في سبيل نيل اعلى ثمن لما يكتب •

اما فيما يتعلق بي ، فلا يجمل بي ان اخفي الحقيقة ، والتسابق موشك على الانتهاء ، ولست أطلب من أحد أن يظن بي خيرا مما استحق ، فليتقبلني الذين يحبونني على ما أنا عليه ، وليتركني الباقون وشأني • ان لي من خلقي الخاص أكثر مما لي من ذكاء ، ومن الذكاء أكثر مما لي من ملكات معينة • لقد ذكرت شيئا من هذا القبيل قبل بضع سنوات لناقد مشهور مبدع ، ولست أدري ما الذي دعاني الى ذلك فما أنا بالميال للتحدث عن نفسي في مجمع • كان ذلك أثناء الغداء في (موندیديه)في الاشهر الاولى من الحرب ، ونحن في طريقنا الى (بيرون) • كان العمل قد انهكنا في الايام السابقة فراق لنا ان نتباطأ في طعامنا الذي بدا لشهيتنا المتفتحة الذ ما يكون • وأظنني كنت قد انتشيت بتأثير الخمر ، بل أجرؤ على القول بأني كنت قد تأثرت بما اكتشفته من تمثال رأيته في السوق بأن (موندیديه) كانت مسقط رأس (بارمنتيه) الذي ادخل البطاطا الى فرنسا • فبينا نحن نرتشف شرابنا وقهوتنا على مهل ، واذا أنا بدافع يدفعني الى ان احلل ملكتي تحليلا دقيقا وصريحا • ولقد اربكني ان أقرأ ذلك بعد سنوات

Twitter: @ketab_n

وبنص كلماتي تقريبا في احدى الصحف المهمة ، وشعرت بشيء من الغضب، اذ ان قولك الحقيقة عن نفسك بنفسك شيء وان يقولها عنك غيرك شيء آخر . ولكم كنت أود لو ان الناقد امتنّ عليّ بقوله آنه سمع كل ذلك من شفتيّ نصّا . ولكني أغالط نفسي ، فمن البديهي ان يظن في نفسه هذا القدر الكبير من الحذق والذكاء . وكان ذلك هو الحق ، وكان من سوء حظي ان يكون الناقد مستحقا لنفوذه الواسع وان ما قاله قد كرره الآخرون عامة . وفي لحظة أخرى من لحظات التصارح أطلعت قرائي على اهليتي غير الاعتيادية ، ولولا هذا التصريح لما اكتشفه ناقد ، ولكن هذه الصفة راحت تلصق بي كثيرا وبشكل مهين . ولقد بدا لي غريبا ان هذا العدد الكبير من الذين يعنون بالفنون لا يعنون العناية الكافية بالاهلية والجدارة .

قيل لي ان هناك من المغنّين من هو كذلك بالطبع ومن هو كذلك بالتطبع ، ومع ان على الاخير ان يملك صوتا ، الا انه مدين بالجانب الاكبر من فنه للتمرين ، فهو بالذوق والمقدرة الموسيقية يستطيع التغلب على الفقر النسبي في حنجرته فيقدم لك غناء ممتعا وبخاصة للناقد ، ولكنه لن يثيرك كما يثيرك الى حد الطرب ذلك النغم الرائق الفريد لمغن بالطبع والفطرة . وقد يكون هذا قليل التجربة والتمرس وقد تعوزه المعرفة والبراعة ، وقد يغضب كل معايير الفن ومبادئه ، ولكنه السحر في صوته الذي يأسرك ويسلب لبك ، وانك لتغفر له تحرره من القيود ، وانك لتغفر له سوقيته ، وانك لتغفر له اثارته لظاهر المشاعر ، وانك لتغفر له كل ذلك والسحر من صوته السماوي ينصب في اذنيك . انني كاتب بالتطبع لا بالطبع ، الا انني أكون معتزّا لو اعتقدت بأن النتائج التي حققتها يرجع الفضل فيها الى تخطيط مسبق وضعته ونفذته تقصدا . لقد تقاذفتني سبل شتى لا وهن الدوافع ، واني اذ التفت الرجعى أراني كنت استهدف لا شعوريا غاية بعينها ، وهي ان أربي خلقي تعويضا عن نقص مواهبي الفطرية .

ان لي ذهنا منطقيا رائقا ، ولو أنه ليس شديد الحذق والنفاذ ، وكثيرا ما تمنيته خيرا مما هو حتى ألفت السخط والهياج كلما تقاعس عما أريده منه . كنت كالرياضي الذي لا يستطيع غير ان يجمع ويطرح ، وعلى الرغم من رغبته في اجراء كل العمليات المعقدة ، فانه يعرف ألاّ قدرة له عليها . لقد طال بي الوقت قبل ان أسلم بما لديّ فأستخلص منه خير ما فيه. وأظنه

Twitter: @ketab_n

عقلا حميدا ذلك الذي أوصلني الى نهـاية كل درب مشيته • لست ممن لا يتقنون شيئا سوى مهنتهم الخاصة ، ففي القـانون والطب والسياسة يكون للذهن الرائق والبصيرة بالناس نفع كبير •

من ذلك انني لم يعوزني الموضوع ابدا • ان في ذهني من القصص أكثر مما لدي من وقت لكتابتها • كثيرا ما كنت أسمع كتابا يشكون من كونهم راغبين في الكتابة الا انهم ليس لديهم ما يكتبون عنه • أذكر ان كاتبة مبرّزة أخبرتني مرة أنها كانت تقرأ بعض كتب فيها تلخيصات شاملة للعقد القصصية بحثا عن موضوع تكتب فيه • لم تواجهني صعوبة كهذه أبدا • وسويفت ، كما نعرف ، كان يدعي لنفسه القدرة على الكتابة في أي موضوع مهما يكن ، فتحدوه في ان يكتب مقالة عن عصا المكنسة ، فابلى بلاء حسنا محمودا • وأكاد أميل الى القول بأني لا أقضي ساعة من الزمن بصحبة أحد الاشخاص الا وأكون قد استخلصت من المادة ما يكفيني ان أضع عنه قصة واحدة في الاقل • انه لجميل ان يكون في رأس المرء هذا العدد من القصص بحيث انك تستطيع ان تشغل خيالك بواحدة منها خلال الساعة والساعتين ، أو الاسبـوع والاسبوعين ، تبعـا لمزاجك النفسي • والاستغراق في التفكير الحالم عماد الخيال الخلاق • ومن خصائص الفنان ألا يكون هذا الاستغراق الحالم عنده هروبا من الواقع كما هو عند غيره ، بل انه وسيلته للاندماج فيه • ان تخيلاته ذات هدف ، وهي تتيح له من المتعة ما تكون متع الحس ازاءها تافهة ، وهي تؤكد حريته• فليس من عجب ان يمتنع أحيانا عن استبدال متعتها بعناء التنفيذ فالخسران •

وعلى الرغم من ان لي تنوعاً في الابتكار ، ولا غـرابة في ذلك لانه حصيلة تنوع البشر ، الا انني ضعيف من حيث قوة التخيل • لقد تناولت شخوصا أحياء ووضعتهم في مأساة أو ملهاة حسبما استوحيته من خلقهم• وقد يصح ان أقول انهم هم الذين كتبوا قصصهم ، فأنا عاجز عن الاتيان بتلك التحليقات الرائعة البارعة التي تحمل المؤلف على أجنحة الخيـال العريضة الى عالم علوي • فقوة التخيل عندي لم تكن كبيرة يوما ، وكانت تتعثر بشعوري بالمرجحات والاحتمالات • كنت أرسم على القماش وليس صورا جدارية من الجص •

Twitter: @ketab_n

٢٤

لكم وددت ان لو كان لي في شبابي مرشد حصيف يأخذ بيدي في مطالعاتي • أني لاتحسر ندما على الزمن الطويل الذي أضعته على كتب لم تكن ذات نفع لي • ان التوجيه القليل الذي أفادني كان من شاب ساكنني مع نفس العائلة التي نزلت عندها في هايدلبرج ، وسأدعوه فيما يلي باسم (براون) • كان يومها في السادسة والعشرين ، تخرج في كمبرج واشتغل بالمحاماة ، ولكن لضيق ذات يده في تلك الايام الرخيصة ، ولعزوفه عن القانون ، قرر ان يهب نفسه للادب • فجاء الى هايدلبرج ليتعلم الالمانية • دامت معرفتي به حتى موته بعد ذلك بأربعين سنة • لقد أمضى عشرين سنة يتسلى بالتفكير فيما يكتب، وعندما عزم فعلا على الكتابة ، أمضى العشرين سنة التالية يفكر فيما كان سيكتبه لو كانت الظروف أرأف به• نظم مجموعة طيبة من الشعر • كانت تعوزه القريحة والعاطفة والاذن الموسيقية • قضى بضع سنوات يترجم محاورات افلاطون التي سبقه الكثيرون الى ترجمتها، ومع ذلك فاني أشك في انه انهى ترجمة اية منها • كان عديم الارادة كليا ، وكان سريع التأثر ، عقيما • كان وسيما على الرغم من قصره ، جميل التقاطيع ، مجعد الشعر ، في عينيه زرقة شاحبة ، وفي ملامحه كآبة • كان يبدو كما ينبغي ان يبدو الشعراء • وفي سنواته الاخيرة ، بعد ان عاش حياة كلها كسل وتراخ ، وبالرغم من صلعه وهزاله ، فقد كان يحيط به جو يجعلك تظنه نبيلا من النبلاء • قضى سنوات من الجهد المضني في بحوث جافة ، بينما كانت تعابيره الروحية تشير الى شكوك الفيلسوف الذي تقصى أسرار الحياة فلم يجد سوى أباطيل • واذ تضاءل مورده الزهيد اختار ان يكون عائلا على كرم الآخرين دون العمل ، وكثيرا ما كان يشق عليه بلوغ الكفاف • ولكن روح الرضى لم تزايله مطلقا ، فيسّر له ذلك تحمل الفقر باستسلام ورضوخ دون مبالاة • لا اظنه خطر بباله انه لم يكن سوى خدعة فاضحة • كانت حياته كلها مجرد اكذوبة ، ولكنه لو عرف دنو اجله عندما دنا (وكانت رحمة به انه لم يعرف) لما حسب حياته الا أنه قد قضاها على خير وجه • وكانت فيه جوانب ساحرة ، متجردا عن الحسد • وعلى الرغم من أنانيته التي كانت تمنعه من تقديم خدمة لأحد ، فانه لم يكن بامكانه الا ان يكون عطوفا رقيقا • كان ذوّاقة للادب بحق ، ففي النزهات

Twitter: @ketab_n

الطويلة التي كنا نرتاد فيها مرتفعات هايدلبرج كان يحدثني عن الكتب ، وعن ايطاليا وعن اليونان ، وهو لم يرهما ، ولكنه أهاج مخيلتي الفتية ، فرحت أتعلم الايطالية • كنت أتقبل منه كل ما كان يقـول ، بحماسة من اهتدى حديثا الى نهج يسلكه • ولست ألومه على انه ألهب فيّ الاعجاب ببعض كتب أظهر لي الزمن انها لم تكن تستحق ذلك • كنت يوم وصوله أقرأ (توم جونس) الذي استعرته من المكتبة العامة ، فما اعترض ، ولكنه قـال إنه يفضل لو أني طالعت (ديانا عند مفترق الطرق) • كان افلاطونيا حتى في ذلك ، وأعارني (مختارات من محاورات افلاطون) ترجمة (شيللي)• حدثني عن (رينان Renan)و(كاردينال نيومن Cardinal Newman)و(ماثيو ارنولد) الذي قال عنه أنه غير مهذب بعض الشيء • وحدثني عن شعـر (سـوينبرن Swinburne) وأناشيده ، وعن عمر الخيام الذي كان يحفظ له العديد من رباعياته يقرؤها علي ونحن نتنزه ماشيين • كنت موزعا فيما بين تحمسي للرومانسية الابيقورية ازاء المادة وارتباكي لطريقة (براون) في العرض، فقد كان يرتل الشعر كما يرتل كاهن صلواته في قبو خافت الضوء• كان يرى ان الكاتبين الذين يجب ان تعجب بهما ان كنت من ذوي الثقافة ، لا بريطانيا عزوفا عن الامور العقلية ، همـا (والتربيتر Walter Peter) و (جورج ميريديث George Meredith) كنت مستعدا لان أمتثل بما أؤمر به لبلوغ تلك الغاية المطلوبة بالرغم من عدم تصديقي ذلك ، فرحت أقـرأ (حلاقة شكبات) في عاصفة من الضحك ، فقد كان مضحكا حقا • ثم أخذت اقرأ روايات جورج ميريديث واحدة فواحدة ، فوجدتها رائعة ، ولكن ليس بتلك الروعة التي تظاهرت بها لنفسي • كان اعجابي ظاهريا لانه كان جزءا من واجب الشاب المثقف ، وقد اثملني حماسي دون ان ألقي بالا الى صوت الاعتراض الضعيف في نفسي • ولكني الآن أعرف أن تلك الروايات كانت محشوة بالتفاهة الرخيصة• والغريب في الامر انني وأنا أعيد قراءتها أستعيد ذكرى الايام الاولى التي قرأتها فيها ، غنية بالاصباح المشمسة ، حيث تيقظ ذكائي مع احلام الشباب اللذيذة ، حتى انني عندما كنت انتهي من احدى روايات ميريديث (ايفان هارينغتن) مثلا ، وأقرر ان النفاق الظاهر فيـه يدعو الى الغضب والنفور ، وان فيه غرورا كريها ، وان ما فيه من اطناب لا يحتمل ، واني لن اقرأ له رواية أخـرى ، يذوب قلبي اشفاقا وأقول : بل انه عظيم •

Twitter: @ketab_n

ولكني من جهة أخرى لا أشعر الشعور نفسه ازاء (والتر بيتر) الذي قرأته حينذاك وبنفس الحماس • لم تربطني به رابطة طيبة تميزه عندي بما ليس فيه • لم أجد فيه طعما ، كصورة (ألما تاديما) ، واني لاستغرب كيف يثير هذا النثر اعجاب احد ، انه نثر راكد ، لا هواء فيه • انه بناء زخرف بعناية بيد غير ماهرة لتزيين جدران مطعم في احدى المحطات • ان نظرة بيتر الى الحياة من حوله انعزالية ، فيها شيء من التعالي والترفع ، الامر الذي كنت أنفر منه • فالفن ينبغي ان يقدر بعاطفة جياشة عنيفة ، لا بذاك الوقار الفاتر المهين الذي يخشى النقد أمام الملأ • غير ان والتر بيتر كان مخلوقا ضعيفا ، فليس لنا ان ندينه بشدة • ان عدم ميلي اليه ليس لذاته ، بل لانه يمثل في عالم الادب لونا مبتذلا بغيضا ، ذلك هو من ملأته الثقافة غرورا •

والثقافة قيمتها فيما لها من أثر على الخلق نبيل قويم ، فان لم يكن لها ذلك فلا خير فيها أبدا • انها للحياة ، وهدفها الطيبة والخير قبل الجمال• والثقافة ، كما نعلم ، كثيرا ما تؤدي الى ان يرضى المرء عن نفسه • فمن منّا لم ير ابتسامة الاستاذ ترتسم على شفتيه الرفيعتين وهو يصلح غلطا في نص، أو نظرة الالم في عيني فنان وهو يستمع الى أحدهم يمتدح لوحة لا تعد في نظره شيئا ؟ ليس في قراءة ألف كتاب خير أكثر مما في حراثة ألف حقل ، وليس في وصف صورة وصفا صحيحا فضل أكثر مما في معرفة العلة في سيارة متعطلة • ففي كل هذه الامور لا تفيدنا الا المعرفة الخاصة ، فلسمسار البورصة خبرته كما ان للصانع خبرته كذلك • وانه لاجحاف سخيف ان يرى المثقف ان معرفته هي الفضلى ، فالصادق ، والطيب ، والجميل ، ليست صفات مقصورة على أولئك الذين تخرجوا في مدارس باهظة الاجور واختلفوا الى المكتبات وترددوا على المتاحف • فلا عذر لفنان يتعالى على الناس ، وانه لأحمق ان ظن ان ما لديه من معرفة أخطر مما لديهم ، وانه لغرّ ان لم يستطع الوقوف معهم بغير عناء موقف المساواة • لقد أساء ماثيو ارنولد الى الثقافة اساءة بالغة عندما أصرّ على أنها نقيض اللا ثقافة •

Twitter: @ketab_n

٢٥

في الثامنة عشرة كنت قد تعلمت الفرنسية والالمانية وشيئا من الايطالية، الا اني لم أكن مثقفا، وكنت شاعرا بذلك أعمق الشعور. لقد قرأت كل كتاب صادفته. كان فضولي ورغبتي في الاطلاع من الشدة بحيث ان شغفي بقراءة تاريخ بيرو أو أخبار رعاة البقر لم يكن يقل عن شغفي بمطالعة بحث عن الشعر البروفانسي أو اعترافات القديس أوغسطين. أظن ان ذلك قد أمدني بقدر من المعرفة العامة تنفع الروائي، فالمرء لا يدري متى تنفعه هذه المعلومات النائية. كنت قد دأبت على ان ادرج ما أقرؤه في قوائم، وان من حسن المصادفات انني مازلت احتفظ بقائمة منها تمثل ما قرأته في شهرين، ولولا انني كتبتها بنفسي لما صدقت ما جاء فيها، ففيها انني قرأت ثلاث مسرحيات لشكسبير، ومجلدين من تاريخ روما لمومسن Mommsen وقسما كبيرا من كتاب الادب الفرنسي للانسن Lanson، وروايتين أو ثلاثة، وشيئا من الادب الفرنسي القديم، وكتابين علميين، ومسرحية لأبسن Ibsen. لقد كنت طالب علم نشيطا حقا. وفي الفترة التي أمضيتها في مستشفى سنت توماس كنت مثابرا على قراءة الادب الانجليزي والفرنسي والايطالي واللاتيني. قرأت أيضا الكثير في التاريخ والقليل في الفلسفة ومقدارا من العلوم. كان حبي للاطلاع أقوى من أن يتيح لي الوقت للتفكير فيما قرأت. كنت أتحرق شوقا للانتهاء من كتاب حتى أتناول غيره كنت أرى في ذلك مغامرة، فقد كنت ابدأ قراءة كتاب مشهور بنفس الانفعال الذي يقبل به الشاب على ليلة صاخبة، أو الفتاة اذ تدعى الى حفلة رقص. كثيرا ما سألني صحفيون يبحثون عن مادة كتابية عن أكثر لحظات حياتي اثارة، ولولا الخجل لكان جوابي انها اللحظة التي بدأت فيها بقراءة فاوست لغوته، ولم يزايلني هذا الشعور أبدا. وما زلت حتى الآن يندفع الدم في عروقي أحيانا عند بدئي بقراءة الصفحات الاولى من كتاب ما. في القراءة راحة لي، كما هي في الحديث أو في لعب الورق لغيري، بل انها أكثر من ذلك، انها ضرورة لو جردت منها زمنا لوجدتني سريع التهيج والثورة، كالمدمن الذي أعوزه المخدر. واني لافضل قراءة دليل للبضائع أو جدول للمواقيت على ألا اقرأ شيئا على الاطلاق. وفي هذا شيء من التجني، فقد سبق لي ان أمضيت ساعات مستمتعة مستغرقا في مطالعة قائمة بأسعار مخازن

Twitter: @ketab_n

الجيش وقوائم أسعار الكتب المستعملة ، وكانت قراءات عطرة ملذة • انها آنس من نصف ما كتب من الروايات •

لم أترك الكتب جانبا الا لعلمي بأن الوقت يمضي وان عليّ ان أحيا ، فولجت العالم لاني أعتقد بضرورة ذلك سعيا وراء الخبـرة التي بدونها لا يمكن ان أكتب ، ولكني ابتغيتها لذاتها أيضا ، اذ لم أجدني مكتفيا بأن أكون كاتبا فحسب ، فالخطة التي وضعتها لنفسي كانت تلزمني بأن أسهم بأكبر قسط ممكن في هذه المسألة الغريبة ، مسألة كوني انسانا • أردت ان احس بالسائر من الآلام وبالمآلوف من المتع والتي هي جزء من نصيب الانسان العادي • لم أجد ما يوجب اخضاع دعاوى الحس الى مغريات الروح ، وعزمت على استخلاص مايمكن من الاختلاط الاجتماعي والروابط البشرية ، طعاما وشـرابا وفسوقا ورفاها ورياضة وفنّا ورحلات ، وكما يقول (هنري جيمس Henry James) ، وكل شيء • غـير ان ذلك كان جهدا جهيدا ، ولقد كنت أعود الى كتبي وصحبي كل مرة بارتياح •

وعلى الرغم من اني قرأت كثيرا، فاني قارىء رديء، بطيء في القراءة، لا اكاد أهمل فقرة ، يصعب عليّ ترك كتاب قبل بلوغ نهايته مهما يكن تافها ومهما يكن مملا • ان باستطاعتي ان أعدّ على أصابعي تلك الكتب التي لم أقرأها من الغلاف الى الغلاف ، وهناك ، من جهة أخرى ، القليل من الكتب التي قرأتها مرتين ، على الرغم من علمي جيـدا ان من الكتب ما لايمكنني تقويمه التقويم الكامل في قراءة واحدة ، ولكنها كافية لاعطائي كل ما يمكنني استخلاصه ، مع احتمال نسياني بعض التفاصيل ، وفي ذلك معين لي من الغنى دائم • أعرف اناسا يقرأون الكتاب مرات عديدة ، وهذا لا يكون الا اذا كانوا يقرأون بعيونهم فحسب دون ادراك ، كتمرين آلي مثلما يفعل التيبتيون اذ هم يديرون عجلة الصلاة • لا شك انها مشغـلة لا ضرر فيها ، ولكنهم مخطئون ان هم ظنوا انها مشغلة ذكية •

٢٦

في شبابي ، عندما كان شعوري الفطري عن كتاب ما يختلف عما كان يراه الناقدون المختصون ، ما كنت اتردد في تخطئة نفسي • لم أكن أعلم

Twitter: @ketab_n

مدى تقبل الناقدين لوجهات النظر التقليدية ، ولم يخطر لي أنهم قادرون على التحدث بثقة عن أمور لم يعرفوا عنها الكثير • ولم ادرك الا بعد زمن بأن ما يعنيني في أي أثر فني هو ما أراه انا فيه • ولقد بدأت اثق الآن بحكمي، اذ انني لاحظت ان شعوري الفطري قبل أربعين سنة ازاء الكتّاب الذين كنت اقرأ لهم يومذاك ، وان ما لم أبال به لانه لم يكن يتفق والرأي السائد ، غدا اليوم مقبولا عموما • لذلك فاني ما ازال اقرأ كثيرا من النقد لاني أراه لونا مقبولا من الادب ، فليس كل ما يرغب المرء في قراءته يكون لمنفعة روحية ، ولا وسيلة أمتع لقتل ساعة أو ساعتين من قراءة كتاب في النقد • انه لمسلّ ان تتفق مع الكاتب وانه لمسلّ ان تختلف واياه ، وانه لممتع دائما ان تعرف ما يقوله كاتب ذكي عن كاتب آخر ، مثل (هنري مور Henry More) مثلا ، أو (ريتشاردسن Richardson) ممن لم تسنح لك الفرصة لقراءة شيء لهم •

اما الاهمية الوحيدة للكتاب فهي في المعنى الذي يقدمه لك ، وقد تكون له معان أخرى أهم للناقد ، ولكنها لا تكون ذات نفع كبير لك أنت• فأنا لا اقرأ الكتاب لذاته بل لنفسي ، وليس من شأني ان أصدر حكما ما ، بل ان امتص منه ما يمكن ، كما تمتص الاميبا ذرات جسم غريب ، اما ما لا استطيع هضمه فلا شأن لي به • انني لست باحثا ولا طالب علم ولا ناقدا ، انما أنا كاتب محترف اقرأ ما ينفعني في مهنتي • كل شخص قادر على كتابة كتاب ثوري يحطم فيه أفكار بطليموس السائدة منذ قرون ، ومع ذلك فلا يهمني ان أنا اهملت قراءته ، وقد يكون فيه وصف لمجازفات خارقة للعادة في مجاهل (باتاغونيا) ولكني سأظل جاهلا بها • ليست هناك ضرورة في ان يكون الكاتب القاص ضليعا في جميع المواضيع ، الا موضوعه بالذات ، بل على العكس ، فقد يؤذيه ذلك ، لان الانسان ضعيف بالطبع فيستصعب عليه ان يقاوم رغبته في استعمال معلوماته بلا مناسبة • ان من الخطأ نصح الروائي ان يكون تقنيّا أكثر من اللازم • ان محاولات استعمال العبارات الحرفية ، التي بدأت في التسعينات ، متعبة ، فينبغي ان نكون قادرين على كشف الاحتمالات بدون الاستعانة بهذا الاسلوب ، فالجو المطلوب يكون باهظ الثمن ان أدى الى الملل • على القاص ان يلم بعض الالمام بالمسائل الكبرى التي تشغل بال الناس الذين هم موضوعه ،

Twitter: @ketab_n

ولكن يكفي ان يكون ذلك مجرد إلمام عام • انما يجب تجنب التحذلق بأي ثمن • وحتى في هذا فالمجال فسيح ، ولقد حاولت ان أحدد لنفسي المجالات المتفقة وأغراضي • فأنت لن تقدر أبدا على معرفة أبطالك معرفة كاملة • فكتب السير والذكريات والعلوم كثيرا ما توفر لك التفاصيل القريبة ، واللمسات العالمة ، واللمحات الملهمة ، مما لا يمكن ان تجدها في نموذج حي ، اذ ليس أصعب من معرفة البشر ، ذلك أنك لن تجد فيهم من يطلعك على الدقائق من حياته تكون ذات نفع لك • ولن يكون بامكانك ان تطّلع عليه وقتما تشاء ثم تضعه جانبا كما تفعل بكتاب • ثم ان عليك ان تطّلع على كل حياته لتجدك في النهاية انك لم تنتفع بشيء •

٢٧

يجاملني بعض الشبان المتشوقين الى الكتابة فيسألونني عما ينبغي لهم ان يقرأوه من الكتب فأخبرهم ، ولكنهم نادرا ما يقرأونها لضعف روح الفضول عندهم ، على ما يبدو • انهم لا يعنيهم الاطلاع على ما انتج أسلافهم ، ظنا منهم انهم قد تمكنوا من كل ما يلزمهم لمعرفة فن القصة بعد قراءة اثنتين أو ثلاثة من روايات (مسز وولف Mrs. Woolf) وأخرى (لفورستر E. M. Forster) وعدد من روايات (لورنس D. H. Laurence) وأخيرا ، وبالرغم من غرابة ذلك ، يقرأون مجموعة (حكايات فورسيت) • صحيح ان للادب المعاصر جاذبية واضحة لا تجدها في الادب الكلاسي ، وانه من المستحسن للكاتب الناشيء ان يتعرف على ما يكتب معاصروه وكيف يكتبون ، الا ان للادب انماطا بحيث تصعب معرفة القيمة الفعلية لنمط في الكتابة يكون هو الرائج في حينه ، فالتوفر على معرفة جلائل تراث الماضي خير مقياس للمقارنة • اني لأتساءل أحيانا عن سبب انطفاء وقدة الابداع في الشبان ، على الرغم من امكاناتهم ومهاراتهم ، ان لم يكن ذلك بسبب جهلهم • فهم قد يكتبون الكتابين والثلاثة ، ليست لامعة فحسب بل وناضجة ، ومن ثم ينتهي أمرهم • وليس في هذا ما يزيد غنى بلد ما في أدبه ، فذلك يقتضي ان يكون عندك كتّاب لا يكتفون بتأليف كتابين أو ثلاثة ، وانما بمجموعة ضخمة من المؤلفات ، وان تكن متفاوتة القيمة ، فميلاد أروع أثر يلزمه تضام عدد من الظروف والمهيئات المواتية•

Twitter: @ketab_n

الا ان ظهور تحفة كهذه ببذل أقصى الجهود المضنية أقـرب احتمالا من ظهورها بطريق المصادفة على يد عبقري غرّ • والكاتب لن يكون خصب الانتاج الا اذا جدد ذاته ، وذاته لن تتجدد الا اذا ثابر على اغنـاء نفسه بتجربة جديدة ، وليس هناك مصدر أغزر تجربة من استكناه سحر آداب الماضي العظيمة •

فالاثر الفني ليس حصيلة معجزة من المعاجز • انه يتطلب التحضير والتمهيد • والتربة ، وان تكن غنية ، ينبغي تغذيتها • على الفنان ان ينمي شخصيته عمقـا وتنويعا بالتفكير وببذل الجهد ، ومـن ثم تترك التربـة للراحة ، ثم ينتظر الفنان الشرارة التي ستضيء له حياة روحية جديدة • انه يباشر عمله المعتاد صابرا ؛ بينما يقوم عقله الباطن بوظيفته الغامضة • وعندئذ ، وعلى حين غرة ، تنبعث امامك الفكرة دون ان تعرف مأتاها ، ولكنها سرعان ما تذوى ، كالبذرة في ارض جرداء ، ان لم تتعهدها يـد العناية العطوف • على الفنان ان يشحذ كل همته وكل مهارته وكل خبرته ، وكل ما فيه من خلق وفردية ، متحملا كل عناء لاظهار الفكرة بالكمال الذي يناسبهـا •

واذ يستنصحني الشبان عما يقرأون ، اصر على انهم ينبغي ان يقرأوا شكسبير وسويفت ، ولكني لا افقد صبري معهم اذ يردون عليّ بأنهم قد قرأوا (رحلات جليفر) في دور الحضانة و (هنري الرابع) في المدرسة ، وانهم وجدوا (معرض الاباطيل) لا تطاق و (أنا كارنينا) تافهة ، فذلك شأنهم ، اذ لا نفع في قراءة لا تستمتع بها • والشبان يمتازون ، في الاقل ، بأنهم لا يعانون من غرور المعرفة ، وليس فيهم من عجرفة الثقافة ما يجعلهم ينكمشون عن التعاطف مع العامة من الناس ، الذين هم مادتهم على كل حال • انهم قريبون من رفاقهم ، والفن الذي يتعاطونه ليس لغزا ، وانما هو حرفة مثل غيرها من الحرف • انهم يؤلفون الروايات والمسرحيات دون تصنّع كما ينشيء غيرهم السيارات الآلية • وهذا خير كله ، فالفنان ، وهو في انفراده العقلي ، وبخاصة الكاتب ، يبني عالما يختلف عـن عوالم الناس، وان ما يتماز به من خصوصية جعلته كاتبا منفصلا عنهـم • وهنا يظهر التناقض الظاهري ، ذلك انه وان كان يرمي الى ان يصفهم الوصف الحق ، فان موهبته تحول بينه وبـين معرفتهم على حقيقتهم في الواقـع • فكأنه

Twitter: @ketab_n

برغبته الملحاحة في ان يرى الشيء ، يسدل ، بنظرته الفاحصة ، غلالة من الغموض بينه وبين ذلك الشيء • والكاتب يقف خارج العمل الذي يؤديه فعلا ، فهو الكوميدي الذي لا يفقد نفسه كليا في دوره، لأنه ممثل ومتفرج في الوقت نفسه • ان من الممكن القول بأن الشعر عاطفة تعنّ للشاعر في هدوء نفسي ، ولكن للشاعر عاطفة نوعية مميزة ، هي عاطفة الشاعر لا عاطفة الرجل ، وهو لا يتجرد كل التجرد من اهتمامه ، ولهذا نجد المرأة، بشعورها الغريزي كثيرا ما لا يرضيها حب الشاعر • ولعل الكاتب المعاصر هو الذي يبدو ألصق بمادته الأولية ، كرجل عادي فيما بين اناس عاديين ، وليس كفنان في مجتمع غريب ، قادر على تحطيم الحاجز الذي تقيمه حتما موهبته الخاصة ، فيقترب بذلك من الحقيقة البسيطة اكثر مما قدّر للسابقين ان يبلغوا • ومع ذلك فانه متروك لك ان يقرّ رأيك على العلاقة بين الحقيقة والفن •

٢٨

لقد كان لي نصيبي من عجرفة المثقف • ولئن زايلني ذلك الآن ، على ما ارجو ، فليس لما فيّ من فضيلة او حكمة ، بل انه الحظ الذي اتاح لي اسفارا اكثر مما اتيح لمعظم الكتاب • انني احب انكلترا ولكني لا اشعر بكثير راحة فيها ، وكثيرا ما يعتريني الخجل مع الانجليز • انها عندي بلد لي فيه التزامات لم ارد انجازها ومسؤوليات ما برحت تضايقني • لم اشعر بذاتيتي الا اذا وضعت القنال بيني وبين وطني • هناك من المحظوظين من يجد الحرية ضمن فكره ، اما وانا اضعف منهم قوة في الروح ، فاجدها في الترحال • عندما كنت ما ازال في هايدلبرج استطعت زيارة عدد من الاماكن في المانيا (في ميونخ رأيت أبسن يرشف كأسا من الجعة عند مكسيمليان ، مقطب الوجه ، يقرأ صحيفة) ، وزرت سويسرا ، ولكن رحلتي الحقيقية الاولى كانت الى ايطاليا • ذهبت اليها وانا مفعم بما قرأت لوالتر بيتر وراسكين (Ruskin) وجون سيموندز (John Addington Symonds) كانت امامي فسحة من اسابيع ستة هي عطلة عيد الفصح ، وفي جيبي عشرون جنيها • زرت جنوا ، وبيزا حيث كنت اقطع مسافات شاسعة ماشيا لأستريح برهة في غابة الصنوبر التي جلس فيها شللي يقرأ سوفوكليس

Twitter: @ketab_n

ويكتب شعره على قيثارة. ثم القيت عصا الترحال قرابة الشهر في فلورنسا، عند ارملة كنت اقرأ مع ابنتها (المطهر Purgatorio) . قضيت اياما متعبة وانا انتقل من مكان الى آخر وفي يدي كتاب راسكين . لقد اعجبت بكل ما قال راسكين انه يدعو الى الاعجاب (حتى برج جيوتو المخيف) ونفرت عن كل ما ذمّه . لا شك انه ما كان ليجد تلميذاً يتقد حماسا مثلي . وبعد جولة في البندقية وفيرونا وميلان ، عدت الى انجلترا فرحا مسرورا ، محتقرا كل من لم ير رأيي (ورأي راسكين) في (بوتيشيللي Botticelli) و (بلليني Bellini) . كنت في العشرين .

وفي السنة التالية زرت ايطاليا ثانية الى نابولي في الجنوب واكتشفت كابري ، تلك البقعة الساحرة الرائعة ، حتى انني في الصيف التالي امضيت كل عطلتي فيها . لم تكن كابري معروفة يومذاك ، ولم تكن المقطورة المعلقة التي تربط الساحل بالمدينة قد انشئت ، كما ان المصطافين كانوا قلة عددا ، فكنت تجد المأوى والطعام وكذلك الشراب ومنظر فيزوف يطل عليك من نافذة غرفة النوم ، كل ذلك لقاء اربعة شلنات في اليوم . كنا هناك شاعر ، وموسيقي بلجيكي ، وصديقي براون من هايدلبرج ، ورسام او رسامان، ونحّات هو (هارفارد توماسHarvard Thomas) ، وعسكري امريكي برتبة كرنل اشترك في الحرب الاهلية في صف الجنوبيين . كنت اصغي بنشوة وطرب الى الاحاديث يتجاذبونها عن الفن والجمال والادب والتاريخ الروماني ، ونحن في بيت الكرنل في اعالي كابري ، او في حانة (موركانو) القريبة من الميدان . شاهدت رجلين يأخذ الواحد بخناق الآخر لخلاف نشأ بينهما على الخصائص الشعرية في شعر (هيريديا Heredia) . كان ذلك رائعا . والفن ، او الفن للفن ، كان الموضوع الوحيد السائد في العالم ، والفنان كان وحده القادر على ان يضفي على هذا العالم المضحك شيئا من الاهمية . اما السياسة والتجارة والمهن العلمية ــ ما قيمتها من حيث المدلول المطلق ، كان اصدقائي اولئك (وقد ماتوا جميعا) يختصمون على قيمة قصيدة او نفاسة نقش اغريقي ، (اغريقي ، عجبا ! قلت لك انه محاكاة رومانية ، واذا قلت شيئا فانه لكذلك) ولكنهم اتفقوا على ان النقش قد احرق على لهيب نار وهاجة . استحييت ان اذكر لهم اني كتبت رواية ، واني قد بلغت المنتصف في كتابة اخرى ، وانه لكبح

Twitter: @ketab_n

لرغباتي الجسدية ـ وانا احترق كذلك على لهيب نار وهاجة ـ ان يعاملوني كما لو كنت من الجهلاء ، وألا يهمهم سوى تبضيع جثث الناس ، وانتهاز الفرص لاعطاء اخلص الاصدقاء حقنة شرجية •

٢٩

ثم غدوت مؤهلا ، فقد نشرت لي رواية نجحت نجاحا غير منتظر ، فظننت ان الحظ قد واتاني طائعا • فتركت الطبابة لاصبح كاتبا ، ورحلت الى اسبانيا • كنت في الثالثة والعشرين • ويبدو لي الآن انني كنت اشد جهلا من شباب اليوم في مثل عمري • نزلت في اشبيلية • تركت شاربي ينمو ، واخذت ادخن السيجار الفليبيني ، وتعلمت الضرب على القيثار ، ولبست قبعة عريضة مسطحة ، ورحت امشي متبخترا في (سيرباس) ، حيث اعجبني رداء مبطن بالمخمل الاخضر والاحمر ، ولكني لم اشتره لقلة موردي • تجولت في المناطق الريفية على صهوة حصان اعارنيه صديق • كانت الحياة اجمل من ان تسمح لي ان افرد للادب اهتماما خاصا • كنت انوي ان اقضي سنة هناك اتعلم فيها الاسبانية ، ثم ارحل الى روما ، التي كنت قد زرتها كسائح ، لزيادة معرفتي السطحية باللغة الايطالية، ثم اواصل رحلتي الى اليونان ، بقصد تعلم لغتها الدارجة كمدخل الى الاغريقية القديمة ، ومن ثم انهي الرحلة في القاهرة اتعلم فيها العربية • كان منهجا حافلا طموحا ، الا انني مسرور لعدم تحققه ، ولكني ذهبت الى روما (حيث كتبت مسرحيتي الاولى) ومن ثم عدت الى اسبانيا ، فقد حدث ما لم يكن بحسباني • لقد وقعت في غرام اشبيلية والحياة فيها ، وعينين خضراوين فيهما ابتسامة مرحة (ولكني تغلبت على ذلك) وان لم استطع مقاومة الاغراء فكنت ازورها السنة بعد الاخرى ، أجول في شوارعها البيض الصامتة ، أو على ضفاف (كاد الكبير) ، أو فيما حول الكاتدرائية• حضرت مصارعة الثيران ، وانغمست في حب هيّن مع مخلوقات صغيرة جميلة لم تكن طلباتها تثقل على ميزانيتي الضئيلة • كانت الحياة في اشبيلية شيئا رائعا لشاب في زهرة العمر ، فأرجأت دراستي الى وقت آخر انسب ، فكان من نتائج ذلك انني لم اقرأ الاوديسة الا بالانجليزية ، ولم احقق امنيتي في قراءة الف ليلة وليلة بالعربية •

Twitter: @ketab_n

عندما ظهرت الطليعة المفكرة في روسيا ، تذكرت ان (كاتو Cato) بدأ يتعلم الاغريقية وهو في الثمانين من عمره ، فجزمت على تعلم الروسية ، ولكني يومها كنت قد فقدت حماس الفتوة ، فلم اتقدم فيها باكثر من تمكني من قراءة مسرحيات تشيخوف ، وقد نسيت منذ زمن هذا القليل الذي تعلمته من الروسية • اني ارى الآن ان خططي تلك كانت هراء في هراء ، فالاهمية ليست للكلمات بل لمعانيها ، فلا فائدة في كوني قادرا على ان اتعلم من اللغات ستا ، فقد التقيت اناسا اتقنوا لغات عدة ، ولكني لم الحظ انهم اكثر حكمة منا نحن الآخرين • انه لجميل ان تكون ملما بشيء من لغة بلاد تزورها لتجد معالم طريقك فيها ، فان كانت لها قدم راسخة في الادب فمن الاجمل ان تكون قادرا على قراءته ، الا ان معرفة كهذه ليس من الصعب ادراكها ، اما محاولة تعلم المزيد فلا طائل تحتها ، ذلك انك ان لم تكرس كل حياتك فلن تتعلم التكلم بلغة بلد آخر الى حد الكمال ، ولن تتعرف على ناسه وادبه عن كثب ، لانهم ، وادبهم الذي هو اداة تعبيرهم ، ليسوا حصيلة اعمال يؤدونها او كلمات يستعملونها ، فكل ذلك ليس عصي التناول ، بل لكونهم نتاج غرائز ورثوها عن اسلافهم ، ومشاعر أشربوها في لبن امهاتهم ، ومواقف متأصلة جبلوا عليها مما لا يمكن للغريب عنها ان يتفهمها كل التفهم • اننا ليصعب علينا ان نتفهم شعبنا ، واننا لنخدع انفسنا ، نحن الانجليز بالاخص ، ان توهمنا ان بامكاننا ان نعرف شعوب البلدان الاخرى ، وذلك لان جزيرتنا المطوقة بالبحر تباعد بيننا ، والرابط الديني المشترك الذي كان يخفف من اثر هذا الانفصال قد انفصم بحركة الاصلاح الديني •فلست ارى ما يدعو المرء الى ان يتحمل عناء تعلم ما لا يمكن ان يكون الا تعلما سطحيا• انه لمضيعة للوقت ان يتعلم الانسان اكثر من المعرفة السطحية • باللغات الاجنبية ، والاستثناء الوحيد هو اللغة الفرنسية فهي اللغة المشتركة فيما بين المثقفين ، فمن المناسب ان يتقنها المرء ليعالج الكلام على اي موضوع تدعو الحاجة اليه • وهي ذات ادب عظيم• ولعل في البلدان الاخرى ، عدا انجلترا ، ادباء عظاما اكثر مما لها من ادب عظيم • ان اثر اللغة الفرنسية على سائر انحاء العالم ، حتى السنوات العشرين الاخيرة ، كان بالغا • انه لحسن ان تكون قادرا على قراءة الفرنسية باليسر الذي تقرأ به لغتك • هناك على اي حال حدود لاجادتك الفرنسية ، فقد دلت التجربة على انك ينبغي ان تتحرز من الانجليزي الذي

Twitter: @ketab_n

يتقن الفرنسيـــة اتقانا تاما ، فهـــو ما ان يكون مقامرا غشاشا او ملحقـــا دبلوماسيا .

٣٠

ما كنت يوما مولعا بالمسرح ولع الاهوس . لقد عرفت من الكتاب من كانوا في كل ليلة يطوّفون في المسرح الذي تمثل فيـــه مسرحية لهم ، معتذرين بأنهم انما يفعلون ذلك لئـــلا يتهاون الممثلون في اداء ادوارهم ، ولكنهم في الواقع ما كانوا ليسمعوا اقوالهم تتردد على الافواه كثيرا الا هناك . كانت متعتهم ان يقبعوا في غرفة الملابس اثناء الفترات ، يتساءلون عن سبب فشل هذا المشهد او ذاك في تلك الليلة ، او يهنئون انفسهم على النجاح وهـــم يراقبون ممثلا يستعد للتمثيل . لم يجـــدوا المتعة الا في الشائعات المسرحية ، فقد احبوا المسرح وما يمت اليه بسبب . كان حبا بمازج نفوسهم حتى العظام .

ما كنت كذلك ابدا . فافضل ما احب المسرح ومقاعده مغطاة بالدثار، يلف القاعة الظلام ومنصة المسرح مبعثرة ادواته ، واكداس مـــن لوحات المناظر متروكة ازاء الجدار الخلفي لا ينيره سوى الاضواء الوطيئة . لقد امضيت ساعات سعيدة اثناء التمرين ، واحببت الصداقة الحميمة فيما بين العاملين في المسرح ، واحببت تناول الغداء على عجل في مطعم عند ناصية الشارع مع احد الممثلين ، واحببت قـــدح الشاي الادكن مع قطعة الخبز السميكة بالزبد التي يقدمها الخادم في الساعة الرابعة . ما زلت اتذكر تلك الهزة اللذيذة التي شعرت بها وانا اسمع رجالا ونساء متقدمين في السن يرددون اسطرا مما انساب من قلمي بيسر وسهولة . كان يروق لي ان ارقب الممثل وهو يعالج العبارات الميتة في التمثيلية فتنمو وتكبر لتستحيل الى شخصية حية كالتي كنت اراها في مخيلتي . كنت اشعر بسرور وانا استمع الى مناقشة حامية حول انسب مكان لقطعة من الاثاث ، وعن كفاية المخرج القدير ، وعن نوبات الغضب التي تنتاب ممثلة لم يرضها الدور ، وعن مكر الممثلين القدامى الذين يصرون على الوقوف في وسط المسرح وهم يمثلون، وعن الاحاديث العابرة التي تعنّ دون تقصد . ولكن الاجمل من كل ذلك

Twitter: @ketab_n

هو التمرين الاخير بالملابس ، ففي المقاعد الامامية تفرق بضعة اشخاص هم مصممو الملابس ، خاشعين كما لو كانوا في كنيسة ولكن بسيماء رجال الاعمال ، يتبادلون همسات قصيرة واشارات خاطفة فيما بينهم اثناء التمثيل ، فتدرك انهم يتهامسون عن طول فستان ، او فتحة كمّ ، او ريشة في قبعة ، وما ان ينزل الستار حتى تراهم والدبابيس في افواههم يهرعون الى المسرح • ويصرخ المخرج « ارفع الستار » واذ يرفع ، ترى ممثلة تنتزع نفسها من حديث ثائر مع سيدتين عابستين متشحتين بالسواد ، وتصيح « اوه ، مستر ثينج ، انا اعرف ان وضع هذه الزركشة خطأ ، ولكن السيدة فلس تقول انها ستستبدلها بقطعة من شريط » • وفي الاروقة تجد المصورين ، والادارة ، وبائع التذاكر ، وامهات الممثلات ، وزوجات الممثلين ، ووكيلك الخاص ، واحدى صديقاتك ، وثلاثة او اربعة ممثلين لم يشتركوا في مسرحية منذ عشرين عاما • انها جمهرة المشاهدين الكاملة • واذ ينتهي كل فصل ، يقرأ المخرج الملاحظات التي دوّنها • وتبدأ مشادّة مع الكهربائي الذي لا عمل له سوى مراقبة مفاتيح النور ، ولكنه يديرها خطأ ، فيغضب المؤلف لهذا الاهمال مع شيء من الرضا ، لانه يظن ان الكهربائي لم يخطيء الا لأنه كان مأخوذا بالتمثيلية • وقد يعاد تمثيل مشهد قصير ، ثم ترتب المواقف الهامة ، وتنبعث الانوار الساطعة لالتقاط الصور • وينزل الستار لاعداد مشاهد الفصل الثاني ، ويتفرق الممثلون الى غرفهم لاستبدال ملابسهم ، ويختفي الخياطون ، وينسلّ الممثلون القدامى الى ناصية الشارع لاحتساء كأس ، واعضاء الادارة يدخنون السجاير الرخيصة مكتئبين ، ويتجاذب الامهات والزوجات الاحاديث بصوت خفيض ، ووكيل المؤلف يطالع انباء السباق في جريدة مسائية • كل ذلك زيف واصطناع ، ولكنه مثير • واخيرا يدخل الخياطون خلال باب مقاوم للحريق ، فيقتعدون مجالسهم ، ويتخذ ممثلو المؤسسات المتنافسة اماكنهم متباعدين ، ويطلع مدير المسرح رأسه من وراء الستار ويقول :

ـ مستعدون يا مستر ثينج •

ـ حسن ، ارفع الستار •

الا ان التمرين بالملابس كان آخر متعة تتيحها لي مسرحياتي • في

Twitter: @ketab_n

العرض الاول لمسرحياتي الاولى كنت متوتر الاعصاب ، لان مستقبلي كان منوطا بهـا • اثناء عرض مسرحيتي (ليدي فريدريك) كنت قـد بلغت الوشل من المال الذي جاءني عنـد بلوغي الحادية والعشرين ، كمـا ان رواياتي لم تأتني بما يكفي معاشي ، ولم انل شيئا من اشتغالي بالصحافة ، عدا مقابلات قصيرة كانت تجري معي بين حين وآخر ، ومرة استطعت ان اقنع محررا ان ينشر لي مقالاً عن مسرحية ، ولكن كان واضحا ان ليست لي في هذا المجرى مواهب ، فقد قال المحرر عني انني افتقر الى الاحساس بالمسرح • فلو فشلت (ليدي فريدريك) لمـا كان لي سوى العـودة الى المستشفى استرجع فيه ما تعلمت ، ومن ثم اطلب وظيفة جراح على ظهر احدى السفن ، ومثل هذه الوظيفة لم تكن يومئذ مرموقة وقلما طلبها احد من خريجي جامعة لندن • الا انني بعد ان غدوت كاتب مسرحيات ناجحا كنت احضر افتتاح مسرحياتي شاحـذا حواسي لأستخلص مـن رد فعل الجمهور ما اذا كان هناك اي ضعف في قابليتي • كنت اسعى ان افقـد نفسي في الجمهور • والليلة الاولى في نظر الجمهور حدث ذو متعة قلت او كثرت ، يستمتعون بها بعد الوجبة الخفيفة في السابعة والنصف والعشاء في الحادية عشرة ، ولا يهم بعد ذلك ان كانت ناجحة او فاشلة • كنت احضر العروض الاولى لمسرحياتي كما لو كانت لغيري ، ومـع ذلك فقد كانت تجربة غير موفقة ، فالضحكات التي كانت تتعالى على اثر نكتة مضحكة ، او التصفيق المدوّى عند نزول الستار دليلا على الاستحسان ، لم تفدني في شيء • فالحقيقة انني حتى في أخف مسرحياتي كنت اسكب فيها الكثير من ذات نفسي بحيث كنت اشعر بالارتباك عند استماعي لها تتعرى امام انظار حشد من الناس ، فكلماتها التي كتبتها بنفسي كانت عزيزة عـلي ، لا احب اشراك غيري فيها • لقد لازمني هذا الشعور غير المنطقي حتى عند مشاهدتي احدى مسرحياتي المترجمة • جلست في القاعة كأي فرد غـير معروف ، والواقع ما كان لي ان احضر عرض مسرحياتي مطلقـا ، لا في الليالي الاولى ولا في غيرها ، لولا ضرورة معرفة تأثيرها في الجمهور لأتعلم كيف اكتبها •

Twitter: @ketab_n

٣١

نداء المسرح لا يقاوم • ولست اتكلم على الفتيات اللواتي يعتلين المسرح لان لهن وجها جميلا ، فلئن كان الجمال مهارة لأمكن قبولهن في الدوائر كاتبات على الآلة الكاتبة ، ولا انا اتحدث عن الفتيان الذين يفعلون فعلهن لمجرد ان لهم قواما متناسقا دون ان يكون لهم مؤهل خاص لأي عمل ، فهؤلاء واولئك يلتحقون بالمهنة اليوم ليتركوها غدا ، فالفتيات يتزوجن ، والفتيان يعملون عند تاجر خمور ، او يحترفون عمل الديكورات الداخلية • ولكني اقصد الممثلين الذين يمتهنون التمثيل استجابة لنداء داخلي ، فهؤلاء عندهم الموهبة الطبيعية وعندهم الرغبة في استعمالها • والتمثيل مهنة تتطلب كداً وجهداً لبلوغ الكفاية ، بحيث ان الممثل بعد ان يتعلم كيف يؤدي مختلف الادوار يكون في الاعم الاغلب قد تقدمت به السن حتى لم يعد قادرا على القيام الا بقليل من الادوار • انها تتطلب منه صبرا لا حد له وكثيرا ما يجابه خيبة الامل ، وعليه ان يتحمل فترات طويلة من الركود الاضطراري • والمكافآت قليلة وقصيرة الامد ، والربح غير كاف • انه تحت رحمة الحظ وعناية الجمهور القلّب ، الجمهور الذي سرعان ما ينساه ان لم يعد قادرا على ايناسه ، حتى وان كان معبود الجماهير ، ان حبهم له لن تنقذه من المسغبة • هذه الخاطرة هي التي كانت تحملني على ان انظر بعين التسامح الى غطرسة الممثل وزهوه ، والى نزواته وكبريائه وهو في اوج شهرته • فليكن متغطرسا او سخيفا كما يشاء ، فذلك كله لن يدوم طويلا ، ومع ذلك فان انانيته جزءاً من موهبته •

مضت على المسرح فترة كان فيها المدخل الى الرومانسية ، وكان المرتبطون به يثيرون المشاعر لما يحيط بهم من غموض • وفي الوسط المتمدن في القرن الثامن عشر كان الممثلون يسبغون مسحة من الخيال على الحياة • كانت حياتهم المضطربة مدعاة أغواء لخيال (عصر المنطق) ، وكانت أدوارهم البطولية التي يمثلونها والشعر الذي ينشدونه يضفي عليهم هالة من التقديس • ففي رائعة غوتة المنسية (ويلهلم مايستر) تلاحظ مقدار العطف والحنو الذين يمنحهما الشاعر لفرقة تمثيلية متنقلة ما كانت ترقى الى غير الدرجة الثانية مركزا • وفي القرن التاسع عشر كان الممثلون يمثلون مهربا من عصر الصناعة العبوس • كانت البوهيمية التي يوصف بها الممثلون تلهب أخيلة

Twitter: @ketab_n

الشبان الذين اجبرتهم ظـروف العيش على التكسب في المكاتب . كانوا المتهورين في عصر رصين ، وكانوا الطائشين في محيط رزين ، وكان الخيال يزيدهم سطوعا آسرا . في قصة فيكتور هوغو (شوسة فو) قطعة مؤثرة في فكاهتها اللا شعورية ، حيث يصف الرجل الصغير الحساس حفلة عشاء مع مسئلة وصفا فيه الرهبة والدهشة وحتى الحسد، لما شاهده من بذخ واسراف. فللسرة الاولى في حياته شعر ان الشيطان قد تقمصه . يالله ! هذه الشامبانيا تراق دون حساب . هذا الترف الباذخ . هذه الاواني الفضية ، وجـلود النمور ، المنتشرة هنا وهناك في شقتها ! .

لقد تلاشى هذا المجد ، وعاد المسئلون فاستكانوا الى ما لهم من احترام وعيش دارج . انه لمما يسيء اليهم ان نعتبرهم جنسا مختلفا ، وهم بذلوا جهدهم ليكونوا كغيرهم من الناس . كشفوا أنفسهم لنا بدون مساحيق وفي وضح النهار ، ودعونا لنشاهدهم عيانا وهم بين لاعب جولف ودافع ضرائب ومفكر ، رجالا ونساء . ولكن ذلك كله عندي لغو وهراء .

عرفت عددا من الممثلين معرفة تامة فوجدت فيهم حسن الصحبة . ان براعتهم في المحاكاة ، وابداعهم في رواية قصة ، وسرعة خاطرهم ، تجعل صحبتهم مسلية . انهم كرماء ، رحماء ، جريئون . ولكني لم استطع النظر اليهم باعتبارهم كائنات بشرية ، ولم أوفق في خلق علاقة صميمية معهم ، فهم كألغاز الكلمات المتقاطعة التي لا تجد في كلماتها ما يتفق والمعاني المذكورة. والحقيقة ، كما تبدو لي، ان شخصيتهم قد سبكت في الادوار التي يمثلونها، ذلك انها في الاساس غير متبلورة ، انها طرية ، طيعة ، لها قابلية اتخاذ شتى الاشكال وتقبل مختلف الاصباغ ، حتى قال كاتب بصراحة ساذجة انه ليس مما يدعو الى الدهشة انهم حرموا زمنا طويلا من ان يدفنوا في أرض مقدسة لانهم لا يمكن ان تكون لهم أرواح . وهذا اسراف في المبالغة لا شك فيه ، فهم في الواقع اناس شيقون . والقاص ان كان مخلصا لفنه فليس بوسعه الا ان يعترف بما بينه وبين الممثل من وشائج الصـلة والنسب ، فخلقـه كخلقهم ، مزاج ليس فيه ما يحمـد كثيرا ، فما هـم الا الشخوص التي يعكسونها ، وما هو الا الشخوص التي يخلقها . فالكاتب والممثل يمثلان عواطف لا يشعران بها بأي حال من الاحوال في لحظة العرض ، وهمـا يتجردان من جانب من ذاتيهما ليعرضاه ، إرضاءً لدافع الخلق والابداع

Twitter: @ketab_n

فيهما • واقعهما التظاهر والادعاء • والجمهور ، وهو المادة والحَكم في نفس الوقت ، ليس الا ضحيتهما المخدوعة • ولما كان واقعهما التظاهر والادعاء ، فانهما ينظران الى الواقع على انه تظاهر وادعاء كذلك •

٣٢

لقد بدأت الكتابة أول ما بدأت بالمسرحية ، كما يفعل أغلب الكتّاب الناشئين ، وذلك ، على ما أظن ، لأن ترديد ما يقوله الناس أقل صعوبة من كتابة قصة• قال الدكتور جونسن منذ زمن بعيد انه لأسهل كثيرا ان تصوغ الحوار من ان تصنع المغامرات • وبمراجعة دفتر ملاحظاتي للفترة ما بين الثامنة عشرة والعشرين ، حيث دونت مشاهد مسرحيات كانت تراود ذهني، وجدت ان الحوار كان على وجه العموم سهلا ومقبولا ، ومع ان نكاتها لم تعد تحملني على الابتسام ، الا انها قد كتبت بألفاظ كان الناس يستعملونها يومذاك • كنت اتقي التعبير الدارج بالغريزة ، ولكنها كانت نكات قليلة وقاسية • كانت مغازي مسرحياتي كئيبة تنتهي بالحزن واليأس والموت • في رحلتي الى فلورنسا أخذت معي (الاشباح) من باب اللهو ، لاني كنت معنيا بدراسة (دانتي) دراسة جادة ، وترجمته الى الانجليزية عن طبعة المانية ، لتعلم فن الترجمة• ومازلت أتذكر أنني كنت أرى (بوستر ماندرس) مملة على الرغم من اعجابي بابسن ، ويومها كانت مسرحية (مسز تانكري الثانية) تعرض على مسرح سنت جيمس •

وخلال السنتين أو الثلاث التالية كتبت عددا من المسرحيات وأرسلتها الى بعض مديري المسارح ما أعيد لي منها سوى واحدة أو اثنتين، ولما لم تكن لها نسخ أخرى فقد ضاعت ، أما الباقيات فقد أتلفتها ، أو أهملتها لاني لم اتلق تشجيعا عليها • في ذلك الحين ولفترة طويلة بعده ، كان الظرف أصعب بكثير على كتابة المسرحية مما هو الآن من حيث قبول مسرحية للعرض • كانت فترات العرض طويلة لضآلة المصاريف• وكانت هناك فرقة من المؤلفين، وعلى رأسهم (بينيرو Pinero) و(هنري أرثر جونس Henry Arthur Jones) يمدون المسارح الكبار بالمسرحيات كلما احتاجت هذه الى واحدة منها • كان المسرح الفرنسي مزدهرا والترجمة المهذبة منها الى الانجليزية شائعة •

Twitter: @ketab_n

واذ بدأ عرض مسرحية (اضراب في ارلينجفورد) لجورج مور في (المسرح المستقل) ، خطر لي ان فرصتي الوحيدة لتمثيل احدى مسرحياتي هي ان أنال الشهرة كروائي أولا • وهكذا تركت الدراما جانبا وهيـأت نفسي لكتابة الرواية • قد يظن القارىء ان هذا الاسلوب المدبر للعمل عند كاتب شاب ما هو الا ضرب من ضروب التجارة غير لائق • انه أقرب الى عقلية الامر الواقع منه الى ان يكون قوة عليا أرسلتها السماء لاغناء العالم بالاعمال الفنية • وبعد ان نشرت روايتين وأعـددت مجموعة من القصص للطبع ، كتبت أولى مسرحياتي الكاملة (رجل شريف) وبعثت بهـا الى (فوربس روبرتسـن Forbes-Robertson) الذي كان يومئذ ممثلا ذا شهرة ، معروفا بذوقه الفني ، ولكنه أعادها بعد ثلاثة شهور أو أربعة ، فأرسلتها الى (تشارلس فرومان Charles Frohman) فأعادها اليّ أيضا • وكنت في ذلك الحين قد نشرت روايتين أخريين حازت احداهما (مسز كرادوك) نجاحا كبيرا ، وأخذ الناس يرون فيّ روائيا جادا ينتظره مستقبل حسن • فأعدت كتابة التمثيلية المذكورة وأرسلتها الى (جمعية المسرح) فقبلت وأعجب بها (كورتني W.L. Courtney) عضو اللجنة ، حتى انه نشرها في مجلة (ذي فورتنايت رفيو) ولم يكن قد نشر قبلها سوى مسرحية (شبه الليل) لمسز كليفورد Mrs. Clifford) ، وكان ذلك شرفاً لي ايما شرف •

كانت جمعية المسرح المنظمة الوحيدة من نوعها ، لذلك كانت انتاجاتها تحظى بقدر كبير من العناية• وقد ناقش النقاد مسرحيتي جادين كما لوكانت قد عرضت في مسرح شهير • ونددبها نقاد مأجورون من أمثال (كليمنت سكوت Clement Scott) ، وقال ناقـد الصنداي تايمس ، وقـد نسيت اسمه ، انها لا تكشف عن موهبة خاصة تناسب المسرح • الا ان النقـاد المتأثرين بابسن قالوا عنها انها نتـاج يستحق الاهتمام والعناية ، وكانوا مؤيدين ومشجعين •

واعتقدت أني قد تقدمت خطوة الى الامام ، وان مسيرتي لن تصادف بعد ذلك عقبات شاقة • ولكني ما لبثت حتى أدركت انني ، فيما عدا تعلمي الكثير من فن كتابة المسرحيات ، لم أبلغ شأوا بعد ، وبعد عرضين اثنين ماتت المسرحية ، ولم يعرف اسمي الا عند القلة ممن كانوا يعنون بالتجربة المسرحية ، ولو أني كنت واثقا من انني كتبت مسرحيات مناسبة لما تأخرت

Twitter: @ketab_n

جمعية المسرح عن تمثيلها • الا ان ذلك لم يرضني • كنت قد تعرفت أثناء التمرينات على عدد من المعنيين بالجمعية ، أخص منهم بالذكر (جرانفيل باركر Granville Barker) الـذي أدى الدور الرئيسي في مسرحيتي • كان الجو في الجمعية ضدي ، متعاليا ، ضيقا • كان جرانفيل باركر ما يزال شابا، فقد كنت في الثامنة والعشرين ، وكان هو على ما أظن يصغرني بسنة واحدة• كان ذا سحر ومرح ، طروبا ، وكان ممتلئا بآراء الآخرين وأفكارهم، ولكني أحسست فيه خوفا من الحياة كان يحاول اخفاءه بازدراء العامة من الناس ، بل لم يكد يحترم شيئا الا ما ندر ، وكانت تعوزه الحيوية الروحية • كنت أرى ان على الفنان ان يكون أصلب وأنشط وأجرأ واقل ذكاء واقـوى عضلا • كان قد كتب تمثيلية بعنوان (زواج آن ليت) بدت لي متصنّعة ضعيفة • كنت أحب الحيـاة ، أريد الاستمتاع بها ، وان أنال منهـا كل ما يمكن ، فلم اكتف باستحسان جماعة صغيرة من المثقفين ، فقد كانت لي شكوكي في قدرهم ومنزلتهم ، ذلك أني حضرت مرة تمثيلية هزلية سخيفة كررت جمعية المسرح عرضها مرات لا تحصى ، فرأيت أعضاءها يختنقون ضحكا وقهقهة في كل مرة • لم أكن واثقا كل الثقة بعدم وجود كثير من التكلف فيما كانوا يظهرونه من الاهتمام بالدراما الرفيعة • ما كنت أريد مشاهدين كهؤلاء ، بل كنت أرغب في جمهور كبير • ثم اني كنت فقيرا ، ولم يكن في نيتي ان أعيش على كسرة من الخبز وأسكن غرفة على السطوح ان أمكنني تجنب ذلك • وجـدت المال كالحاسة السادسة التي لا يمكن بدونها الاستفادة من الحواس الخمس الاخرى •

وفيما كان الممثلون يجرون التمرينات على مسرحيتي (رجل شريف) لاحظت ان بعضا من مشاهد الغزل الهازلة كانت مبهجة ، فقررت ان بامكاني كتابة الملهاة أيضا ، وعزمت على البدء بكتابة واحدة فـورا ، واسميتها (أرغفة وسمك) • كان بطلها رجلا طموحا خبيرا بالحياة ، وكانت تحكي عن تودده الى أرملة ثرية ، وعن محاولاته الماكرة لبلوغ منصب أسقف ، وعن اقتناصه أخيرا لوريثة جميلة • فرفضها مديرو المسارح قائلين باستحالة تمثيل مسرحية تتخذ من مقام الاسقف مدعاة للهزء والسخرية • واتخذت قرارا بأن خير فرصة لي هي ان أكتب ملهاة تقوم ببطولتها ممثلة تأخذ هي على عاتقها أمر اقناع أحد المديرين بتجربتها• وسألت نفسي عن الدور الذي

Twitter: @ketab_n

يمكن ان يعجب ممثلة كبيرة • وبعد ان صممت على ما ينبغي لي ، كتبت (الليدي فريدريك) ، الا ان المشهد الرئيسي فيها ، ذلك المشهد الذي كان سبب نجاحها ، كان يتطلب من البطلة ، لكي تحرر حبيبها من أوهامه ، ان ندعه يدخل مخدعها ليشهدها دون مساحيق أو عطور ، منتفشة الشعر • لم تكن المساحيق عامة الانتشار يومذاك ، وكان معظم النسوة يلبسن الشعور المستعارة ، ولكن لم ترض ممثلة بالسماح للجمهور ان يراها وهي بتلك الحالة ، وهكذا فقد رفض التمثيلية مدير بعد مدير • فقررت أخيرا ان أبتدع تمثيلية لا يجد فيها أحد ما يعترض عليه ، فكتبت (مسز دوت)• الا ان مصيرها لم يكن بأفضل من مصير أخواتها ، فقد وجدها المديرون تافهة ، قائلين انها قليلة الحركة • واقترحت (مس ماري مور Miss Mary Moore)الممثلة المعروفة يومذاك ، ان أحشر فيها حادث سطو لجعلها مثيرة • وبدأت أعتقد بأني لن أكون قادرا على كتابة تمثيلية بحيث تعجب ممثلة شهيرة الى درجة الاصرار على تمثيلها ، فجربت قلمي في تمثيلية رجالية ، وكتبت (جاك سترو) •

كنت أتوهم أن النجاح البسيط الذي أحرزته مع جمعية المسرح سيحمل المدراء على الوقوف الى جانبي • ولشد ما أخزاني هذا الشعور فيما بعد ، اذ لم يكن الامر كما ظننت ، بل في الواقع ان علاقتي بهذه الجمعية ألحقت الضرر بي ، فقد رأت ان مسرحياتي تغلب عليها الكآبة وانها غير مربحة ، ومع انها لم تستطيع ان تصف تمثيلياتي الكوميدية بصفة الكآبة ، فانها قالت عنها انها لا تدخل السرور على النفس وانها ليست تجارية • كان علي ان أتخلى يائسا عن عرض مسرحياتي ، فقد ثبط من عزمي رفضها، ولكن من حسن الحظ ان (جولدينج برايت Golding Bright) قال انها مقبولة ، آخذا الامر في يده ، وراح يعرضها على مديري المسارح واحدا بعد واحد• وأخيرا في سنة ١٩٠٧ بعد أن أمضيت عشر سنوات كاملة في كتابة ست تمثيليات ، بدأ عرض (الليدي فريدريك) في (كورت ثييتر) • وبعد ثلاثة أشهر عرضت (مسز دوت) في (فودفيل) وفي حزيران قام (لويس والر Lewis Waller) بعرض (المكتشف) التي كنت قد كتبتها بعد (رجل شريف) مباشرة ، على مسرح (ليريك) ، وبهذا بلغت ما أردت •

Twitter: @ketab_n

٣٣

دام عرض المسرحيات الثلاث الاولى زمنا طويلا • أما (المكتشف) فلم تنل نجاحا كبيرا • ولم أنل من ذلك مـالا كثيراً ، ذلك ان واردات المسرحية يومذاك كانت أقل بكثير مما هي اليوم ، لذلك كان ريعي منها ضئيلا ، ولكنه أنقذني من مشاكل مالية وبدأ مستقبلي راسخا • ان مجرد عرض أربع تمثيليات لي في وقت واحد أتاني بالشهرة ، حتى ان (برنارد بارتريـج B. Partridge) رسم صورة كاريكاتيرية لمجلـة (بنج) تظهر وليام شكسبير يعض على أصبعه وهو واقف تجاه اللوحة التي تعلن عن مسرحياتي • أخذ لي الكثير من الصور وأجري معي العديد من المقابلات ، وأظهرت شخصيات مبرزة اهتماما بالتعرف اليّ ، فكان نجاحي مظاهرة غير متوقعة • كان شعوري بالراحة أكثر من شعوري بالاستثارة ، واحسب ذلك يعود الى انني قلما اندهش من شيء ، فأنا أتقبل أغرب المناظر وأعجب الظروف ، كالتي وقعت في رحلاتي ، وكأنها أمور متوقعة ، حتى أنني كنت أجبر نفسي على ملاحظة ما فيها من غرابة • لذلك رأيت في الصخب المحيط بي شيئا طبيعيا • في احدى الليالي وأنا أتعشى في النادي ، كان أحـد الاعضاء ـ ولم أكن قد تعرفت به بعد ـ يستضيف صـديقا له على مائدة مجاورة لمائدتي وكان ظاهرا أنهما ينويان مشاهدة احدى مسرحياتي ، اذ كـانا يتحدثان عني ، فقـال المضيف عني أنني عضـو في نفس النادي ، فسأله الضيف :

ـ ألم تتعرف عليه ؟ أظنه أشد ما يكون غرورا •

فقال صاحبه :

ـ نعم أعرفه جيدا ، ما أظنه واجدا قبعة تناسب رأسه •

لا شك أنه لم ينصفني ، فهذا النجـاح كان حقا لي • لقد سررت بالشهرة ، ولكني لم أتأثر بها • ورد الفعل الوحيد الذي أتذكره من تلك الحقبة هو الخاطرة التي خطرت لي وأنا ماش في شارع بانتون ذات مساء• فأثناء مروري بمسرح الكوميدي رفعت بصري فلاحظت السحب تضيؤها أشعة الشمس الغاربة ، فتوقفت لاستمتع بالمنظر الجميل ، وقلت في نفسي :

Twitter: @ketab_n

شكرا لله ، فأنا الآن أنظر الى الغروب دون ان أضطر الى التفكير في كيف أصفه ، فقد عزمت يومها على تكريس حياتي للدراما دون سواه .

وعلى الرغم من ان الجمهور قد تقبل مسرحياتي بحماس ، ليس في بريطانيا وأمريكا فحسب ، وانما في القارة الاوروبية أيضا ، فان رأي النقاد لم يكن متماثلا ، فقد أثنت صحف معروفة عليها من حيث ظرافتها ومرحها وأثرها المسرحي ، ولكنها عابت عليها الجانب الساخر فيها . ومن الناحية الاخرى كان نقاد أكثر جدية شديدي القسوة في نقدهم ، حتى أنهم قالوا عنها انها رخيصة وتافهة ، وقالوا اني قد بعت نفسي للشيطان . اما المثقفون الذين كنت فيهم عضوا متواضعا محترما فلم يلووا عني كشحا فحسب ، وان كان ذلك أمرا مشينا بحد ذاته ، وانما رموني على أم رأسي ، كأنني ابليس ، في نار لا قرار لهـا ، فأصابني شعور بالخزي والجفول ، ولكني تحملت عاري بجلد ، لاني كنت أعرف انها ليست نهاية القصة . كنت قـد رغبت في نهاية بعينها ، وكنت قد اتخذت ما اعتقدت انها الخطوات الكفيلة بايصالي اليها . فما كان لي ازاء اناس هم من الغباء بحيث لا يرون ذلك ، سوى ان أهز كتفيّ اغضاءاً . فلـو ثابرت على كتابة مسرحيات لاذعـة كمسرحية (رجل شريف) ، أو ساخرة مثل (أرغفة وسمك) لما أتيحت لي فرصة عرض مسرحيات أخرى معينة لم يملك حتى أقسى النقاد غير الثناء عليها . اتهمني بعض النقاد بأني انزل بكتاباتي الى مستوى العامة ، ولكني لم أفعل ذلك تماما . كانت لي يومئذ معنويات عالية ، وكان من اليسير علي كتابة الحوار الممتع ، ولي عين تلتقط المواقف المضحكة بجرأة مرحة ، بل لقد كان عندي أكثر من ذلك بكثير ، الا انني تركت كل ذلك جانبا مؤقتا ، وكتبت مسرحياتي الكوميدية بجوانب من نفسي كنت أراها أوصل لغرضي. كنت قد قصدت الى الامتاع ، وقد بلغت القصد .

لم يكن في نيتي ان أكتفي بذاك النجاح العارض ، فكتبت مسرحيتيّ التاليتين لتثبيت مكانتي بين الجمهور ، وكانتا أجرأ مما سبق . وعلى الرغم مما يبدو فيهما الآن من هدوء وجزالة فقد هوجمتا بحجة قـلة الاحتشام وعدم اللياقة ، غير ان احداهما (بينولوبه) كانت ولا شك ذات مسيزات ، ذلك انها عندما عرضت في برلين بعد ذلك بعشرين سنة لم ينقطع عرضها طوال موسم كامل .

Twitter: @ketab_n

كنت حينئذ قد تعلمت من أصول فن الدراما كل ما كان بمقدوري تعلمه ، ونلت سلسلة من النجاح المتواصل ، باستثناء مسرحية (المكتشف) التي فشلت في امتاع الجمهور لسبب كان واضحا عندي • فخطران الوقت قد حان لتجربة عمل يمتاز بجدية أكثر • كنت أريد ان اختبر قدرتي في معالجة مواضيع أعقد ، باجراء تجربة أو اثنتين من التجارب الفنية الصغيرة كنت أومن بتأثيرها المسرحي ، لمعرفة المدى الذي استطيع السير فيه مع الجمهور • فكتبت (الرجل العاشر) ثم (الاقطاعيون) • ثم عرضت(أرغفة وسمك) بعد ان ظلت ملقاة على مكتبي زهاء اثنتي عشرة سنة • كان نصيبها جميعا بين بين فشلا ونجاحا، ولم يخسر المديرون فيها شيئاولو انهم لم يربحوا كذلك • فمسرحية (أرغفة وسمك) لم تعرض طويلا بالنظر لان الجمهور يومذاك لم يكن يرتاح لمشاهدة رجل دين اضحوكة • كنت قد كتبت المسرحية بشيء من المبالغة ، فهي أقرب الى السخرية منها الى الهزل ، ولو ان فيها مشاهد مسلية • اما الاخريتين فقد اضاعتا المشيتين •فواحدة تصور حياة الريفيين الضيقة المحافظة، والاخرى تعرض لعالم المال والسياسة، وقد كان لي بعض المعرفة بكلتا الصورتين • كنت أدرك ان علي ان أجتذب الجمهور وأحركه وأمتعه ، فشددت على هذه الجوانب ، فكانتا لا هما بالواقعيتين تماما ولا هما بالدراميتين تماما ، وكان هذا التردد قاضيا ، فلم يرض عنهما الجمهور• ومنحت نفسي استراحة لمدة سنتين كتبت في نهايتهما (أرض الميعاد) التي تزاحم الجمهور لمشاهدتها لبضعة شهور حتى اندلاع الحرب • كنت بذلك قد انتجت عشر مسرحيات في مدى سبع سنوات ، وقد تجاهلني المثقفون الذين ذكرت أحكامهم فيما سبق ، ولكني كنت قد تثبَّت من تأييد الجمهور •

٣٤

خلال الحرب كنت أجد أحيانا متسعا من الفراغ كبير ، اذ ان عملي اليومي لم يكن يستغرق مني الا بعض اليوم ، وكانت كتابة التمثيليات وسيلة مناسبة لابعاد الانتباه عن النشاط الذي كنت منشغلا به ، ومن ثم ، عند اصابتي بالسل ، كان علي ان اضطجع في سريري طويلا ، كوسيلة ممتعة لقضاء الوقت ، فكتبت سلسلة من المسرحيات في تتابع سريع ، مبتدئا

Twitter: @ketab_n

بمسرحية (خيارنا) ومنتهيا بمسرحية (الزوجة الوفية) في ١٨٢٧ .

كانت أكثريتها كوميدية كتبت بالاسلوب الذي أزدهر في عهد عودة الملكية ، ذلك الاسلوب الذي تعهده كل من (جولد سميث Gold Smith) و (شريدان Sheridan) ، فغدت له شعبية ورواج حتى قيل ان فيه شيئا يستجيب له طبع الانجليزي . اما الذين لا يحبونه فيصفونه بأنه ملهاة مصطنعة ، ظانين ظن الحمقى ان في الصفة هذه ادانة له . انه دراما الحوار ، وليس دراما الحركة ، يتخذ من التهكم المتسامح وسيلة لمعالجة العالم المتقلب في اطباعه وحماقاته وشروره . انه مهذب وعاطفي أحيانا ، وذلك في طبع الانجليز ثابت . وهو غير واقعي بعض الشيء ، ولكنه لا يعظ وان استخلص العبرة أحيانا دون تقصد ، وكأنه يدعوك الى عدم الاكتراث للامر . عندما ذهب السيد فولتير ، ذو المشاغل الكثيرة ، لزيارة (كونجريف Congrève) ليتدارسا الدراما السائدة ، قال مستر كونجريف أنه سيد مهذب وليس كاتب دراما ، فرد عليه الزائر : « لو انك كنت مجرد سيد مهذب فحسب لما تجشمت عناء زيارتك » . لا شك ان مسيو فولتير كان من أسرع الناس بديهة في عصره ، ولكنه هنا لم يظهر شيئا من ذلك ، فملاحظة مستر كونجريف كانت عميقة جدا ، كشفت عن ادراكه كل الادراك ان أول موضوع كوميدي يخطر ببال المؤلف الكوميدي هو ذات المؤلف .

٣٥

يومئذ كنت قد كوّنت آراءاً معينة عن أمور عدة بشأن الدراما .

من ذلك ، أنني أدركت ان المسرحية النثرية ليست أكثر دراما من النشرات الصحفية . فالكاتب المسرحي والكاتب الصحفي حاجتهما الى مواهب معينة متشابهة : لفتة عين سريعة لالتقاط قصة جديدة تستحق السرد ، حيوية حركية ، اسلوب مشرق في الكتابة . والدرامي يحتاج بالاضافة الى ذلك موهبة خاصة ، ولست أدرى ان كان أحد قد اكتشف ماهية هذه الموهبة ، فهي ليست مما يمكن تعلمه ، وهي قد توجد دون تعلم أو ثقافة . انها ملكة تمكن المسرحي من وضع كلام يتجسد تحت الاضواء ليكون

Twitter: @ketab_n

قصة مجسمة شاخصة ، ان صح التعبير ، فتتحرك امام أنظار الجمهور • انها ملكة نادرة الوجود ، وهذا ما جعل الدرامي أغلا أجرا من غيره من الفنانين • والملكة المسرحية ليست تتعلق بالملكة الادبية ، فقد تحقق لنا ان معظم مشاهير الروائيين قد فشلوا فشلا مؤلما في محاولتهم كتابة المسرحية• انهـا ملكة تشبه مـا لبعضهم مـن قدرة على العزف على السمـاع ، وهي خلـو من أيـة أهمية روحية ، ولكنـك بدونها لـن تكون قادرا على كتـابة المسرحية ، مهمـا تكن أفـكارك عميقة ، ومراميك أصلية ، وشخوصك ذكية •

ما كتب عن فن كتابة المسرحية كثير ، قرأت معظمه بشغف • خير وسيلة لتعلم الاجادة في ذلك هي ان تشاهد مسرحية لك تمثل ، فذلك يعلمك كيف تكتب عبارات يسهل على الممثل قولهـا ، ولئن كانت لك الاذن الموسيقية فستتعلم كيف تحافظ على اتساق الايقاع في جملك دون ان تفقد تلقائية صدور الحوار عن المتحدثين • وهو يريك أي ألوان الكلام وأي ضروب المشاعر أبلغ أثرا • واني أرى ان سر اجادة كتابة المسرحية يمكن ان يلخص في مبدأين : لا تحد عن القصد ، واحذف ما استطعت • وأول هذين يتطلب فكرا منطقيا ، قل وجوده ، فالفكرة تجر وراءها الفكرة ، والمرء يلتذ بمتابعة ذلك وان لم يربطها بالموضوع رابط • والاستطراد طبع في البشر ، فعلى الدرامي تجنبها تجنب المتدين الآثم ، أو أشد ، فقد لا يكون الاثم مـن الكبائر ، ولكن الاستطراد مهلكة • الاساس هو مجرى التشويق ، وهذا مهم في الرواية أيضا ، ولو ان المجال هنا يسمح بحرية عمل أوسع • ومثلما يرى المثاليون ان الشـر يتحول الى خير تـام في المطلق ، فان ألوانا من الاستطراد تأخذ مكانها اللازم في نمو الغرض الرئيس للمسرحية (وخـير مثال على ذلك هو حياة الاخ الاكبر زوسيما في (الاخوة كارامازوف) • وأراني ملزما بتوضيح ما اعني بمجرى التشويق • انه الوسيلة التي بهـا يحملك المؤلف على ان ترى نفسك معلقا بمصائر اناس معينين تحت ظروف معينة ، فيشدك اليهم شدا حتى يصل بك الى الحل النهائي • فان هو سمح لك بأن تضل عـن القصد الرئيس فأغلب الظن انه لن يتاح لـه ان يأسر اهتمامك مرة اخرى • ان من طبيعة النفس الانسانية ان يكون اهتمامها بالاشخاص الذين يعرضهم المؤلف اول ما يعرض في مطلع مسرحيته اشد

Twitter: @ketab_n

ما يكون ، بحيث انها ان جلب انتباهها بعد ذلك الى اشخاص آخرين يدخلون المسرح متأخرين ، فستصاب بخيبة امل . فالدرامي المتمكن يعرض موضوعه في اقرب وقت ممكن ، واذا دعته ظروف ومؤثرات مسرحية الى تأخير اظهار شخوصه الرئيسية ، فحوار الممثلين عند رفع الستار يستجلب انتباه الجمهور الى اولئك الشخوص بحيث يكون تأخر ظهورهم مدعاة الى زيادة توقع بروزهم على المسرح . ولم يتقيد بهذا المبدأ احد بأدق مما تقيد به ذلك الدرامي القدير وليام شكسبير .

وصعوبة التشويق تجعل من العسير كتابة المسرحية التي تسمى مسرحية (الجو) . وخير المسرحيات من هذا الضرب هي التي كتبها (تشيخوف Chekhov) . وبما ان الاهتمام لا ينصب على شخصين اثنين او ثلاثة في المسرحية ، بل على مجموعة من الشخوص ، وبما ان الموضوع هو العلاقة فيما بين هؤلاء ومحيطهم ، فان على المؤلف ان يعنى بالحد من ميل الجمهور الطبيعي للتعلق بشخصية او باثنتين دون غيرهم ، الا ان توزيع الاهتمام على هذه الشاكلة قد لا يشعر المشاهد بحرارة ما ازاء أي من شخوص المسرحية . ولما كان على المؤلف ان يكون مدركا ان ليس في خيوط مسرحيته واحد اهم من آخر مما هو اجلب لانتباه المشاهدين ، فان كل حدث ينبغي ان ينتظم تحت لواء الفكرة الرئيسة . لذلك فان من اشق الامور الحيلولة دون شعور جمهور المشاهدين بنوع من الرتابة ، وخاصة اذا لم يفرض عليه حادث او شخصية فرضا . ولهذا فلا يستبعد ان يخرج الناس من المسرح حاملين معهم شعورا بارتباك داخلي . وقد لوحظ بالتجربة ان مسرحيات من هذا اللون لا تكون محتملة الا اذا بلغ التمثيل فيها درجة الكمال .

والآن الى المبدأ الثاني . على الدرامي ان يقتصر على ما هو جوهري للمسرحية ، فيحذف كل ما لا ضرورة له ، حتى وان كان هذا مشهدا رائعا او عبارة ذكية او فكرة عميقة . وفي هذا نفع له كذلك ان كان من رجال الادب ايضا . ينظر الدرامي النظري الى مجرد تمكنه من درج كلماته على الورق كأنه ضرب من ضروب الاعجاز ، وهو اذ يراها مسطورة ازاءه ، نابعة من تفكيره (ان لم يحسبها هابطة عليه من السماء) فانه يراها مقدسة لا تمس ، ولا يحتمل فكرة التضحية بواحدة منها . ما زلت اتذكر

Twitter: @ketab_n

(هنري ارثر جونس Henry Arther Jones) وهو يريني احدى مخطوطاته ، فدهشت عند ملاحظتي انه قد كتب جملة بسيطة مثل « أتريد السكر في الشاي ؟ » بثلاث صور مختلفات • فليس بمستغرب ممن لا تواتيهم الكلمات بيسر ان يغالوا في القول بأهميتها • اما الاديب فقد ألف الكتابة وتعلم كيف يعبر عما يريد بدون عناء ، ولذلك فهو قادر على الحذف بعزم وصرامة • ان من الطبيعي ان تخطر للكاتب احيانا فكرة رائعة او عبارة بارعة تعجبه ايما اعجاب بحيث يكون حذفها اقسى عليه من اقتلاع ضرس ، وعندئذ ينبغي له ان ينقش على قلبه هذا المبدأ نقشاً : احذف ما استطعت !

وضرورة ذلك اليوم أمضى وألزم ، ذلك ان جمهور المشاهدين أذكى واقل صبرا من أي وقت مضى في تاريخ المسرح • والمسرحيات تكتب بأسلوب او بآخر استجلابا لرضى الجمهور ، والظاهر ان المشاهدين قديما لم يتململوا في مجالسهم وهم ينظرون الى المشاهد الطويلة ، أو يستمعون الى الممثلين وهم يتحدثون عن انفسهم بكلام مطول • أما اليوم فالامر مختلف ، والاختلاف قد نشأ على ما ارى بميلاد السينما• والجمهور اليوم، وعلى الاخص في البلدان المتحدثة بالانجليزية ، بدأ يفهم مغزى مشهد من المشاهد فورا ، ومن ثم فهو يريد الانتقال الى ما يتلوه • انه يدرك خلاصة الكلام في كلمات ومن ثم تراه يشط بعيدا عن الموقف • فعلى المؤلف ان يكبح رغبته في استخلاص اقصى ما يمكن من احد المشاهدين ، او ان يترك شخوصه يعرّفون انفسهم بكلام كثير ، فالتلميح يكفي ، لانه سوف يصيب الهدف • وحواره ينبغي ان يكون اشبه بكلام مختزل • ان عليه ان يحذف ويحذف حتى يصل الى غاية التركيز •

٣٦

المسرحية حصيلة شركة تعاونية فيما بين المؤلف والممثلين وجمهور المشاهدين • وارى ان علينا اليوم ان نضيف المخرج • وسأقتصر الآن على الجمهور • ان جميع كتاب المسرحية كتبوا وعيونهم شاخصة الى الجمهور، وعلى الرغم من انهم احتقروه اكثر مما احسنوا به الظن ، فقد ادركوا انهم انما يعتمدون عليه ، فالجمهور هو الذي يدفع الثمن ، فان لم ترقه المتعة

Twitter: @ketab_n

المقدمة له ، اعرض عنها ، فلا مسرحية بدون مشاهدين • وتعريف المسرحية في الحقيقة ، هو انها القطعة المكتوبة بأسلوب الحوار ، يلقيه ممثلون ، ليسمعه عدد غير محدود من الناس • اما المسرحية المكتوبة للقراءة في المكتب فليست الا شكلا من اشكال الرواية الحوارية ارتأى كاتبها (لسبب ما يزال خافيا علينا) ألا ينتفع بمزايا الطريقة المألوفة في الرواية • وقد تكون للمسرحية التي لا تتطلب مشاهدين مزاياها ، ولكن اعتبارها مسرحية كاعتبار البغل حصانا (آسفا ! فاننا نحن المسرحيين ننجب احيانا بغل مقيت كهذا) • ان الذين لهم بعض ارتباطات بالمسرح يعرفون كيف يكون اثر الجمهور في المسرحيات • فالجمهور الصباحي قد يرى في المسرحية رأيا مختلفا عما يراه جمهور المساء • وقد سمعنا ان الجمهور النرويجي يرى في مسرحيات (ابسن) تمثيليات كوميدية تثير الضحك ، فيما لم ير الجمهور الانجليزي ما يضحك في تلك المسرحيات المزعجة • فعواطف الجمهور ، وميوله ، وضحكاته ، كلها جزء من حركة المسرحية ، فهو يخلقها خلقا مثلما نحن نخلق جمال الشروق وهدوء البحر من الادوات الموضوعية التي نستخدمها في رسم المناظر • فليس الجمهور اقل الممثلين شأنا في المسرحية ، فان لم يتح له القيام بدوره المخصص له فلسوف تتهاوى المسرحية مزعا متناثرة ، وعندئذ يكون مثل الدرامي مثل لاعب التنس الذي ينفرد على الملعب دونما قرين يلاعبه •

ثم ان الجمهور حيوان غريب ، فهو اقرب الى الدهاء منه الى الذكاء، وقابليته العقلية ككل اضعف من قابلية اذكى فرد فيه • فان صنفناه من الالف الى الياء ، متدرجين تنازلا في منح الدرجات حتى الصفر نمنحه لفتاة عاملة في متجر، لرأينا ان الجمهور يأتي ازاء الحرف الخامس عشر تسلسلا• وهو سريع التأثر بالايحاء • والافراد يضحكون لنادرة لم يسمعوها هم ، بل لانهم رأوا الذين سمعوها يضحكون • والجمهور عاطفي ، ولكنه لا يتقبل الا الرهافة التي تلائم طبعه ، ولذلك فالجمهور في انجلترا يتقبل عاطفة حب الوطن ، ولكن حب الطفل لأمه يستثير سخريته • وهو لا يبالي بالاحتمالات اذا اثار الظرف اهتمامه ، وتلك سجية استغلها شكسبير اوسع استغلال ، ولكنه يحرن عندما لا يرى الامر معقولا • فالفرد يدرك انه يستسلم لنزواته باستمرار ، في حين ان الجمهور يصر على ان يكون لكل

Twitter: @ketab_n

حركة سبب مقنع • اخلاقيته هي اخلاقية العامة ، فيستاء صادقا مما قد لا يرى فيه افراده اية اساءة • انه لا يفكر بعقله ، بل بأعصاب معدته • وهو سريع الملل ، يحب الجديد ، ولكنه الجديد الذي يتسق والافكار القديمة ، لأن ذلك يثيره ولا يرعبه • وهو يحب الفكرة اذا ما صيغت بشكل درامي، ولكنها مع ذلك ينبغي ان تكون من الافكار التي يتبناها هو ولكنه جبن عن التعبير عنها • فليس ينفع ان يهان الجمهور او ان يساء اليه • ان رغبته الرئيسية هي ألاّ ينتابه الشك في حقيقة الزيف الذي يراه •

والحقيقة ان جماهير المشاهدين لا تتغير ، ولكنها ، في فترات مختلفة او في بلدان مختلفة في فترة بعينها ، ترتفع الى مستويات مختلفة من الثقافة• والمسرح يصدر عن سلوك العصر وعاداته ويتأثر بها في نفس الوقت ، فان تغيرت هذه تلتها تغيرات صغرى في شكل التمثيلية ومضمونها • فاختراع الهاتف ، مثلا ، قد احال العديد من المشاهد لا لزوم له ، وزاد من سرعة حركة المسرحية ، ويسّر تجنب الامور غير المحتملة • والاحتمال عامل متغير • انه ليس سوى ما يتقبله الجمهور ، او ما هو مستعد لقبوله • وليس هناك في الاغلب تفسير لهذا ، فالناس قد يفقدون هنا او هناك بعض رسائل تعرضهم للفضيحة ، او قد تلقف آذانهم مصادفة امورا ليس لهم ان يسمعوها ، كما كانوا يفعلونها كثيرا في عصر اليزابث • انه العرف والعرف وحده هو الذي يرفض امثال هذه الحوادث باعتبارها غير محتملة • ولكن الاهم من هذا هو ان هناك تغيرا في القلوب قد حل فينا ، تبعا لتغيرات في المدينة حصلت • وعلى ذلك فان بعض المواضيع المفضلة عند كتاب المسرحية قد اسدل عليها ستار البطلان الآن ، فنحن اليوم اقل رغبة في الانتقام مما كنا ، لذلك فان مسرحية تتخذ الانتقام موضوعا لها لا تجد الكثير من المصفقين • ولعل ذلك يرجع الى ان انفعالاتنا اضعف اليوم ، او لعل تعاليم المسيح قد نفذت اخيرا الى ادمغتنا السميكة فغدونا نرى في الانتقام رذيلة • لقد تجرأت مرة فقلت ان تحرر المرأة وفوزها مؤخرا بحريتها الجنسية لشد ما غيرا نظرة الرجل الى اهمية العفة بحيث ان الغيرة لم تعد تصلح موضوعا لمأساة ، ولو انها بقيت في الملهاة • الا ان ملاحظتي هذه اثارت عاصفة من الغضب ، حتى اني لا اود التوسع في ذلك الآن •

Twitter: @ketab_n

٣٧

كان هذا التحليل البسيط لجمهور المشاهدين لازما لان معرفة طبيعته اهم للمسرحي من كل الاعراف والتقاليد التي يعمل ضمن اطارها . ان على كل فنان ان يسلم بتقاليد فنه ، وهذه قد تكون ذات طبيعة تجعل هذا الفن ثانويا . فمن تقاليد الشعر في القرن الثامن عشر رفض قبول الحماس ، وان الخيال كان ينبغي ان يكبح جماحه التعقل ، لذلك لم يكن ينشد سوى شعر من الدرجة الثانية . اما اليوم فالذهنية العامة للجمهور اضعف بكثير مما لافراده الاذكياء ، فكان لا بد للمؤلف ان يحسب حساب هذا العامل ، واني ارى ان ذلك يؤدي حتما الى وضع المسرحية النثرية في مركز ادنى . من الملاحظ ان المسرح متخلف ، فكريا ، ثلاثين سنة عن العصر ، فبسبب من افتقاره الى الفكرة لم يعد المثقفون يختلفون الى المسارح كثيرا . عندي انه عندما يبحث المثقفون عن الفكرة في المسرح ، يكونون اقل ذكاء مما هو المتوقع منهم . فالفكرة امر شخصي ، وهي تتاج التفكير المنطقي ، اعتمادا على قابلية الفرد العقلية وعلى ثقافته ، تنبعث من العقل الذي انجب بها الى العقل المستقبل لها ، فان كان لحم امريء سمّا لآخر ، فليس يستبعد ان تكون فكرة هذا حقيقة بديهية عند ذاك . غير ان الجمهور يتأثر بالايحاء الجمعي ، والايحاء الجمعي تستثيره العاطفة . لقد جازفت بالقول بأنك ان صنفت افراد جمهور ما بحسب الحروف الهجائية ، مبتدئا ، فلنقل ، بالناقد في صحيفة التايمس ، ومنتهيا ببائعة الحلوى في (توتنهام كورت رود) فان معدل قابليته العقلية سيقف عند الحرف (O). فكيف يتم لك ان تكتب مسرحية فيها من الافكار الرائعة ما يجعل ناقد التايمس ينتصب اعجابا في مقصورته ، وفي نفس الوقت يغري الفتاة بائعة الحلوى في الموقع الثاني بأن تنسى الشاب الذي يمسك بيدها؟ ان الافكار القادرة على التأثير فيهما وهما متلاحمين في وحدة الجمهور هي تلك الافكار الاساسية المألوفة القريبة الى العاطفة . انها اصل الشعر وجذوره ، انها الحب ، والموت ، ومصير الانسان . ولكنها افكار لا يوجد كاتب يستطيع ان يقول فيها شيئا لم يقله احد قبله الف مرة ، فالحقائق الكبرى اهم من ان تكون بنات يومها .

ثم ان الافكار ليست مما يستنبت في حقل ، وقليل من ابناء الجيل

Twitter: @ketab_n

يبتدع فكرة جديدة • انه لاحتمال بعيد ان يكون الدرامي المحظوظ الذي ولد ومعه ملكة تأليف ما يستحق العرض تحت اضواء المسرح مفكرا اصيلا ايضا • لن يكون دراميا من لم يتعامل مع الواقع الصلد • ان للدرامي عينا سريعة في التقاط المشاهد ، ولكن ليس هناك ما يدعونا الى ان نتوقع منه ان تكون له ملكة في التفكير ذات مفاهيم • قد تكون له عقلية المتأمل ، وقد يكون معنيا بأفكار عصره ، ولكن البون شاسع بين هذا وقوة الفكر الخلاقة • وقد يستحسن ان يكون كتاب المسرحية فلاسفة ، ولكن احتمال كونهم كذلك بعيد بعد الملوك عنها • ان كاتبين اثنين من كتاب المسرحية المعاصرين ظهرا كمفكرين ، وهما (ابسن) و (شو) ، وقد حالف الحظ كليهما عند بدء ظهورهما ، فظهور ابسن واكب حركة تحرير المرأة من حالتها الدنيا التي ناضلت طويلا للتحرر منها ، وعاصر شو تمرد الشبان على تقاليد العهد الفكتوري والقيود التي فرضها ذلك العهد عليهم • كان امامهما موضوع جديد يمكن عرضه على المسرح بشكل درامي مؤثر • وخصّ شو بما يفيد جميع كتاب المسرح من علو في المعنوية ، وحب للمرح ، وسرعة في الخاطر ، وخصب في ابتكار المواقف الكوميدية • اما ابسن فلم يكن حظه من قوة الابداع كبيرا ، كما نعلم ، فهو يكاد يكرر شخوصه وان استبدل بأسمائهم غيرها ، كما ان مثيراته قليلة التباين من مسرحية الى اخرى • وليس من باب المبالغة القول بأن مناورته الوحيدة هي ان غريبا يدخل على حين غرة غرفة مكتظة ويفتح الشبابيك ، فيصاب الحاضرون بزكام مميت ، وينتهي كل شيء نهاية محزنة • عندما تتمعن في المحتوى الفكري والعقلي لما كان هؤلاء المؤلفون يقدمونه ، لا يسعك الا ان ترى ــ ان لم تكن ضحل الثقافة ــ انه لا يزيدك علما بأكثر من ثقافة العصر السائدة • لقد عرض شو افكاره بكل جلاء ، وما كانت هذه لتثير الدهشة لولا الضعف الفكري لدى الجمهور • انها لم تعد تثير الدهشة الآن • والحقيقة ان الشبان يميلون اليوم الى اعتبارها تهريجا عفا عليه الزمن • والسيئة التي تلازم عرض الفكرة على المسرح هي انها اذا كانت معروفة فيستقبلها الجمهور ، وبذلك يكون هلاك المسرحية التي ساعدت على نشرها ، اذ ليس ادعى الى الملل في المسرح من ان يحملوك على الاستماع الى افكار تراها من الامور المسلّم بها • واليوم ، بعد ان آمن الجميع بحرية المرأة ، ليس بامكانك ان تشاهد (بيت الدمية) دون ان تفقد

Twitter: @ketab_n

زمام صبرك . ان كاتب مسرحيات الافكار يقامر ضد نفسه . والمسرحية قصيرة العمر على كل حال ، لأنها يجب ان تلبس لبوس العصر ، واللبوس دائم التغير ، فاقدا واقعيته الآنية ــ التي هي احدى ميزاته الجذابة ــ بعد فترة . فمما يرثى له اذا ان تقصّر في عمر المسرحية القصيرة باقامتها على افكار هي نفسها ستصبح باطلة بعد غد . ان قولي عن قصر حياة المسرحية لا يشمل المسرحية الشعرية ، فان اعظم الفنون وانبلها لقادر على منح الحياة لشريكته المتواضعة . ان كلامي ذاك كان على المسرحية النثرية ، فهي وحدها التي تشغل اليوم المسرح الحديث ، فلست اتذكر ان اية مسرحية نثرية متزنة عاشت لما بعد جيلها الذي ولدت فيه . هناك بضعة كوميديات قد عبرت بشكل ما زهاء قرنين من الزمن ، وهي تبعث اليوم لأن دورا شهيرا فيها يغري احد الممثلين ، او ان مديرا راغبا في بديل وقتي يرى ان يعرض مسرحية لا تكلفه دفع أي ثمن . انها مسرحيات متحفية ، والجمهور يبتسم من ظرافتها بأدب ، ومن سخريتها بارتباك ، ولكنها لا تنسيه نفسه ، لأنه لا يصدّقها ، لذلك فالمسرح لا يأسره .

قد يتساءل الدرامي انه اذا كانت المسرحية سريعة الزوال من حيث طبيعتها ، فلم لا يعتبر نفسه صحفيا رفيعا ممن يكتبون للمجلات الاسبوعية التي تباع بستة بنسات ، فينتج مسرحيات تعالج مواضيع الساعة من سياسية واجتماعية ؟ ان افكاره في هذه الحالة لن تكون اكثر اصالة مما يكتبه الشبان المجددون في هذه المجلات ، وليس هناك ما يدعو الى اعتباره اقل امتاعا . فليكن ، ولتنته حياة المسرحية بانتهاء مدة عرضها . ثم ماذا ؟ فالمسرحية ميتة على أي حال . والجواب عن هذا التساؤل هو انه ليس هناك من سبب مانع اطلاقا ، ان هو استطاع ان ينجو من تبعة ذلك ، وان هو وجده جديرا بعنائه ، ولكن ينبغي تحذيره من انه لن يحظى بالكثير من تقدير النقاد ، ذلك انهم على الرغم من تبجيلهم المسرحية الفكرية ، سيشمخون بأنوفهم اعراضا ان كانت تلك الافكار المعروضة مألوفة لديهم ، ظانين ، لما فيهم من تواضع ، ان ما هو مألوف لهم لا بد ان يكون مبتذلا . واذا كانت الافكار غير مألوفة فسيرونها مجرد هراء وسينهالون عليه بألف من قذائف الاحجار . وحتى (شو) المستثنى من القاعدة لم يسلم من هذا الحيص بيص .

Twitter: @ketab_n

هناك جمعيات تعرض مسرحيات يختص بمشاهدتها اولئك الذين يأنفون من الاختلاف الى المسارح التجارية ، وهذه الجمعيات في تضاؤل ، اذ لا سبيل الى اقناع الطبقة المثقفة ببسط رعايتها عليها ، واذا اقتنعت فهي تريد الدخول بالمجان • وهناك كتّاب مسرحيون يقتصرون في انتاجهم على ما يعرضونه في هذه الجمعيات دون المسارح العامة • انهم يحاولون ما لا يأتلف وطبيعة الدراما ، فهم عندما يجمعون نفرا في مسرح فسيكون هؤلاء هم الجمهور ، وعلى الرغم من ان معدل نضجهم العقلي سيكون ارفع من معدله عند الجمهور العادي ، فستتحكم فيهم نفس ردود الفعل التي تتحكم في الجمهور العادي ، فتتقاذفهم العاطفة دون المنطق ، يريدون الحركة دون النقاش (ولست اعني بالحركة طبعا مجرد الحركة الجسمية ، فقول الممثل « أشعر بصداع » يعتبر من حيث وجهة النظر المسرحية حركة مثل التزحلق على المسرح تماما) • فعندما تفشل التمثيليات التي يكتبها هؤلاء ، يزعمون ان الجمهور مفتقر الى حاسة التذوق والتقدير • لا اراهم في ذلك محقين ، فتمثيلياتهم تفشل لانها مفتقرة الى القيمة المسرحية • ومخطىء من يظن ان المسرحيات التجارية تنجح لكونها رديئة • قد تكون قصصها مطروقة ، وقد يكون الحوار مبتذلاً ، وقد يكون الشخوص عاديين ، ومع ذلك فانها تنجح لانها تملك الميزة الجوهرية ، بالرغم من تفاهتها ، فتشد الجمهور اليها شدا بالتشويق الدرامي • ولا اعني ان ذلك مقصور على المسرحية التجارية فحسب ، فأمامك (لوب دي فيكا Lope de Vega) وشكسبير وموليير •

٣٨

ما كان اسهابي في الكلام على المسرحية الفكرية الا لاعتقادي بأن الطلب الواقع عليها هو المسؤول عن التدهور المؤسف الذي أصاب مسرحنا ، فالنقاد يطالبون بها ملحّين ، والنقاد اليوم هم بالضرورة اسوأ من يحكم على المسرحية • لا شك ان المسرحية توجه الى الجمهور كوحدة، والتيار المعدي الذي يسري من فرد الى آخر يراه الدرامي جوهريا له ، فهو يعمل على استثارة عامل العدوى هذا ، فيحاول ان ينتزع الناس من انفسهم ليصبحوا آلة في يده يعزف عليها ، فيرتد منهم عليه عطاء الرجع

Twitter: @ketab_n

والروح والعاطفة ، وهذا المردود جزء من مسرحيته • ولكن الناقد يحضر العرض لا ليحس ، بل ليحكم ، فيلزمه ذلك ان ينأى بنفسه عن العدوى التي اسرت الجماعة ، وان يملك زمام نفسه ، وألا يسمح لقلبه ان يغلبه ، او لرأسه ان يدور بين كتفيه ، وعليه ألا يندمج مع الجمهور ، فهو لم يحضر ليؤدي دوره في المسرحية ، وانما ليراقبها من عل • لذلك فهو لا يرى المسرحية التي يرونها ، لأنه لم يشارك في تمثيلها كما شاركوا ، فمن الطبيعي اذن ان يطلب من المسرحية اشياء غير التي يطلبها الجمهور • ولكن لا داعي لأن ينال ما يريد ، فالمسرحيات لا تكتب للنقاد ، او لا ينبغي لها ، في الاقل • غير ان المسرحيين مخلوقات حساسة ، وعندما يطرق سمعهم بأن ما يكتبون اهانة للفكر الناضج يصيبهم الكرب والاسى ، انهم يودون لو قدموا الافضل ، فينصرف الشبان الطموحون منهم، الراكضون وراء سراب الشهرة ، الى كتابة المسرحيات ذوات الافكار • اما ان كان ذلك ممكنا ، واما ان كان مجلبة للشهرة ، فأمامهم المثل الذي ضربه برنارد شو ليريهم ذلك •

كان اثر شو على المسرح الانجليزي المعاصر مدمرا • لم يكن الجمهور دائما يحب مسرحياته بأكثر مما احب مسرحيات ابسن ، ولكنه بعد مشاهدتها لم يستسغ تلك التي كتبت وفق الاعراف القديمة • وظهر له اتباع اقتفوا اثره ، ولكن الواقع اثبت ان ذلك كان مستحيلا عليهم دون ان تكون لهم نفس الملكات • كان (جرانفيل باركر Granville Barker) من اكثر مريديه موهبة ، ويبدو من بعض مشاهد مسرحياته انه آمن بقدرته على ان يكون كاتب مسرحيات جيدا جدا • كان دراميا موهوبا ، له قابلية الكتابة الجزلة والحوار الطبيعي الممتع وبصيرة نافذة لانتقاء الشخوص المسرحية المؤثرة • وقد حمله تأثره بشو على العناية بأفكار كانت عادية بعض الشيء ، معتبرا عقليته المنطقية فضيلة من الفضائل • ولو لم يكن مقتنعا بغباء الجمهور الذي ينبغي ان يستأسد عليه لا ان يتزلف اليه ، لكان بمقدوره ان يصحح اخطاءه عن طريق التجربة والخطأ ، ومن ثم كان يمكن ان يضيف الى الدراما في وطنه عددا من المسرحيات على جانب عظيم من الابداع • اما الأقل شأنا من اتباع برنارد شو فما كان منهم الا ان كرروا اخطاءه • لقد نجح شو على المسرح ليس لكونه كاتب افكار ، بل

Twitter: @ketab_n

كان كاتبا دراميا ، الا انه لا يتقلد • انه مدين بأصالته الى مزاج ليس بمستغرب منه ، لم يجد من قبل تعبيرا له على المسرح • ان الانجليز ــ دع عنك ما كانوا عليه على عهد اليزابث ــ ليسوا ميالين الى الحب فطريا ، فالحب عندهم رقة شعور اكثر من كونه عاطفة عارمة ، ولو انهم بالطبع اسوياء جنسيا للحفاظ على النوع ، ولكن ليس بوسعهم ان يتحكموا في شعورهم الغريزي بالنفور من الاتصال الجنسي • انهم أميل الى اعتبار الحب لونا من الوان الود والحنو وليس ولعا مشبوبا • انهم يرمقون بعين الاعجاب التسامي في الحب ، ذلك الذي يصفه عظماء العشاق في الكتب المهذبة ، وينظرون في نفس الوقت باشمئزاز او بسخرية الى تعابير الحب المفضوحة • والانجليزية هي اللغة الحديثة الوحيدة التي رأت الا" مندوحة لها عن كلمة ذات معنى رخيص تستعيره من اللاتينية للدلالة على الرجل المفتون بزوجه ، فكانت كلمة الخنوع • فالرجل مأخوذاً بالحب لا خير فيه • اما في فرنسا فهم يحوطون من اذاب نفسه حبا بالمرأة بالعطف والاعجاب لأنهم يرونه يستحق ذلك ، ورجل ذاك شأنه يستشعر الزهو بما فعل ، ولكنه في انجلترا ، في نظر الناس وفي نظره هو ، احمق بحق وحقيق ، ولهذا فهم لم يستحسنوا مسرحية شكسبير (انطونيو وكليبطرا) كثيرا ، مستهجنين التخلي عن امبراطورية في سبيل امرأة ، ولو لم تكن مبنية على اساس من قصة معروفة لأجمعوا على انكارها وعدم التصديق بها •

والمشاهدون الذين كانوا يضطرون الى مشاهدة مسرحية يكون فيها الحب هو الحافز للمشكلة مع شعورهم غريزيا ان ليس له تلك الاهمية التي عناها الكاتب (فهناك السياسة ، والجولف ، وازدهار الاعمال ، وامور اخرى كثيرة) كانوا يحسون بالراحة عند عثورهم على كاتب مسرحي يرى الحب امرا ثانويا متعبا وسببا لمتعة وقتية تنسيهم بعض متاعب مالية مربكة في الأعم الأغلب • وعلى الرغم من ان ما يظهر على المسرح يتطلب المبالغة بعض الشيء (وعلينا ألا ننسى ان شو على قدر كبير من البراعة) فقد كان في هذا الموقف الكثير من الحق الذي يستلزم التوكيد ، فقد كان استجابة للتصلب (البيوريتاني) المتأصل في الجنس الانجلوسكسوني • ولكن اذا كان الانجليز غير ميالين للحب ، فان فيهم رقة الشعور والعاطفة ، واحساساً بأن ذلك ليس الحقيقة كلها • وعندما كرر كتّاب آخرون نفس الموقف ،

Twitter: @ketab_n

ليس لأنه كان تعبيرا طبيعيا عن الشخصية كما هي الحال مع شو ، بل لأنه كان مؤثرا جالبا للانتباه ، اصبحت غرابته واضحة • فالكاتب يصف لك عالمه الخاص ، فان راق لك وهبته اهتمامك ، وليس هناك ما يدعوك الى ان تضايق نفسك بوصف آخر مطروق من قبل • وليس من المناسب تكرار ما أجاد شو قوله •

٣٩

في رأيي ان الدراما قد اتخذت سبيلا خاطئا بتخليها عن الشعر الذي كان يزينها ، وذلك استجابة لمتطلبات الواقعية • فللشعر قيمة درامية لا تخفى ، والمرء تهتز مشاعره بمقطوعة مطولة من احدى مسرحيات راسين او من مسرحيات شكسبير العظيمة ، وهذا امر مستقل عن الحس ، انه قوة العاطفة الناشئة عن الكلام الموزون ، بل ان الشعر ، اكثر من ذلك ، يسبغ على المادة شكلا مألوفا يرفع من تأثيره الجمالي • انه يتيح للدراما ان تبلغ درجة من الجمال لا تتاح للمسرحية النثرية ، مهما يكن مبلغ اعجابك بمسرحيات مثل (البط البري) و (اهمية الجد) و (الرجل العادي والفائق) ، فانك لا تستطيع ان تصفها بالجمال دون تجن على معنى الكلمة• الا ان قيمة الشعر الرئيسية هي انها تخلّص المسرحية من الواقعية الجادة وتقيمها على مستوى آخر بعيد عن الحياة فيجعل من اليسير على المشاهدين ان يهيئوا انفسهم لتلك الحالة الشعورية التي ينفعلون فيها اعمق ما يكون الانفعال بنداء الدراما • وفي مثل هذا الوسط المخلّق لا تعرض الحياة عرضا حرفيا ، بل تعرض عرضا حرّا ، وهكذا يتاح لدرامي اوسع المجال لانفاذ اثره على قدر ما لفنه من طاقة ، فما عمل الدراما الاّ حملك على التصديق ، فهي لا تعالج الحقيقة بل الاثر ، ولا مندوحة لها عن ذلك الشعور الحائر من عدم التصديق الذي كتب عنه (كولريج Coleridge) • اهمية الحقيقة للدرامي هي انها تزيده فائدة ، ولكنها ليست بأكثر من احتمال قد يصدق وقد لا يصدق ، وهو يعمل على حمل مشاهديه على تصديقه ، فاذا صدّقوا بأنه يجوز للرجل ان يشك في اخلاص زوجه لأن احدهم اخبره انه رأى منديلها في حوزة شخص غريب ، فيها ، لأن ذلك يكفيه سببا لغيرته • واذا صدقوا ان عشاء يقدم على دفعات ست يمكن

Twitter: @ketab_n

تناوله في عشر دقائق ، فلا بأس ، وللدرامي ان يستمر في مسرحيته • ولكن عندما تطلب منه واقعية اعمق واوسع ، في الدافع وفي الحركة ، ويراد منه ألا يسبغ على الحياة شيئاً من التوشية الرومانسية ، وانما عليه ان يستنسخها استنساخا كما هي ، فانه يكون عندئذ قد جرد من اعظم منابعه ثرّا وفيضا ، ويكون قد اجبر على التخلي عن الحوار الذاتي ، لأن محادثة النفس بصوت مرتفع على المسرح ليست واقعية • وهو قد لا يجوز الحوادث ، مما يعطي تعجيلا لحركته ، ولكنه ينبغي ان يتعمد حدوثها كما تقع في الحياة الواقعية • ان عليه ان يتجنب المصادفة ، لاننا نعلم ان الامور لا تحدث كذلك (على المسرح) • وهكذا ندرك ان الواقعية كثيرا ما تنتج مسرحيات كئيبة مملة •

عندما تعلمت السينما الكلام ، عجزت المسرحية النثرية عن الدفاع عن نفسها ، فقد استطاعت السينما ان تعرض الحركة اقوى أثرا وتأثيرا ، والحركة جوهر الدراما • لقد خلقت الشاشة ذلك الجو المصطنع الذي سبق للشعر ان خلقه للدراما ، فأقامت مقياسا مختلفا للمحتمل ، واصبح اللامحتمل مقبولا ان عرض في الموقف الملائم • لقد اتاحت الشاشة الفرصة لكل اساليب الجدة والروعة في المناظر والتأثير الدرامي الامر الذي اثار الجمهور وهاجه • فكان على كاتب مسرحيات الافكار أن يضمد جراحه ، فالطبقة المثقفة التي كان يكتب لها ادارات له ظهرها وراحت تقهقه من الهزل الساخر ، وانجرفت مع مثيرات الصور المتحركة ومشاهدها • وكانت الحقيقة انها استسلمت بالطبع للجو الذي خسرته المسرحية واستكانت الى هدهدة التصديق الذي شدّ اليه جمهور مشاهدي مسرحيات (لوب دي فيجا) و شكسبير •

كنت دائما اتجنب القيام بدور المتنبىء ، تاركا للآخرين هداية اتباعي، غير اني لا يسعني الا ان اعلن عن اعتقادي بأن المسرحية النثرية ، التي وهبتها الكثير من حياتي ، سرعان ما ستموت • ان الفنون التي تستند على العرف والعادات الزمنية اكثر من استنادها على ضرورات البشر المكينة ، تظهر ثم تختفي • كانت الموسيقى الشعبية في وقت ما شائعة فيما بين الناس كوسيلة من وسائل التسلية ، واستثارت الشعراء لينظموا لها القصائد ، وخلقت مدرسة متمكنة لتخريج العازفين ، ولكنها اضمحلت وقضي عليها

Twitter: @ketab_n

بعد ابتداع آلات موسيقية كانت اقدر على بعث الأثر الغريب الذي كانت الموسيقى الشعبية تقصده • وليس هناك ما يمنع من ان يكون للمسرحية النثرية نفس المصير • قد يقال ان الشاشة تعجز عن بعث ذات الهزة العاطفية التي تثار فيك وانت ترى شخوصا احياء بلحمهم ودمهم يمثلون تجاهك • فمن الممكن ان يقال ايضا ان اوتارا وقطعة من خشب لا يمكن ان يستعاض عنها بصوت بشري أليف ــ لقد اثبتت الحوادث أن ذلك مستطاع •

هناك امر واحد يبدو وكأن لا ريب فيه ، ذلكم هو انه ان كان امام المسرحية أية فرصة للحياة فليست هي في محاولتها عرض ما تستطيع السينما عرضه خيرا منها • فالدراميون قد ساروا في طريق خاطىء عندما سعوا الى تقليد سرعة حركة الصور السينمائيــة وتنوعها بعرض حشد مــن المشاهد الصغيرة • لقد خطر لي ان من الحكمة ان يرجع الكاتب المسرحي عــودا على اصل الدراما الحديثة ، وان يستنجــد بالشعر والرقص والموسيــقى والمهرجانات بحيث انه يتوسل بكل وسيلة من وسائل التسلية ، ولكني ما زلت ارى انه حتى في هذا المجال فان السينما بمصادرها العظيمة قادرة على ان تؤدي خيرا من المسرح الناطق كل ما يستطيع هذا اداءه ، ولا شك ان مسرحية من هذا القبيل تتطلب مسرحيا شاعرا في نفس الوقت • ولعل افضل فرصة تبدو امام المسرحي الواقعي اليوم هي ان يشغل نفسه بما لم تنجح السينما حتى الآن في عرضه كل النجاح ــ ذلك هــو الدراما التي تكون حركتها داخلية اكثر منها خارجية ، ومعالجة الكوميديا ذات اللباقة والذكاء • فالشاشة تتطلب حركة جسيمة ، فلا تفيدها كثيرا الانفعالات التي لا يمكــن ترجمتها الى حركــة ، ولا النكتة العقلية • والظاهــر ان مسرحيات كهذه سيكون لها طلاب لفترة من الزمن •

وفيما يتعلق الامر بالكوميديا ، علينا ان نلاحظ ألاّ مسوغ لمطالبتها بالواقعيــة • الكوميديا شيء مصطنــع ، لذلك نجــد فيها مظهر النزوع للطبيعة فحسب ، لا حقيقتــه • علينا ان نستثير الضحك لــذات الضحك نفسه ، اذ ان الكاتب المسرحي لا يرمي هنا الى عرض الحياة كما هي ــ كالتراجيديا ــ بل انه يعلق على الحياة ساخرا منها بأسلوب فكه ، فلا يجوز ان نسمح للمشاهد ان يتساءل ان كانت امور كهذه تحدث فعلا في الحياة ، بل ينبغي له ان يكتفي بالضحــك • وعلى كاتب الكوميديا ان يــديم في

Twitter: @ketab_n

المشاهد حالة عدم التصديق • لذلك فان النقاد يخطئون عندما يعترضون على الكوميديا بقولهم انها « تنحط » أحيانا الى مستوى المسرحية الهزلية (Farce) ، فقد لوحظ بالتجربة استحالة شد الجمهور الى المسرح طيلة فصول ثلاثة لمسرحية كوميدية بحتة • والكوميديا ترمي الى جذب العقل الجماعي في الجمهور ، وهو سريع الكلل ، بينما الرواية الهزلية ترمي الى جذب ما هو اقوى وامتن في الجمهور ــ معدته الجماعية • ان اعظم كتاب الكوميديا ، مثل شكسبير وموليير وشو ، لم يحيدوا عنها الى الهزل ابدا • ان دم الحياة هو الذي يمكن جسم الكوميديا من العيش •

٤ •

هذه الافكار ، وهي تسبح في خاطري ، زادت شيئا فشيئا من عدم رضاي عن المسرح ، حتى وصل بي الامر اخيرا الى العزم على تركه • لم اعتد التعاون مع غيري برضاي ، وقد سبق ان نوهت بأن المسرحية تتاج الجهد التعاوني اكثر من أي لون من الوان الفن الاخرى • كان من الصعوبة بمكان ان اعمل مع زملائي منسجمين •

كثيرا ما قيل ان الممثل الجيد قادر على ان يستخلص من المسرحية اكثر مما وضع المؤلف فيها • وهذا بعيد عن الحق ، فالممثل الجيد اذ يضفي موهبته على الدور ، كثيرا ما يهبه القيمة التي خفيت على القاريء العادي ، ولكنه بأقصى امكانياته لا يستطيع ان يتجاوز النموذج المثالي الذي رآه المؤلف بعين بصيرته • والممثل ينبغي ان يكون بارعا ليستطيع القيام بذلك ، اذ انه يجب ان يرضي المؤلف مبدئيا على قدر تمكنه من مقاربة القيام بالدور الذي يتخيله المؤلف • وقد ساعدني الحظ في عدد من مسرحياتي بأن مثلت بعض فصولها وفق رغبتي ، ولكن ليس كلها ، ولا حتى مسرحية كاملة واحدة • وهذا مما لا مندوحة عنه ، فقد تجد ان الممثل المناسب لتمثيل دور بعينه مشغول بعمل آخر ، فلا يسعك الا ان تقبل بالثاني او الثالث ممن يلي الاول جودة والتسليم به • وفي السنوات الأخيرة ، كما يعلم جميع الذين يعنون بالممثلين وبالمسرح ، اشتد تنافس نيويورك والسينما في انجلترا وامريكا بحيث صعب الحصول على الممثل المناسب لدور معين ، وكثيرا ما يرى المدير نفسه مضطرا الى استخدام ممثل

Twitter: @ketab_n

عادي لاستحالة الحصول على غيره . والمشكلة الأخرى هي مشكلة المرتبات . فالدور القصير غالبا ما يتطب تمثيلا بارعا ، أي ممثلا ذا خبرة ، ولكن دورا كهذا ، من حيث وجهة النظر الادارية ، لا تستحق اكثر من اجر معين ، لذلك لا يرى ما يدعو الى استخدام ممثل باهظ الأجر ، وهكذا يتم تمثيل الدور دون اجادة ، فيختل اتزان تناسق المسرحية بأكمله ، وقد يحذف مشهد ذو اثر قيّم لكونه لم يمثل كما ينبغي. كذلك كثيرا ما يحدث ان يرفض الممثل اللائق تمثيل دور لأنه قصير جدا أو لأنه لا يتلاءم ومزاجه.

لست اريد من كل ما مر ذكره ان ابخس حق الممثلين البارزين او الممثلات الشهيرات ممن كان لهم اكبر الأثر في نجاح مسرحياتي ، فان افضالهم علي لكبيرة . وقائمة اسماء الذين حققوا جميع رغباتي طويلة جدا لا يسعني ذكرها دون املال ، الا ان هناك ممثلا واحدا اراني ملزما بذكره، ذلك لأنه لم يرق الى مركز النجوم لينال الشهرة التي يستحقها ، ذلكم هو (فرانس C.V. France) الذي ساهم في تمثيل عدد من مسرحياتي . لقد استطاع ان يتقمص الشخصية المرسومة في ذهني بأدق تفاصيلها . ان من الصعب ان نجد في المسرح الانجليزي ممثلا يبزه مهارة وذكاء وتعددا في القابليات . ومن جهة اخرى ، عرضت لي مسرحيات كنت واثقا ان الجمهور لم يشاهد فيها ما كنت اريده ان يشاهده. والاخطاء التي يقع فيها الممثلون ، وعلى الاخص المشاهير منهم ، لا يمكن تصحيحها في الأعم الأغلب ، فيكون من نصيب المؤلف ان يشعر بالخزي لحكم يصدر عليه نتيجة لخطأ ما قصد اليه . ليس هناك ما يسمى بأدوار مستعصية ، فالأدوار انما تكون مؤثرة ، والادوار ، المهمة منها في الاغلب ، تكون بعكس ذلك . والدور مهما يكن مؤثرا ، لن يفهم بوضوح الا اذا اجيد تمثيله اجادة تامة . ان أبعث نكتة على الضحك في العالم لا تكون كذلك الا اذا قيلت بالطريقة المناسبة، ومهما يكن مشهد ما رقيقا فلن يكون له تأثير يذكر اذا لم يؤد الدور برقة. ومن المآزق الاخرى التي يوقع الممثلون الكاتب فيها مأزق كثيرا ما تخفى ملاحظته ، وان عادة اختيار ممثلين يمثلون ذواتهم تجعل من العسير تجنب هذا المأزق . فالمؤلف يبتدع شخصية ، ثم يتم اختيار ممثل على اساس ان له المميزات التي عينّها الكاتب ، الا ان اضافة هذه المميزات على التي وضعها الكاتب في الشخصية لا تنتج غير مبالغة حمقاء ، وبهذا تتحول

Twitter: @ketab_n

الشخصية ، التي ارادها الكاتب معقولة وطبيعية ، الى شيء غريب بشع • كنت اسعى الى اعطاء الممثل دورا يخالف مزاجه ، ولا ادري ان كانت الفكرة ناجحة ، فالامر يحتاج الى قابلية تقمص اعلى مما لدى الممثلين المحدثين • ولعل خير طريقة تساعد الدرامي على مجادلة هذه المشكلة هي ان يذيّل الادوار بالشروح ، راسما خطوط شخصياته ، ومعتمدا على الممثلين في ملء الفراغ بمواهبهم الفردية ، وعليه في هذه الحالة اختيار الممثلين القادرين على ذلك •

فمبالغات من هذا النوع وممثلون غير مناسبين — وهي امور لا مندوحة عنها احيانا — تكفي بنفسها لتشتيت فكر المؤلف ، والذي يزيده المخرج تشتتا • عندما بدأت الكتابة للمسرح كان المخرجون اكثر تواضعا في عملهم مما هم عليه الآن • كانوا يومذاك يقتصرون على حذف ما اسهب فيه المؤلف ، ويموّهون بعبقريتهم اخطاءه في البناء ، وينظمون مواقف الممثلين ويساعدونهم على استخلاص خير ما في ادوارهم • اعتقد ان (رينهارد Reinhardt) كان اول من عيّن للمخرج دورا أهم في التعاون ، وحذا حذوه مخرجون لم يملكوا موهبته ، ومن ثم ظهر الزعم غير المعقول بأن ما يكتبه المؤلف ليس سوى مطية يستخدمها المخرج للتعبير عن افكاره هو • ولقد عرف عن بعض المخرجين انهم خالوا انفسهم كتّابا مسرحيين ، فقد اخبرني (جيرالد دو موريه Gerald du Maurier) الذي كان مخرجا مرموقا ، انه لم يكن يعنى باخراج مسرحية لم يسهم هو في كتابتها ، وهي حالة متطرفة ، ولكن اصبح من العسير العثور على مخرج يكتفي باخراج ما يكتبه المؤلف ، فكثيرا ما نجده ينظر الى المسرحية باعتبارها فرصته لكي يبتدع خلقا اصيلا ينسبه لنفسه • وستستولي الدهشة على الجمهور لو علم أن مرامي المؤلف قد مسخها تعنت المخرج وحماقته ، وكم من السخف والابتذال مما يلام عليها المؤلف ليس الا من عنديات المخرج • والمخرج له افكاره بالطبع ولكنها افكار معدودة ، وتلك هي الكارثة • انه لحسن ان تكون لك افكار ، ولكنها لا تكون مأمونة الجانب الا اذا كنت تحمل العديد منها بحيث انك لا تحمّلها ما ليس منها ولا ترى فيها اكثر مما تستحق • والذين يحملون افكارا محدودة العدد ليس من السهل عليهم ألا يسرفوا في تقديرها واحترامها • والمخرج الذي تخطر له تتف من حوار ،

Twitter: @ketab_n

او بعض من مؤثر مسرحي او عملي ، يهتم بها الاهتمام كله حتى انه يوقف العمل في المسرحية او يشوه معناها لكي يحشر فيها ما عنّ له • وكثيرا ما يكون المخرج فارغا ، مغترا بنفسه ، كليل الخيال يبلغ به الاستبداد احيانا درجة فرض اسلوبه وطريقة ادائه الخاصة على الممثلين ، والممثلون الذين يعرفون ما لكلمته من اثر في الحصول على دور وما في طاعته من نيل لرضاه ، لا يكون بوسعهم الا ان ينصاعوا لاوامره انصياع العبيد ، مجردين بذلك انفسهم من العفوية في الاداء• افضل ما يكون المخرج عندما يقوم بأقل ما يمكن من عمل • لقد اسعدني الحظ بين حين وآخر فأتاح لي مخرجين كانوا مخلصين في تقديم امكاناتهم لاخراج مسرحياتي وتحقيق جميع رغباتي • ومع ذلك انه لمن الصعب جدا الدخول الى عقول الآخرين ، فأشد المخرجين تعاطفا لا يكاد يقدر على اكثر من مجرد التنويه بمغازي المؤلف • انه يعطي المشاهدين ما يرغبون اكثر من رغبتهم فيما قصد اليه المؤلف ، وليس هذا مما يخدم غرض المؤلف •

وعلاج هذا ، بالطبع ، هو ان يقوم المؤلف باخراج مسرحيته بنفسه ، وليس هذا بمستطاع ، الا اذا كان هو نفسه ممثلا • فليس يكفي ان ترشد الممثل الى نغمة صوت او ان حركة ما غلط ، اذ ان عليك ان تريه الصحيح بالقول وبالفعل • واليوم تزداد الحاجة الى هذا لأن ممثلي الادوار الثانوية تعوزهم الخبرة في الاداء الجيد • كان (جيرالد دو موريه) كثيرا ما يقوم بذلك بتقليد حركة الممثل بأسلوب كاريكاتوري ساخر ، كاشفا ما فيها من خطأ الحركة ، ثم يريه كيف يجب ان تؤدي • وما كان هذا بمقدوره لو لم يكن بارعا في المحاكاة والتمثيل• الا ان هذا جانب قليل الاهمية ، فالاخراج عملية معقدة • انها مهنة ، او ان شئت فهي فن خاص ينبغي بذل الجهد والعناء لتعلمه ، فالمخرج يتعامل مع ميكانيكية المسرحية ، مع المداخل والمخارج ، مع مواقف كل شخصية ، بحيث تكون في مجموعها متسقة وموقوتة ، تجلب انتباه الجمهور بسهولة وفي الوقت المناسب • وهو يأخذ بنظر الاعتبار نزوات الممثلين الفردية ، ليستطيع التغلب بكل حيلة على الصعوبة التي تنشأ عن قيام ممثل بما ليس في طاقته ، كما انه لا ينسى مزايا الممثلين على العموم ، فالممثل الانجليزي لا يستطيع ان يستمر في القاء الكلام لأكثر من عشرين سطرا دون ان يحس بالخجل ، فعلى المخرج ان

Twitter: @ketab_n

يستنبط الوسائل للتغلب على ذلك • وهو ايضا يستميل اهتمام الجمهور الى النقاط الرئيسية في المسرحية، ويغريهم بلباقة على تقبل المقاطع التفسيرية الباردة عادة ، وكذلك الفواصل والمداخل الى الحوادث العرضية الدرامية ممـا لا تخلو منها مسرحية • وهـو يحسب حساب سرعة شرود ذهـن الجمهور فيبتدع (عملا) يشد اليه انتباههم عند النقطة الحرجة • وهـو يحسب حساب حساسية الممثلين وغيرتهم وغرورهم ، ولا يسمح للأنانية الطبيعية بالاخلال بتوازن المسرحية ، ويعنى بأن يعطي لكـل دور قيمته المناسبة حتى لا يقوم ممثل بتعظيم دوره على حساب ادوار الآخرين • وهو الذي يقرر متى يكون الاسراع ، والتباطوء ، والتوكيد ، والاغفال ، ومتى يعطي التمثيل قوة ، ومتى يقلل منها • وهو الذي يعد المسرح ، وينتخب الملابس لتلائـم الادوار ، ويراقب الممثلات اللواتي يصررن عـلى ارتداء ملابس جميلة وان لم تكن مناسبة ، وهـو الذي يعنى بالاضاءة ايضا • فالاخراج عمل او فن يتطلب معرفة تكنية غاية في التعقيـد ، الى جانب الحاجة الى الحصانـة والصبر والخلق الرفيع والشـدة والمرونة • كنت شخصيا اعرف انني افتقر الى المعلومات وبعض الملكات اللازمة لاخراج مسرحية • وكنت بالاضافة الى ذلك تعوقني اللعثمة ، وكذلك الحظ العاثر الذي يجعلني افقد جل اهتمامي بالمسرحية حالما انتهي من كتابتها واجراء التصحيحات الطباعية عليها • كنت اشعر بالفضول كيما ارى كيف تمثل ، ولكني ما ان ادفع بها الى الآخرين حتى لا اعود اراها تخصني ، كالكلبة اذ تعاف صغارها بعد ان يلمسها الآخرون • كثيرا ما كنت ألام لخضوعي السهل للمخرجين وقبولي اراءهم المعارضة لآرائي • في الواقع كنت دائما ارى ان الآخرين يفضلونني معرفة • كنت اكره المشاجرة ما لم اكن منفعلا، وقلما اكون ، واخيرا ، ما كنت ابالي كثيرا بالامر • والذي زاد في نفوري من المسرح لم يكن ضعف كفاية المخرجين ، وانما لكونهم لا مندوحة عنهم اطلاقا •

٤١

والآن الى جمهور المشاهدين • لا شك انه من الفظاظة ان اعرب عن غير الامتنان للجمهور الذي ان لم يمنحني الشهرة فقد منحني ، في الاقل ،

Twitter: @ketab_n

السمعة وثروة هيأت لي العيش على الاسلوب الذي عاش عليه ابي من قبل . لقد اتيح لي ان اسافر كثيرا ، وان اعيش في بيت فسيح المسكن ، مطلّ على البحر في منطقة هادئة بعيدة عن المساكن الاخرى ، يتوسط حديقة غناء . كنت دائم الاعتقاد بأن الحياة اقصر من ان يقوم المرء بما يريد بنفسه ما دام هناك من يستطيع ان يقوم له به لقاء اجر ، وكنت على درجة من الثراء تتيح لي ان اوفر لنفسي من الترف ما لا يستطيع ان يوفره لي احد غيري . وقد تيسر لي ان ارفه عن اصدقائي وان اساعد الذين احببت مساعدتهم . هذا كله انا مدين به الى رعاية الجمهور . وعلى الرغم من ذلك فقد وجدتني ينفد صبري مع ذلك القسم من الجمهور الذي يؤلف مرتادي المسارح . سبق ان ذكرت حقيقة كوني كنت في البداية اشعر بالارتباك لدى مشاهدتي تمثيل احدى مسرحياتي ، وكنت انتظر ان يضعف شعوري هذا مع كل مسرحية جديدة ، ولكنه ازداد ، حتى اصبح شعوري بأن جمهورا من الناس يقوم بمشاهدة مسرحياتي ضربا من الرعب البغيض، بحيث كنت اتجنب المرور بالمسارح اثناء عرضها لاحدى مسرحياتي .

كنت قد وصلت منذ زمن طويل الى النتيجة القائلة بألا معنى للمسرحية غير الناجحة ، وقد اعتقدت بأني اعرف كل المعرفة كيف اكتب مسرحية ناجحة ، واني اعرف ، ان صح القول ، ما اتوقعه من الجمهور ، فبغير عونهم ما كنت استطيع شيئا ، وكنت اعلم المدى الذي يمكن ان يبلغه عونهم . وهذا ما لم يرضني ، فعلى الدرامي ان يشارك المشاهدين فيما ينشغلون به . وعند (لوب دي فيكا) وشكسبير امثلة تؤيد ذلك ، وهو ، على احسن الفروض ، لا يستطيع سوى ان يعبر بالكلمات عما جبن الجمهور او تكاسل عن التعبير عنه وانما اكتفى بمجرد الشعور به . لقد اتبعني اعطاء الجمهور أنصاف الحقائق لكونها هي كل ما كان مستعدا لأخذه . واتعبتني تلك الحماقة التي تسمح بذكر كل الوان الحقائق في الاحاديث اليومية ثم تستنكرها على المسرح . واتعبتني ضرورة قولبة الموضوع وفق قالب معين والاطالة فيه اطالة لا لزوم لها لأن المسرحية يجب ان تكون بطول معين حتى تجتذب الجمهور . ولقد اضجرني السعي الحثيث لئلا اكون مضجرا . والحقيقة اني لم اعد ارغب في مجاراة التقاليد اللازمة للدراما . لقد شككت في كوني بعيدا عن ذوق الجمهور ، فللتأكد

Twitter: @ketab_n

من ذلك رحت اشاهد عـددا من المسرحيات التي كانت حـديث الناس ، فوجدتها مملة ،لم تضحكني النكات التي كانت تضحك الجمهور المبتهج ، والمشاهد التي كانت تهزهم فتفيض اعينهم بالدمع تركتني صخرة باردة • وحدد هذا موقفي •

راعتني حرية الرواية وسرني ان اتخيل القارىء المنفرد الراغب في الاستماع الى كل ما عندي من قول ، والذي استطيع ان اكون معه على درجة من الألفة لم احلم بها في بهرجة المسرح المزدحم • لقد عرفت عددا من المسرحيين الذين عاشـوا ليشهدوا افولهم فكانوا يثيرون الرثـاء في محاولاتهم اعادة كتابة مسرحياتهم مرات ومرات دون ان يخطر لهم ان الزمن قد تغير • ورأيت غيرهم يسعون جاهدين لاصطياد روح العصر ، ثم انتابهم الفزع اذ جوبهت مساعيهم بالهزء والسخرية • رأيت كذلك كتّابا مشاهير يعاملون بازدراء عند عرضهم مسرحية على مديري مسارح سبق ان تهافتوا عليهم للفوز بمسرحياتهم ، وسمعت تعليقات الممثلين المحتقرة لهم ، فشهدتهم وهم يستولي عليهم الذهول والذعر والمرارة لادراكهم اخيرا ان الجمهور قد ملّهم • سمعت (آرثر بينرو Arthur Pinero) و (هنري آرثر جونس Henry Arthur Jones) وكلاهما من مشاهير زمانهم ، يقولان لي بتعبير واحد ، الاول بسخرية حزينة والآخر بسخط حائر « انهم لا يريدونني ! » وارتأيت ان اترك الميدان انا الآخر ما دام الذهاب في الوقت المناسب افضل•

٤٢

لكن عددا من المسرحيات كانت ما تزال تدور في رأسي ، منها اثنتان او ثلاثة كانت مجرد مخططات ، او اكثر قليلا ، وجدتني راغبا في اهمالها ، الا ان اربع مسرحيات كانت جاهزة في ذهني لا يعوزها سوى ان اسطرها على الورق ، وكنت اعرف من نفسي انها ستظل تقلقني حتى ادوّنها ، فقـد بقيت أفكر فيها سنوات قبل ذلك ، وان لم أقم بشيء ازاءها لاني ما كنت اظنها ستكون ممتعة • لست أحب ان أكون سببا في خسارة أحد من مديري المسارح ، وذلك يعود ، على ما أعتقد ، الى طبيعتي البرجوازية • وعلى العموم لم يخسر أحد شيئا • من المعروف ان من كل أربع مسرحيات تكون

Twitter: @ketab_n

واحدة مربحة للادارة ، ولكني لا ابالغ ان قلت ان النسبة في مسرحياتي كانت أربعة الى واحد • فكتبت المسرحيات الاربع بترتيب منتهيا بأقلها نجاحا حسب ظني ، فما كنت أريد ان أقضي على سمعتي عند الجمهور قبل ان انتهي منه • أدهشتني الاثنتان الاوليتان لما لقيتاه من نجاح كبير ، أما الاخيرتان فقد كان نجاحهما أقل ، كما توقعت ، واني متحدث عن واحدة منها فحسب ، وهي مسرحية (اللهب المقدس) ذلك اني قمت فيها بتجربة قد يرى بعض قراء هذا الكتاب انها تستحق صرف بضع دقائق للتأمل• حاولت في هذه المسرحية ان استعمل حوارا أكثر منهجية مما سبق ان اعتدت عليه• كنت قد كتبت مسرحيتي المطولة الاولى سنة ١٨٩٨ والاخيرة سنة ١٩٣٣ • وقد لاحظت يومئذ ان الحوار قد تحول من فخامة (بينرو) اللفظية وحذلقته الكلامية ، ومن تنميق (اسكار وايلد Oscar Wilde) المصطنع، الى الاسراف في العامية الدارجة • لقد جر السعي وراء الواقعية كتابة المسرحية الى الطبيعية فراحوا موغلين فيه ايغالا بذلك الاسلوب الذي استغله الى أبعد الحدود ، كما نعرف ، (نوئيل كوارد Noel Coward) ، فلم يبعد به ذلك عن الادب فحسب، بل جره الى بذل الجهد سعيا وراء (الفعلية) حتى أهملت قواعد النحو وصيغة الجمل مكسرة ، باعتبار ان الناس في كلامهم لا يقيمون وزنا لقواعد النحو ولا بتركيب الجمل ، ولم يسمح الا باستعمال المفردات البسيطة المألوفة ، واضيف الى هذا التلويح باليدين وهز الكتف والكشر • وبهذا الخضوع (للمودة) اوجد المسرحيون عقبات خطيرة في طريقهم • فهذا الكلام المكسر العامي المختزل ليس الا لغة طبقة معينة ، لغة الشباب المترف السيء التثقيف الذي تصفه الصحف بأنه الطبقة الذكية ، وهي الطبقة التي تظهر في عمود «كلام الناس» وعلى صفحات المجلات المصورة • قد يكون حقا ان الانجليزي معقود اللسان ، ولكني لا أظنه كذلك بالدرجة التي يريدوننا ان نظن ، فهناك الكثير جدا من الناس ومن مختلف الطبقات ومن النساء المثقفات يلبسون أفكارهم لبوس اللغة المنتقاة والكلمة المناسبة دون لحن ، يفصحون بها عما يريدون باسلوب منتظم واضح • ان الاتجاه السائد اليوم والذي يجعل قاضيا أو طبيبا بارزا ان يعبر عن نفسه بكلام غير واف كندل في مشرب ، انما هو تشويه صارخ للحقيقة • لقد ضيق ذلك نطاق الشخصية التي يمكن ان يعالجها المسرحي ، ذلك ان هذه المعالجة لا تكون الا بطريق الكلام ، فيستحيل تصوير الناس بما فيهم من رجاحة

Twitter: @ketab_n

في عقل أو تعقيد في عاطفة بحوار ليس سوى بعض كلام هيروغليفي ، فيدفع المسرحي دفعا غير معقول الى اختيار شخوص يتكلمون بما يظن جمهوره انه هو الكلام الطبيعي ، ومن المحتم ان يكون هـؤلاء شخوصا بسطاء واضحة خباياهم ، فحدد ذلك مراميه لصعوبة معالجة المشاكل الاساسية في حياة الانسان استحالة تحليل عقـد الطبيعة البشرية (وكلاهما موضوعان مسرحيان) وانت تقصر نفسك على الحوار الطبيعي. وهذا ما وأد الكوميديا التي تعتمد على البراعة اللفظية المعتمدة بدورها على الصياغـة المحبوكة للجمل . وهكذا دق مسمار آخر في نعش المسرحية النثرية .

ارتأيت يومها الا أجعل شخوصي في (اللهب المقدس) ينطقون بمـا ينتظر منهم فعلا ، بل اجعلهم يتكلمون بأسلوب منهجي ، مستعملين عبارات كانوا سيستعملونها لو انهم اتيـح لهم ان يهيئوها مسبقا وعرفـوا كيف يسبكون ما يريدون قوله في لغة دقيقة منتقاة . ولعلني لم أفلح كما ينبغي، فأثناء التمارين لاحظت ان الممثلين ، وهم لم يألفوا كلاما من هذا اللون ، يتململون قلقا ، لانهم يرون انهم يلقون خطبة كان ينبغي عليّ ان أبسّط من ألفاظها وان اجزىء في جملها . ووجد النقاد الكثير مما ينتقدونني عليه ، وعاب عليّ بعض الاوساط حواري لانـه (ادبي) ، وقالـوا ان الناس لا يتكلمون كذلك . كنت اعلم هذا طبعا ، ولكني لم اصرّ ، فقـد كنت كالمستأجر دارا أوشكت مدتها على الانقضاء فمـا عادت تستحق الترميم والتجميل . وعدت الى الحوار (الطبيعي) في مسرحيتيّ الاخيرتين .

واذ تكون قد أمضيت اياما وأنت تجتاز ممرا جبليا ، سيأتي عليك حين تكون واثقا فيه من انك ما ان تلفّ حول الصخرة الضخمة امامـك حتى تقع على السهل المنبسط . غـير انك عوضا عن ذلك تجدك وقـد واجهتك صخرة هائلة اخرى ، وهكذا يستمر العناء المضني مع الأمل بأن السهل يمتد حتما خلف الصخرة التالية . كلا ، اذ الممر ينثني صعدا الى جبل آخر يسد في وجهك الطريق . وفجـأة ترى السهل منبسطا امامك ، فتسارع ضربات قلبك ازاء الارض الفسيحة المشمسة ، وتحس بثقل الجبال قد انزاح عن كاهلك ، فترفع خياشيمك تستنشق مزيدا من الهواء الطلق ، ويخامرك احساس رائع بالحرية . هكذا كان احساسي بعد انتهائي مـن آخر مسرحياتي .

Twitter: @ketab_n

ما كنت اعلم ان كنت قد تحررت من ربقة المسرح نهائيا ، فالمؤلف عبد لما أنا مضطر الى أن أدعوه بالالهام لعجزي عن العثور على كلمة أكثر تواضعا • لم أكن واثقا من انني لن يعنّ لي يوما موضوع اضطر معه الى عرضه بشكل مسرحية ، ولو انني أملت الاّ يحدث ذلك ، فقد استولت علي فكرة لا اتوقع من القارىء الا ان يظنها حماقة مغرور • كنت املك كل الخبرات التي يمكن ان يمنحها المسرح ، وكان لي من المال ما يمكنني من ان احيا الحياة التي تعجبني وان اعنى بما له حق علي • كنت قد فزت بسمعة كبيرة ، وربما شهرة عابرة ايضا • كان علي ان اقنع بذاك ، الا ان امرا واحدا كنت اريد تحقيقه ، وهو ما بدا لي غير ممكن عن طريق المسرح، ذلكم هو الكمال • لم اكن اقصد مسرحياتي بالذات فقد كنت اعلم بمثالبها من غيري ، وانما المسرحيات التي وصلتنا عبر الماضي ، فحتى ارفعها شأوا لم يخل من نقائص خطيرة ، وان كان عليك ان تجد لها العذر معتبرا مفاهيم عصرها وحالة المسرح الذي كتبت له • اما التراجيديا الاغريقية العظيمة ، فلبعدها الزمني عنا ولتصويرها حضارة شديدة الغرابة علينا ، فليس بالامكان الحكم عليها حكما لا • وربما تكون (انتيغوني) قد قاربت الكمال • اما في الدراما الحديثة فليس اقرب الى ذلك من (راسين) ، ولكن بأي ثمن ! فتلك قطعة فنية رائعة نحتها راسين بمهارة فائقة • والحب الاعمى هو وحده الذي يحول دون رؤية المثالب الكبرى في مسرحيات شكسبير واحيانا في سلوك شخوصه • وهذا مفهوم ما دمنا نعلم انه قد ضحى بكل شيء في سبيل الحفاظ على موقف مؤثر • كل هذه المسرحيات قد نظمت في شعر لا يبلى على الزمن • لكنك اذ تلتفت الى الدراما النثرية باحثا فيها عن الكمال فلن تجده • ومع اننا نعترف بأن (ابسن) اعظم درامي ظهر خلال المئة سنة الاخيرة ، فانه ، على الرغم من كل المزايا العريضة في مسرحياته ، فما افقره من حيث قوة الخلق والابتكار ، وما اكثر التكرار في شخوصه ، واذا ما غصت قليلا تحت السطح ، فما اسخف الكثير من مواضيعه ، فيظهر الامر وكأن النقص ملازم لفن الدراما ، وانك لكي تصل الى غاية ما عليك ان تضحي بأخرى • لذلك فان كتابة مسرحية كاملة من حيث خصائصها ، وامتناعها ، واهمية مغزاها ، ومن حيث قوة شخوصها واصالتهم ، ومن حيث معقولية استثارتها للفضول ، ومن حيث جمال حوارها ، امر مستحيل • لقد لاحظت ان بلوغ الكمال في الرواية والقصة

Twitter: @ketab_n

ليس مستحيلا ، ومع اني ضعيف الامل في ان ابلغه ، الا انني في هـذين المجالين اطمع في مقاربته اكثر مما سنحت لي الفرصة في مجال الدراما .

٤٣

الرواية الاولى التي كتبتها كانت (ليزا من لامبث) وقد قبلها اول ناشر ارسلتها اليه . وكان (فيشر انوين Fisher Uuwin) يقـوم بنشر ما اسماه بسلسلة الاسماء المستعارة ، ينشر فيها عددا من الروايات القصيرة حازت اعجـاب القراء ، وكان مـن بينها روايـات (جون اوليفر هوبز John Oliver Hobbs) . كان في ذلك ذكاء وجرأة ، فقـد اتت الناشر بالشهرة واقامـة للسلسلة سمعة مكينة . فكتبت قصتين قصيرتين بلـغ حجمهما معا حجما يناسب اعـداد السلسلة وارسلتهما اليه ، وبعد فترة اعادهما الي مع رسالة يسأل فيها ان كانت عندي رواية ابعث بها اليه . كان هذا تشجيعا عظيما ، فجلست فورا اكتب رواية . ولما كنت اقضي النهار كله في المستشفى ، فلم يكن امامي غير الليل اكتب فيه . كنت قد اعتدت الوصول الى البيت في السادسة ، وبعـد مطالعة صحيفتي (ستار) التي كنت اشتريتها عنـد ناصية جسر (لامبث) ، والانتهاء مـن تناول وجبة خفيفة ، ابدأ العمل .

كان (فيشر اونوين) قاسيا مع المؤلفين ، فقد استغل حداثة سني وقلة خبرتي وسروري لقبول احدى كتبي ، فحملني على التوقيع على تعهـد بعدم استحقاقي لأي ريع الا بعد بيعه لكذا عدد من النسخ ، الا انه كان عارفا بمهنته فبعث بروايتي الى عدد من الشخصيات المتنفذة ، فظهرت عنها مطالعات عـديدة ، نقـدا وتقريظـا . كتب عنهـا (باسل ولبرفورس Basil Wilberforce) ــ الذي اصبح فيما بعد رئيس شمامسة وستمنستر ــ في كنيسة (ابي) . وتأثر بها رئيس قسم التوليـد في مستشفى سنت توماس ، فعرض علي وظيفة في قسمه ، الا انني رفضته بلا ترو ، اذ كنت قد نجحت في امتحاناتي النهائية ، ولكني ، وقد استخفني نجاحي الاول ، عزمت على التخلي عن مهنة الطبابة . وما انقضى شهر على طبع الرواية حتى اعيد طبعها ثانية ، فلم يبق لدي شك في سهولة كسب عيشي ككاتب .

Twitter: @ketab_n

وبعد سنة ، عند عودتي من اشبيلية ، ادهشني وصول صك من (فيشر اوين) عن حصتي من الريع ، وكان بمبلغ عشرين جنيها • اما الرواية فما زالت تقرأ لانها ما زالت تباع ، فان كانت فيها اية محاسن ، فمرجعها حسن الحظ الذي اتاح لي ، بسبب من عملي كطالب طب ، ان اتصل عن كثب بجانب من الحياة كان يومذاك خافيا على كثير من الروائيين • كان (آرثر موريسن Arthur Morrison) بروايتيه (حكاية من الاحياء الدنيا) و (ابن جاكو) قد اثار اهتمام الجمهور بما كان يعرف يومئذ بالطبقات الدنيا ، فأفدت من ذلك الاهتمام المستثار •

لم اكن اعرف شيئا عن الكتابة ، على الرغم من انني بالقياس الى عمري كنت قد قرأت الكثير • كنت اقرأ دون تمييز وبمجرد سماعي باسم كتاب • كنت التهم كتابا بعد آخر لاكتشف ما فيه • ومع اعتقادي بأني قد خرجت من مطالعاتي بأشياء ، الا ان روايات موباسان (Guy de Maupassant) وقصصه هي التي كان لها اكبر الاثر فيّ عندما انصرفت الى الكتابة • كنت قد بدأت قراءتها وانا في السادسة عشرة من عمري • وفي فترات زياراتي لباريس كنت اقضي اوقات ما بعد الظهر في اروقة (الاوديون) اتصفح ما فيها من كتب • وكان قد اعيد نشر عدد من كتب موباسان في مجلدات صغيرة بخمسة وسبعين سنتيما لكل مجلد ، فاشتريتها ، اما كتبه الاخرى فقد كانت تباع بثلاثة فرنكات ونصف لكل كتاب ، وهو مبلغ لم اكن قادرا عليه ، فكنت اتناولها من الرفوف فأقرأ منها فيما يسمح به الوقت ، ولم يكن الموظفون بملابسهم الرسمية الرمادية يلتفتون الي ، وكان بالامكان ، عندما لم يكن احد منهم حاضرا ، قص احدى الصحائف ، ومن ثم الاستمرار في القصة دونما عائق • وهكذا قرأت اكثر ما كتب موباسان قبل ان ابلغ العشرين • وعلى الرغم من انه لم يعد يتمتع بنفس السمعة التي كانت له من قبل ، الا انه ينبغي الاعتراف بأن له خصائصه العظيمة ، فقد كان جلي الاسلوب مستقيمه ، يتذوق الشكل ، متمكنا من استخلاص اكبر القيم الدرامية من القصة التي يحكيها • ولا يسعني الا ان ارى فيه اديبا يحتذى خيرا من الروائيين الانجليز الذين كانوا يومذاك يؤثرون في الشبان • كنت في (ليزا من لامبث) قد وصفت دون مبالغة او زيادات اشخاصا التقيتهم في عيادة المستشفى الخارجية وفي

Twitter: @ketab_n

المنطقة اثناء خدمتي في قسم التوليد ، وحوادث صادفتني وانا انتقل من بيت الى بيت لاداء واجبي ، وما كنت الاحظه وانا اتسكع في اوقات فراغي. ان افتقاري لقوة الخيال (والخيال ينمو بالتمرين ، خلافا للظن الشائع ، فهو اقوى في الناضج منه في الفتي) حملني على ان ادون تحريف كل ما بعيني وسمعته بأذني . فهذا النجاح الذي لقيه الكتاب يعزى الى حسن الحظ ، دون ان يَتنبأ بشيء عن مستقبلي ، ولو ان هذا ما لم اكن اعلمه .

الحّ علي (فيشر انوين) في كتابة رواية اطول عن الاحياء الدنيا ، قائلا ان ذلك هو ما يريده الجمهور مني ، وتنبأ بأنها ستلقى نجاحا اكبر مما لقيته (ليزا من لامبث) بعد ان حطمت الثلج من حولي . غير ان ذلك لم يقنعني ، فقد كنت طموحا . كنت اشعر ــ ولست ادري من اين جاءني ذلك ــ بأنك ينبغي ألا تركض وراء النجاح ، بل عليك ان تبتعد عنه . وكنت قد تعلمت من الفرنسيين ألا استزيد كثيرا من القصص المحلي ، فما عادت بي رغبة في الكتابة عن تلك الاحياء بعد ان كتبت عنها كتابا . وكنت في الواقع قد انهيت كتابة رواية مختلفة كل الاختلاف ، ولا بد ان (فيشر انوين) قد اصيب بالفزع عندما تسلمها . كانت حوادث الرواية تدور في ايطاليا في عصر النهضة ، بنيتها على قصة كنت قد قرأتها في تاريخ فلورنسا لماكيافيللي . وقد دفعني الى كتابتها ما قرأته في مقالات كتبها (اندرو لانك Andrew Lang) في فن القصة ، فقد اقنعني بما قاله في احداها من ان الرواية التاريخية هي اللون الوحيد الذي يمكن ان ينجح فيه الكاتب الناشيء ، ذلك لانه لا يملك من التجربة ما يمكنه من الكتابة عن المسائل المعاصرة . فالتاريخ يقدم له القصة والشخوص ، فيما يقوم حماس الفتوة الدافق فيه بتزويده بالحيوية اللازمة لهذا اللون من التأليف . ولكني اعلم الآن ان ذلك لم يكن سوى لغو باطل . فالاول لا يصح القول بأن المؤلف الشاب اقل خبرة من ان يكتب عن معاصريه ، فأنا لا ارى ابدا ان احدا متقدما في السن يمكن ان يعرف الناس خيرا ممن عاشرهم ايام طفولته وصدر شبابه . فأفراد العائلة والخدم الذين يقضي الطفل معهم سنين طويلة ، والمعلمون والاساتذة في المدرسة ، والطلاب والطالبات ، فهؤلاء يعرف الشباب الكثير عنهم . فنظرته اليهم نظرة مباشرة . اما الكبار فلا يكشفون عن انفسهم ، شعوريا او لا شعوريا ، تجاه الكبار من امثالهم

Twitter: @ketab_n

مثلما هم يكشفون عنها امام الصغار والاحداث • والطفل والصبي اعمق ادراكا لمحيطه ، للبيت الذي يعيش فيه ، للمشاهد الريفية ، او للشوارع المحيطة به في المدينة • انه يرى تفاصيل كل شيء ، الامر الذي لا يستطيعه بعد ان تتراكم عليه الانطباعات بمرور الزمن فتحد من قوة حواسه • والرواية التاريخية تتطلب ولا شك خبرة فائقة بالبشر لبعث اناس احياء من بين اشخاص يبدون غرباء علينا لاول وهلة لما فيهم من اختلاف في السلوك والفكر • وبعث الماضي لا يقتضي اطلاعا واسعا فحسب ، وانما يتطلب ايضا جهدا في التخيل قلما يوجد في الشباب • فلي اذن ان اقول ان الحقيقة هي عكس ما قاله (اندرو لانك) ، فعلى الروائي ان يتحول الى الرواية التاريخية في اواخر فترة عمله ، بعد ان يكون تفكيره وتقلبات حياته قد اغنته بالعالم خبرة ومعرفة ، وبعد ان يكون قد امضى السنوات مستكشفا مجاهل نفسيات الناس من حوله ، فازداد بالطبيعة البشرية بصيرة وعمق نظر يمكنانه من فهم شخصيات العصور الماضية ، ومن ثم بعثها الى الحياة• لقد كتبت روايتي الاولى مما عرفته • ولكني بعد ذلك ، وقد اضلتني هذه النصيحة غير النصوح ، اخذت اكتب رواية تاريخية • كتبتها في (كابري) اثناء عطلة طويلة وبحماس جعلني انهض في السادسة صباحا فأبدأ الكتابة مستمرا حتى يعضني الجوع ، فأتركها لتناول الفطور • ولكني كنت على شيء من الادراك جعلني اقضي ساعات الصباح في البحر •

٤٤

لا ارى ما يدعوني الى الكلام على الروايات التي كتبتها خلال السنوات القليلة التالية • واحدة منها (السيدة كرادوك) لم تكن فاشلة ، فأعدت طبعها ضمن مجموعة كتبي • ومن الاخريات اثنتان كانتا في الاصل مسرحيتين فشلت في اخراجها الى حيز التمثيل ، فبقيتا طويلا تثقلان على نفسي ، كعمل مخجل • كنت اريد ان ابقيهما طي الكتمان بأي ثمن ، ولكني اعرف الآن ان مخاوفي لم يكن لها مسوغ ، فحتى اعظم الكتاب لم يخل بعض ما كتب من الغث الهزيل • فهذا (بلزاك Balzac) قد اغفل عددا فلم يدخلها في (الكوميديا الانسانية) ،و من التي ادخلها عدد لا يعنى بقراءتها سوى الطلاب • فليثق الكاتب من ان الكتب التي يتمنى نسيانها

Twitter: @ketab_n

لسوف تنسى • لقد كتبت كتبا من هذا النوع لاني كنت احتاج الى مبلغ من المال يقيمني حتى العام التالي ، واخرى كتبتها لاني كنت يومها مفتونا بفتاة ذات ميول مسرفة ، وكان يحول دون اشباع رغباتي معجبون آخرون اغزر مالا واقدر على ان يوفروا لها من اسباب الترف ما كانت نفسها اللعوب تتوق اليها • لم يكن عندي ما اقدمه سوى مزاج من الجد وتقدير لروح المرح • فعزمت على كتابة رواية تأتيني بثلثمائة او اربعمائة جنيه استطيع بها ان اواجه غرمائي ، لان الفتاة كانت جذابة • ولكنك مهما تجتهد فكتابة رواية تقتضيك زمنا طويلا ، ثم عليك بعد ذلك ان تجد لها ناشرا ، ثم ان الناشرين لا يدفعون شيئا الا بعد بضعة اشهر • فكانت النتيجة انني عندما تسلمت المبلغ كانت العاطفة التي خلتها ستظل مشبوبة دائما قد انطفأ اوارها ، فلم تعد لي رغبة في صرف المبلغ فيما كنت قد نويت ، فرحلت به الى مصر •

وفيما عدا هذين الاستثناءين ، فان ما ألفته من الكتب خلال السنوات العشر الاولى من احترافي الكتابة كانت تمارين سعيت ان اتعلم بها مهنتي• من الصعاب التي تواجه محترف الكتابة ان عليه ان يكتسب خبرته على حساب الجمهور • انه مدفوع الى الكتابة بغريزة داخلية ، وفي رأسه تزدحم المواضيع دون ان تكون لديه المهارة اللازمة لمعالجتها ، وهو لا يعرف كيف يستغل ما اوتي من مواهب لقلة خبرته وعدم نضجه • ثم هو عندما ينتهي من كتابة كتاب يلزمه نشره ان استطاع ، لانه من جهة يحتاج الى المال يعيش عليه ، ولانه من جهة اخرى لا يعرف صلاح ما كتب ما لم يره مطبوعا ، ليتعرف على اغلاطه من خلال آراء اصدقائه وما يكتبه النقاد عنه • كثيرا ما كنت اسمع ان موباسان كان يعرض كل ما يكتبه على (فلوبير Flaubert) وان هذا لم يسمح له بنشر قصته الاولى الا بعد بضع سنوات من الكتابة ، تلك هي رائعته التي يعرفها العالم اجمع باسم (بول دي سويف) • الا ان ذلك كان ظرفا استثنائيا ، لان موباسان كان موظفا حكوميا موفور العيش وذا فراغ يكتب فيه • قليلون اولئك الذين يستطيعون الصبر طويلا قبل ان يجربوا حظهم مع الجمهور ، واقل من اولئك من يتيح لهم حسن الحظ ان يعثروا على كاتب عظيم حي الضمير مثل (فلوبير) ليمنحهم النصح والتوجيه • وهكذا يضيّع الكتاب في الاعم

Twitter: @ketab_n

الاغلب مواضيع كان يمكن ان تكون ذات نفع لهم او انهم لم يعالجوها حتى تكون لهم خبرة اوسع بالحياة ومعرفة ادق بنواحي فنهم • ولكم تمنيت لو لم يواتني الحظ فيقبل كتابي الاول فورا ، اذ انني كنت عندئذ سأواصل مهنتي كطبيب واتقبل مناصبها واجوب البلاد كمساعد للاطباء الممارسين واقوم مقامهم ، وهكذا كنت افوز بثروة ثمينة من الخبرات ، ولو ان كتبي رفض الواحد بعد الآخر لكنت اتقدم آخر الامر الى الجمهور بنتاج أقرب الى الكمال • اني لآسف على ان لم يكن لي من يأخذ بيدي مرشدا ، والا لما ذهب سدى كثير من جهودي غير الموجهة • كنت اعرف من الادباء عددا معدودا ، ذلك اني كنت ارى ، حتى في ذلك الحين ، ان صحبة الادباء ، على الرغم مما فيها من متعة ، لا تنفع المؤلف نفعا كبيرا • ثم اني كنت اكثر خجلا واشد كبرياء واقل ثقة بنفسي من ان اطلب مشورتهم • لقد درست الروائيين الفرنسيين اكثر من دراستي للانجليز ، فبعد ان استخلصت من موباسان ما استطعت تحولت الى ستاندال[1] ثم بلزاك ثم غونغور ثم فلوبير ثم اناتول فرانس •

قمت بعدة تجارب كان بعضها جديدا حينذاك • كشف لي بحثي الحثيث عن الخبرة في الحياة ان اسلوب الروائي في تناول شخصين او ثلاثة او حتى الجماعة يصف مغامراتهم ، روحية وغير روحية ، وكأن ليس في الوجود غيرهم ، وكأن لا حدث في العالم غير ما يحدثون ، قد البس الواقع لبوس التحيز والمبالاة • وانا نفسي كنت اعيش بين مجموعات متنافرة لا رابط بينها • فخطر لي ان من الممكن ان تعرض صورة اصدق للحياة ان استطاع المرء ان يعالج قصصا مختلفا وبأهمية واحدة في الوقت نفسه مما كان يمثل في فترات معينة وفي اوساط متنوعة • فتناولت عددا كبيرا من الناس اكبر مما سبق لي ان تناولته ، ثم وضعت خطة لاربع او خمس قصص مستقلة ترتبط فيما بينها بخيط رفيع جدا : عجوز تعرف في الاقل شخصا واحدا من كل مجموعة • عنونت الكتاب باسم (لعبة الدوّامة) وكان الى السخف اقرب ، ذلك اني ، لوقوعي تحت تأثير المدرسة الجمالية في التسعينات ، جعلت كل شخص فيه جميلا بشكل غير معقول ؛

---

١ ــ اقرأ في منشورات عويدات : الاحمر والاسود لستاندال ، ومدام بوفاري لفلوبير والاب غوريو ، والناعقون لبلزاك •

Twitter: @ketab_n

وكتبته بأسلوب فيه توتر وتصنع ، الا ان عيبه الاكبر كان افتقاره الى الحافز الذي يجذب اهتمام القارىء ويوجهه ، كما ان القصص لم تكن متساوية الاهمية ، ولم يكن من اليسير تحويل الانتباه من مجموعة من الناس الى اخرى • فشلت لجهلي بالطريقة البسيطة في رؤية مختلف الحوادث والشخوص المشتركة فيها بعيني شخص واحد • انها الطريقة التي استعملها قرونا مؤلفو السير الشخصية ، وتطورت على يد (هنري جيمس Henry James) تطورا نافعا • فبعملية بسيطة بساطة كتابة (هو) بمكان (انا) ، وبالنزول من علياء ادعاء المعرفة بكل شيء الى مستوى مشارك غير واسع الاطلاع ، استطاع ان يمنح القصة وحدتها وقربها من التصديق •

٤٥

في اعتقادي انني كنت ابطأ في التطور من معظم الكتّاب ، ففي السنوات التي انهت القرن الماضي وافتتحت القرن الحالي كان الناس يرون فيّ كاتبا شابا ، نابها ، مبكر النضج ، خشنا ، ممقوتا بعض الشيء ، الا انه يستحق التقدير • وعلى الرغم من اني لم افد من كتبي فائدة مالية كبيرة ، غير انها حظيت بتعليقات مطولة منصفة • ولكني عندما اقارن رواياتي الاول بما يكتبه شبان اليوم ، لا يسعني الا ان ارى في كتاباتهم قدرا كبيرا من البراعة والاجادة • ان الكتّاب المسنين يحسنون صنعا بالاطلاع على نتاج الادباء الشبان ، واني اقرأهم احيانا ، فأرى فتيات في العقد الثاني وفتيانا ما يزالون في الجامعة ينتجون كتبا متقنة ، حسنة التأليف ، ناضجة الخبرة • لست ادري اذا كان شبان اليوم ينضجون بأسرع من شبان ما قبل اربعين سنة ، او ان فن القصة قد تقدم بحيث اصبح اليوم ليس اسهل من كتابة قصة جيدة مثلما لم يكن حينذاك اصعب من كتابة حتى التافه من القصص • ولئن عنّ لك ان تتصفح مجلدات (الكتاب الاصفر) الذي كان يومذاك ارفع نتاج للفكر المصقول ، فلسوف تدهش من رداءة غالبية المساهمين فيه ، فعلى الرغم مما حاولوا التباهي به، فانهم لم يكونوا اكثر من دوّامة في مياه راكدة ، ولا ينتظر من تاريخ الادب الانجليزي ان يعنى بهم بأكثر من نظرة عابرة • واني لتأخذني قشعريرة وانا اقلب تلك الصفحات الباليات مسائلا نفسي ان كان اللامعون

Twitter: @ketab_n

من الشبان في الادب المعاصر سوف يبدون بعد اربعين سنة تافهين كما تبدو لنا الآن عمّاتهم العوانس من كتّاب (الكتاب الاصفر) .

كان من حسن حظي اني غدوت فجأة معروفا في الاوساط الشعبية ككاتب مسرحي ، فلم اعد مضطرا الى كتابة رواية كل عام لتأمين معيشتي . كنت استسهل كتابة المسرحيات ، والشهرة التي اتتني بها كانت مبهجة للنفس ، كما جاءتني بكفاية من المال قللت من حدة الضائقة التي كانت آخذة بخناقي . لم احذ يوما حذو البوهيميين الذين لا يهمهم الغد ، ولم يكن بي ميل الى الاقتراض ابدا ، فقد كنت اكره ان اكون مدينا ، كما ان الحياة الحقيرة لم تستهوني ، فما كانت ظروفا حقيرة تلك التي ولدت فيها . وابتعت دارا في ميفير حالما امكنني ذلك .

هناك اناس يحتقرون التملّك والاستحواذ ، ولا شك انهم محقون في قولهم ان ليس من المناسب للفنان ان يثقل على نفسه بذلك ، الا انه رأي لا يؤمن به الفنانون انفسهم ، فهم لم يختاروا لانفسهم العيش في البرج الذي يريده لهم المعجبون ، وهم غالبا ما جلبوا على انفسهم الخراب بالتبذير والاسراف . انهم على كل حال ، مخلوقات لهم تخيلاتهم ، تستهويهم الابهة ، والسكن الجميل فيه الخدم يقضون حاجاتهم ، والسجاد النفيس ، واللوحات الرائعة ، والاثاث الفاخر . عاش (تيتيان Titian) و (روبنس Rubens) كأميرين ، وكان بوب يسكن في (الكهف) و (القصر الخماسي) ، وعاش (سير والتر Sir Walter) في (ابوتسفورت) المشيد على الطراز الغوطي . واليك أيضا (آل غريشو El Greco) بشققه الفارهة ، وطعامه الذي لم يكن يتناوله الا على أنغام فرقته الموسيقية ، ومكتبته العامرة ، وملابسه الفاخرة الفخمة ، مات مفلسا . ليس من الطبيعي ان يعيش الفنان في شبه عزلة ويتبلغ بفطيرة تصنعه خادمة . فالترف الذي يحب الفنان ان يحيط نفسه به ليس الا وسيلة للتحول ، فما بيته وحدائقه وسياراته ولوحاته الا وسائل لعب يستثير بها خياله ، وان هي الا دلائل ملموسة على قدرته ، وهي لا تنفذ الى جوهر عليائه . وفيما يتعلق الامر بي فليس من الصعب عليّ أن أقول انني ، وقد نلت كل شيء حسن يمكن للمال شراؤه كأية تجربة أخرى ، قادر على التخلي عن كل ما أملك دون أي ألم . اننا نعيش في عصر قلّب وقد يؤخذ منا فجأة كل شيء ، فبلغة من

Twitter: @ketab_n

الطعام تسد حاجتي البسيطة ، وبحجرة أسكن اليها ، وببعض الكتب من مكتبة عامة ، وببعض من ورق وقلم ، لن يكون هناك ما أشكو منه . لا ريب اني فرحت بالحصول على مبالغ كبيرة من المال ككاتب مسرحي ، فقد منحتني الحرية ، وحافظت عليها لأني لم أكن أمرّ بنفس الموقف الذي كانت فيه حاجتي الى المال تمنعني من القيام بما كنت أريد .

٤٦

انني الآن كاتب ، وقد كان يمكن ان أكون طبيبا أو محاميا . وانها لمهنة محببة الى النفوس بحيث لا يدهشك ان تجد هذا العدد الهائل من الناس يمتهنونها ، وان لم يمتلكوا من المؤهلات لها شيئا . انها مهنة مثيرة متنوعة ، فالكاتب حر في اختيار مكان عمله ووقته ، وهو حر في ان يكتب ان شاء أو ألا يكتب ان لم يشأ . ولكنها مهنة لها مساوؤها . منها انك وان كنت حر التصرف في العالم بأكمله بما فيه من اناس وأشياء ومناظر وحوادث ، كمادة لك ، الا انك لا تستطيع التعامل الا مع ما يتجاوب وينبوع خفي في طبيعتك ذاتها . فالمنجم غني لا ينفد ، الا ان كل فرد منا لا يغترف منه الا بقدر محدود ، وهكذا فقد يبلغ الكاتب حد الموت جوعا ومن حوله الوفر الوافر ، وتخونه مادته فنقول انه قد استنفد كل ما لديه ، ولا أظن ان هناك الكثيرين من الكتّاب من لم يرعبه ذلك . ومن مساوئها الاخرى ان على الكاتب الممتهن ان يكون ممتعا ، فان لم يجد العدد الكافي من القراء فسوف يجوع . وفي بعض الاحيان يكون ضغط الظروف شديدا فيخضع لمطاليب الجمهور والغضب يضطرم بين جوانحه . ليس للمرء ان يتوقع الكثير من الطبيعة البشرية ، فلابد ان تتقبل منه عملا تجاريا بالمناسبة متساهلين . والكتّاب الذين لهم ظروفهم المستقلة ينبغي ألاّ ينهشوا زملاءهم الذين تدفعهم الظروف القاسية الى كتابة شيء تافه مبتذل ، وألاّ يبخلوا عليهم بالعطف . قال أحد حكماء (تشلسي) المغمورين «ان من يكتب للمال لا يكتب لي» . لقد قال الكثير الجيد (وذلك خليق بالحكماء) ، الا ان هذا الاخير رأي أحمق ، ذلك ان القارىء ليس يعنيه ما يدفع المؤلف الى الكتابة ، ان ما يعنيه هو النتيجة ، وكثير من الكتّاب يلزمهم وخز الضرورة ليكتبوا ــ ومنهم صامويل جونسن Samuel Johnson ــ ولكنهم لم يكتبوا

Twitter: @ketab_n

للمال ، ولو فعلوا لما ارتكبوا حماقة ، فهناك من المهن ما لا يأتي بمال مثلما تأتي به الكتابة وان تساوت فيها القابلية والنشاط • فأعظم اللوحات العالمية ما رسمت الا بعد ان قبض رساموها الثمن • فالجانب المثير في الرسم ، كما في الكتابة ، هو ان الفنان ما ان يبدأ العمل حتى ينغمر فيه عاكفا على اتقانه جهد امكانه • ولكن الرسام لن يجد عملا ان هو لم يرض زبائنه ، وهكذا الكاتب لا تقرأ كتبه ان لم ترض القراء • ومع ذلك فلدى الكتّاب شعور بأن على الجمهور ان يحب ما يكتبون ، فان لم تجد كتبهم رواجا فالذنب ذنب الجمهور وليس ذنبهم • ما صادفت كاتبا اعترف بأن الناس عزفوا عن قراءة كتبه لانها تافهة • وهناك أمثلة عديدة لفنانين لم تقدّر انتاجاتهم زمنا طويلا ، ولكنهم بلغوا الشهرة آخر الامر ، ولكننا على كل حال لانسمع عن الذين ظل نتاجهم مجهولا ، وعدد هؤلاء أكبر من أولئك • اين ترى هي النذر التي قدمها الذين هلكوا ؟ وان صح ان المهارة ضرب من البراعة مع نظرة خاصة الى العالم ، فيصح القول بأن الاصالة لا تكون مطلوبة لأول وهلة • الناس في هذا العالم المتقلب ينظرون بعين الريبة الى الجديد ، ولا يتهيأ لهم التعود عليه الا بعد زمن • والكاتب ذو المزاج الخاص يلزمه ان يفتش منقّبا عن قارىء يستميله ذلك المزاج ، وهو في ذلك يلزمه وقت طويل ، ليس ليكوّن نفسه فحسب ، فالشبان انما هم أنفسهم ولكن بتخوف، بل يلزمه الوقت حتى يستطيع اقناع مجموعة الناس الذين يسميهم متفاخرا جمهوره بأن لديه ما يعطيهم مما يرغبون ، وكلما اشتدت فرديته اشتدت عليه صعوبة ذلك الاقناع ، ومن ثم استطال عليه الزمن للحصول على بلغة العيش ، ثم هو بعد ذلك لن يكون واثقا من استمرارية النتيجة ، فهو على الرغم من كل ما فيه من فردية ، فقد لا يكون لديه ما يعطيه غير عطاء واحد أو عطاءين اثنين ، ومن ثم سرعان ما ينكص عائدا الى خمول الذكر الذي ما خرج منه الا بعناء •

وليس أسهل من اطلاق القول بأن على الكاتب ان يتخذ لنفسه مهنة توفر له الخبز والزبد ، وان يستفيد مما تتيح له مهنته من فراغ فيعالج الكتابة • والحقيقة ان هذا الاتجاه قد فرض على الكاتب فرضا في الماضي ، عندما كان الكاتب ، وان يكن مبرزا ، لا يجد من كتاباته ما يعود عليه بما يحفظ له الجسم والروح • وهو مفروض اليوم عليه في بلدان فيها القراء

Twitter: @ketab_n

قليلون ، فيضطر الى انتزاع لقمة العيش من وراء مكتب حكومي أو في الصحافة . الا ان الكاتب الانجليزي بجمهور قرائه الهائل يستطيع ان يتخذ الكتابة مهنة له ، ولولا ان استغلال الفن يكاد يكون مقوتا بعض الشيء في البلدان التي تتكلم الانجليزية لازدادت زحمة القراء فيها زحمة كبيرة . وهناك شعور سليم بأن الكتابة والرسم ليسا للرجل، وقد كان هذا الشعور الاجتماعي حائلا دون انخراط الكثير من الرجال في هذا السلك . فينبغي ان يكون لك دافع قوي لاحتراف مهنة تجعلك تتعرض الى شيء من الخزي المعنوي مهما يكن ضئيلا . في فرنسا وألمانيا ينظرون الى الادب كمهنة شريفة ، فيختارونه بموافقة الوالدين ، حتى وان لم يكن العائد مرضيا . فانت كثيرا ما تلتقي اما ألمانية تسألها عما تحب لابنها من مهنة ، فتجيبك راضية : سيكون شاعرا . وفي فرنسا ترى عائلة فتاة ذات مهر كبير ان زواجها بروائي ناشيء موهوب اقتران مناسب .

والكتابة عند الكاتب لا تبدأ عندما يجلس الى مكتبه ، وانما هو يكتب طوال اليوم ، اذ يفكر ، واذ يقرأ ، واذ يعاني ، فكل ما يراه وكل ما يحس به له أهميته ، وسواء اشعر بذلك أم لم يشعر ، فانه يجمع ويختزن ويكوّن انطباعاته . وهو لا يقدر ان يهب كل اهتمامه لأي داع آخر ، اذ ليس بامكانه ان يلبي الدعوة كما ينبغي أو كما يرغب مخدومه . والصحافة أقرب المهن اليه ، ذلك انها ذات صلة بما في نفسه ، ولكنها من أخطر المهن عليه . ففي الصحافة تجرد عن الذاتية يؤثر على الكاتب دون ان يحس به، ويبدو ان الذين يكثرون الكتابة للصحافة يفقدون ملكة رؤية الاشياء لذاتها ، بل يرونها من حيث عموميتها ، وقد تكون نظرة مفعمة حيوية ، أو متألقة تألق المحموم ، ولكنهم لن ينظروا اليها بذاك المزاج الذي لا يرى الا صورة جزئية للحقائق ، ولكنه مفعم بشخصية الناظر . والصحافة ، في الواقع ، تقتل الفردية في الذين يكتبون لها . والنقد الصحفي لا يقل عن ذلك أذى ، فالناقد لا يتسع له الوقت لأن يطالع من الكتب الا ما له صلة مباشرة به ، فمعالجته لمئات من الكتب دون ان يعنى بما يأتي له منها من نفع روحي ، بل لمجرد كتابة تقرير نزيه عنها ، تميت فيه احساساته وتحد من حرية جريان خياله . والكتابة عمل ينبغي ان يخصص له فترة اشتغال كاملة ، فيجب ان تكون الموضوع الرئيس في حياة المؤلف ، أي يجب ان

Twitter: @ketab_n

يكون كاتبا محترفا ، وانه يكون محظوظا لو تيسر له مورد يغنيه عن وارد الكتابة ، الا ان ذلك لا يمنعه من الاحتراف • وهذا (سويفت Swift) بمرتبه من العمادة ، و (ورد زورث Wordsworth) بوظيفته الاسمية ، لم يكونا أقل احترافا من بلزاك ، و (ديكنز Dickens) •

٤٧

من المعروف ان فني الرسم والتأليف الموسيقي لا يسلس قيادهما الا بالجهد المضني المستمر • فليس بغريب ان ينظر الى تناجات غير المحترفين فيهما بازدراء أو باستخفاف • لقد هنأنا أنفسنا عندما أخذ المذياع والحاكي مكان عازف البيان الهاوي أو المغني في بيوتنا • وفن الكتابة ليس أقل مشقة من باقي الفنون ، وان كان كل امرىء قادر على كتابة رسالة أو قراءتها يخال نفسه قادرا على كتابة كتاب • والكتابة تبدو اليوم وكأنها منتجع الاسترخاء المفضل عند الجنس البشري ، فعوائل بأكملها تتعاطاها مثلما كانت في أيام اسعد تلج بيوت العبادة ، والنسوة يتسلين بتأليف الروايات ريثما ينتهين من فترة الحمل ، والنبلاء الضجرون ، والموظفون عسكريون ومدنيون ، يندفعون جميعا الى القلم مثلما يندفع المدمن الى كأس الشراب • هناك قول شائع في الخارج بأن في كل امرىء ما يمكنه من تأليف كتاب واحد • فاذا قصد بالكتاب كتاب جيد فالقول باطل ، وان صح أحيانا ان ينتج الهاوي تتاجا محمودا ، وقد يسعده الحظ فيكون ذا موهبة طبيعية ليجيد في الكتابة ، وقد تكون له خبرات ممتعة في ذاتها ، أو قد تكون له شخصية ساحرة أو جذابة بحيث ان غرارته نفسها تعينه على التعبير في كتاب مطبوع • ولكن ليتذكر ان القول ذاك ينص على ان في كل امرىء ان يكتب كتابا واحدا ، ولم يشر الى كتاب ثان ، فمن الحكمة ألا يحاول الهاوي تجربة حظه مرة ثانية ، اذ لاشك ان كتابه الثاني سيكون عديم القيمة •

ان من اهم الفروق بين الهاوي والمحترف هو ان للاخير قابلية التقدم• فأدب امة ما لا يصنع ببضعة من روائع الكتب ، كما قلت من قبل ، بل بمجموعة ضخمة من الانتاجات ، وهذه لا تكون الا من نتاجات المحترفين من الكتّاب • ان أدب قطر غلب عليه ما ينتجه الهواة من الكتّاب يكون

Twitter: @ketab_n

هزيلا بالقياس الى أدب قطر فيه رجال يشقون في الحصول على لقمة العيش عن طريق احترافهم الكتابة مهنة لهم • لا تكون جلائل الأعمال الا حصيلة جهد وعزم مديدين • والكاتب ، كأي شخص آخر ، يتعلم بطريقة التجربة والخطأ ، فتكون انتاجاته الاولى تجريبية ، معالجا مختلف المواضيع وشتى الاساليب ، منميا في نفس الوقت شخصيته ، وبعملية متوافقــة في الزمن يكتشف نفسه ، وهي ما عنده من عطاء ، ويتعلم كيف يعرض هذا العطاء على خير وجه • ومن ثم ، بعد ان يكون قد امتلك زمام ملكاته ، ينتج خير ما في امكانه • ولما كانت الكتابة مهنة نظيفة وشريفة فمن المحتمل ان يعيش طويلا بعد ذلك الانتاج • واذ تصبح الكتابة عندئذ عادة متأصلة فيه فانه لا شك سيستمر على الانتاج ، ولكنه لا يكون انتاجا ذا قيمة ، ويكون للجمهور الحق في اهماله • اما من حيث وجهة نظر القارىء ، فان القليل مما ينتجه الكاتب طوال حياته يكون جوهريا (وأقصد بالجوهري ذلك الجزء الضئيل الذي يعرب فيه عن فرديته ، لا المفهوم المطلق للكلمة) • وأغلب الظن انه انما تمكن من ذلك نتيجة تلمذته الطويلة والعــديد من المحاولات الفاشلة • فللقيام بذلك يجب ان يكون الادب مهنته في الحياة ، يجب ان يكون كاتبا محترفا •

٤٨

لقد تكلمت عن مساوىء مهنة التأليف ، والآن اتحدث عن مخاطرها :

من الواضح ان ليس هناك كاتب محترف يستطيع ان يباشر الكتابة انى رغب في ذلك • فان هو انتظر ان يروق مزاجه ، أو ان ينزل الوحي عليه كما يقول ، فقد ينتظر طويلا قبل ان يكتب الا القليل أو لا شيء اطلاقا • فالكاتب المحترف يستولد المزاج خلقا ويمسك بزمــام الوحي ويخضعه لمشيئته بتقرير ساعات معينة للعمل فيستحيل ذلك الى عادة بمرور الزمن ، مثله مثل الممثل المتقاعد الذي لا يقر له قرار عندما تزف الساعة التي اعتاد فيها الذهاب الى المسرح ليعد نفسه للتمثيل • كذلك الكاتب يتحرق شوقا الى قلمه وورقه كلما دنت الساعة التي اعتاد الكتابة فيها ، فيباشر الكتابة بصورة آلية ، وتنساب الكلمات الى قلمه ، ومع الكلمات تترى الافكار ،

Twitter: @ketab_n

وهي آكار قديمة فارغة ، الا ان قلمه المتمرس قادر على ان يخلق منها قطعة مقبولة • ثم يخرج لتناول الطعام ، أو يذهب الى النوم ، وهو راض عما انجز من عمل يومه • ان كل انجاز لفنان ينبغي ان يكون تعبيرا عن تجربة روحية مثيرة ، وهذا دليل الكمال ، ولو ان في عالم غير كامل ينبغي ان نمنح الكاتب شيئا من التسامح ، ومع ذلك فهذا الكمال هو الهدف الذي يجب ان يصبو اليه • انه يحسن صنعا بتحرير نفسه بالكتابة في موضوع ظل يثقل عليه زمانا ، فان كان حكيما فانه سيعنى بأن يكتب لمجرد اراحة نفسه• ولعل أبسط وسيلة لكسر عادة الكتابة هذه هي استبدال المحيط بآخر لا يسمح بالقيام بالواجب اليومي • وانت لا تستطيع ان تكتب جيدا أو ان تكتب كثيرا (ومن رأيي انك لا تستطيع ان تكتب جيدا ان لم تكتب كثيرا) ما لم تتكون عندك العادة • ولكن العادات في الكتابة ، كما في الحياة ، لا تكون مفيدة الا اذا أمكن التخلص منها حالما ينتفي نفعها •

غير ان اعظم خطر يحيق بالمؤلف المحترف هو ذلك الذي لا يحذره الا القليلون ، لسوء الحظ ، ذلك هو النجاح • انه من أشق ما ينبغي ان يقاومه الكاتب ، فهو اذ يبلغ النجاح بعد كفاح مرّ ، يجده وقد نشر الشباك لصيده والقضاء عليه • قليل منا من يملك العزم لتجنب أخطاره ، فلذلك يجب ان نصاوله بحذر واحتراس• والقول بأن النجاح يفسد الكاتب غرورا وأنانية ورضا عن النفس انما هو قول باطل ، بل الامر على النقيض من ذلك ، انه يزيده تواضعا وتسامحا وتعاطفا • الفشل هو الذي يملأ الناس مرارة وقسوة • والرجل تروق اخلاقه وتسمو شخصيته بالنجاح ، وليس كذلك المؤلف دائما ، فقد يفقده النجاح تلك القوة التي جاءته بالنجاح • ففرديته صيغت بما له من خبرة وتجربة وكفاح وآمال وجهود بذلها لتكييف نفسه تجاه عالم معاد ، فهي عنيدة شديدة العناد ان لم تتأثر بمؤثرات النجاح الملطفة المليّنة • والنجاح ، اضافة الى ذلك ، كثيرا ما يحمل في ذاته بذور الدمار ، ذلك انه خليق بأن يعزل المؤلف عن المادة التي كانت سبب خلقه ، فيدخل عالما جديدا كله عظمة وتبجيل ، فليس بشرا عاديا من لم تأسره عناية العظماء المحيطين به ، أو من لم يدر رأسه تحلّق الفاتنات من حوله • انه سيألف ضربا آخر من ضروب العيش لعله اترف مما اعتاد عليه ، وطبقة ارفع منزلة من الذين عاشرهم من قبل ، طبقة أذكى وألمع

Twitter: @ketab_n

تألقا • وعندئذ سيصعب عليه ان يتحرك بحريته السابقة في تلك الاوساط التي سبق ان ألفها والتي أوصلته الى النجاح ! فنجاحه جعله غير الذي كان في نظر تلك الاوساط ، فلا تعود تألفه وتسيل اليه كما كانت ، وقد ترمقه بعين الحسد أو الاعجاب ولكنها لن تراه واحدا منها كالسابق • ولسوف يستثيره عالم النجاح الذي دخله حديثا فيأخذ يكتب عنه ، ولكن نظرته الى هذا العالم الجديد تكون سطحية غير نافذة ، لانه ليس جزءا منه بعد • وخير مثل لهذا هو (ارنولد بينيت Arnold Bennett) فهو لم يعرف غير (المدن الخمس) التي فيها ولد وعاش وترعرع ، فكانت كتابته عنها جديرة بالتقدير • وعندما جره النجاح الى مجتمع مختلف من الادباء والمترفين من الرجال والفاتنات من النساء ، سعى للكتابة عن هذا المجتمع ، فكانت كتابته عنه غير ذات قيمة • لقد هدمه النجاح •

٤٩

فالكاتب الحكيم اذن من احترس من النجاح ، وعليه ان يحذر من مزاعم الآخرين عنه بسبب ذلك والمسؤوليات التي يفرضها النجاح عليه وما يستتبعه من نشاط معوّق • للنجاح جانبان حسنان فقط : الاول وهو الاهم هو حرية الكاتب في الاتجاه ، والثاني ثقته بنفسه • فعلى الرغم من كل ما يزعمه الكاتب ومن مظاهر زهوه ، فانه عند مقارنة نتاجه الفعلي مع ما كان يريده ان يكون ، لا بد ان يخامره الشك ، لانه يرى بونا شاسعا بين ما رأى بعين خياله وخير ما استطاعه مما لم يكن في نظره سوى بديل موقت ، وان اعجبته صفحة هنا او شخصية هناك ، فهو قلما ينظر الى اي من نتاجه ككل بعين الرضى ، ففي اعماقه شك في جودة عمله ، ولهذا يجد في ثناء الجمهور عليه ما يشد من عزيمته ويقوي ثقته ، حتى وان ارتاب في قيمة هذا الثناء •

من هنا جاءت اهمية امتداح الكاتب ، وهذا موطن ضعف يتوق اليه ولكنه مما يغتفر له • على الفنان ألا يبالي بالمدح ولا بالقدح ما دام ينظر الى عمله من حيث علاقته بذاته • اما تأثير هذا العمل على الجمهور فأن كان يهمه ماديا فليس يهمه روحيا • ينتج الفنان لتحرير روحه • ان من طبيعته

Twitter: @ketab_n

الخلق ، كما هو من طبيعة الماء الجريان نحو المنحدر • فليس من المستغرب اذن ان يسمّي الفنانون انتاجاتهم ببنات افكارهم وان يقارنوا عناء ولادتها بآلام المخاض • انه اشبه ما يكون بشيء عضوي ينمو ليس في عقولهم فحسب ، بل وفي قلوبهم ، وفي اعصابهم ، وفي احشائهم • انه شيء تقوم غريزتهم الخلاقة بابتداعه وانشائه من تجاربهم ومن ارواحهم ومن اجسامهم ، حتى يغدو جبارا طاغيا لا بد من تخليص انفسهم منه • وعلى اثر هذا التخلص يحسون بشعور من الحرية والتحرر ، وباحساس لذيذ من راحة وسلام • ولكنهم ، بخلاف الامهات من البشر ، يفقدون اهتمامهم بالوليد حالما تتم ولادته فلا يعود جزءاً منهم بعد ذلك • لقد منحهم الوليد الرضى الذي يرغبون ، ومن ثم تتهيأ ارواحهم لاخصاب وحمل جديدين •

عندما ينتج الكاتب يكون قد حقق نفسه ، ولا يعني هذا شيئا في نظر الآخرين ، فقارىء كتاب او ناظر لوحة ليست تعنيه مشاعر الفنان ، فالفنان سعى الى المنطلق ، والآخرون يسعون بحثا عن العلاقة • وليس هناك غير الفنان من يستطيع القول ان كانت العلاقة ذات اهمية له ، فهي ، في نظره ، ليست سوى اثر ثانوي او عرضي • ولست اتكلم هنا على الذين يقصدون الى التعليم بفنهم ، فهؤلاء دعاتيون والفن عندهم ثانوي • فالخلق الفني نشاط نوعي محدد يكتفى به بمجرد ممارسته • وكون هذا الخلق فنا جيدا او رديئا فأمر متروك لحكم الآخرين الذين يقيمون احكامهم على القيمة الجمالية للعلاقة المعروضة عليهم ، فان اتاح لهم الاثر هروبا من الواقع فسيرحبون به ، ولو انهم ، على احسن الفروض ، يعتبرونه قاصرا ، وان اغنى نفوسهم ووسع من شخصياتهم فسيصفونه بحق بأنه فن عظيم • ولكني اصر على ان ذلك كله لا يتصل بسبب الى الفنان • صحيح ان في طبيعة البشر ما يجعله يفرح ان هو وهب الآخرين ما يفرحهم او يشد من عزائمهم ، ولكن ليس له ان يمتعض ان هم لم يجدوا في نتاجه ما يفي بأغراضهم ، فهو قد نال مكافأته باشباع غريزة الخلق عنده • وليس هذا دليلا على الكمال وانما هو الظرف الوحيد الذي يمكن الفنان من العمل لبلوغ الكمال ، هدفه الاصعب منالا • فان كان روائيا فهو يستخدم خبرته بالناس والمواقع ، ومعرفته بنفسه ، وحبه وكرهه ، واعمق افكاره ، ونزواته واهواءه ، لكي يرسم في كل عمل من اعماله صورة للحياة ، وهي

Twitter: @ketab_n

لن تكون الا صورة جزئية ، ولكنه ، ان واتاه الحظ ، فسينجح آخر الامر في القيام بعمل افضل ، بأن يرسم صورة كاملة لنفسه .

ومهما يكن من امر فانهذا الضرب من التفكير فيه بعض العزاء عما تراه عيناك في اعلانات الناشرين . فأنت اذ تقرأ القوائم المطولة بأسماء الكتب ، وعندما تكتشف ان النقاد قد كالوا المديح جزافا في الثناء على ما فيها من براعة واصالة وعمق وجمال ، تصاب بهبوط في القلب ، ترى ما نسبة أملك انت بالقياس الى هذا الحشد من العباقرة ؟ سيجيبك الناشرون ان معدل بقاء رواية ما على قيد الحياة تسعون يوما ، فليس من السهل ان تستسلم لحقيقة ان كتابك الذي سكبت فيه عصارة نفسك وصرفت له شهورا من الجهد والقلق ، يقرأ في ساعات ثلاث او اربع ، ومن ثم ينسى بعد تلك الفترة القصيرة . غير ان الكتّاب لا يعتبرون بذلك ، فما من كاتب لا يداعبه الامل في ان جزءا من نتاجه في الاقل سيبقى حيا بعده جيلا او جيلين . ان الايمان بالشهرة بعد الموت غرور لا ضير فيه لانه يخفف على الفنان ما يلقى في حياته من خيبة امل وفشل . ويتضح لنا مدى صحة هذا الايمان بالبعث اذا ما نظرنا الى كتّاب كانوا الى ما قبل عشرين سنة واثقين من خلودهم ، فأين قراؤهم اليوم ؟ وبهذا الخضم من سيل الكتب الذي لا يفتأ ينشر وبالتنافس الدائم فيما بين الكتب العائشة ، ما اضعف الامل في ان تعود الى الذاكرة ذكرى كتاب طواه النسيان ! من الامور الغريبة التي تتصف بها الاجيال الوليدة ما قد يراه بعضهم بعيدا عن الانصاف ، فالظاهر انها تولي اهتمامها للكتب التي تمتع مؤلفوها بالشهرة في حياتهم . والكتّاب الذين نالوا اعجاب زمرة صغيرة ولم يصلوا الى الجمهور لا يمكن ان ينالوا اعجاب الاجيال القادمة فهي لن تسمع بهم. وفي هذا بعض السلوى للكتاب المعروفين الذين القي في روعهم ان شهرتهم كانت دليلا على قيمتهم . ولعل شكسبير وسكوت وبلزاك لم يكتبوا للطبقة المثقفة الصغيرة في (تشلسي) بل الظاهر انهم كتبوا لعصور تأتي بعدهم . فسلامة الكاتب اذن في رضاه عن انتاجه . فان استطاع ان يدرك ان في انتاجه تحرره الروحي ، وان في متعة صياغته بالشكل الذي يشبع الى حد ما حسه الجمالي ، تكمن مكافأته على ما تحمل من عناء ، عندئذ يكون قادرا على اغفال النتيجة الحاصلة .

Twitter: @ketab_n

٥٠

لذلك فان اضرار مهنة التأليف واخطارها تمحى جميعا بحسنة عظيمة واحدة بحيث يزول كل ما يرافقها من صعاب وخيبة امل وحتى الجهد المضني • تلك هي الحرية الروحية التي تهبها له ، فالحياة عند الكاتب مأساة ، ولكنه بما اعطي من موهبة الخلق يستمرىء التنفيس عن النفس ، والتطهّر عن الرثاء والذعر ، الذي قال عنه ارسطو انه هدف الفن • فكل ما فيه من خطيئة ومن حماقة ، والشقاء الذي يحيط به من مرض وفاقة ، وآماله الضائعة ، واحزانه ، وذلّه ، وكل شيء آخر ، يستحيل بقدرته الى مادة يكتبها فيقهرها • انه يفيد من كل شيء ، ابتداء باللمحة الخاطفة لوجه ما في الشارع وانتهاء بحرب تزلزل العالم المتحضر ، من عطر زهرة الى موت صديق ، فما من شيء يقع له حتى يتمثل عنده اغنية ، او قصيدا ، او قصة ، ومن ثم يتخلص منه • الفنان هو وحده الانسان الحر •

ولعل هذا كما نعرف ، هو ما اثار في العالم عموما ارتيابا عميقا في الفنان ، فهو قلما يوثق به • انه يتأثر فتنعكس عنه الانفعالات البشرية دونما تعليل او مسؤولية • والحق ان الفنان لم يشعر قط بأي التزام نحو المقاييس المألوفة • ما الذي يلزمه بذلك ، فغاية الفكر والعمل عند البشر عموما هي سد الحاجة وبقاء النوع ، اما الفنان فيسد حاجاته ويبقي على نوعه بالسعي وراء الفن ، وما يتسلى به الناس جد بغيض عند الفنان • لذلك لا يمكن ان يشبه موقفه ازاء الحياة موقفهم منها ابدا • انه يضع القيم لنفسه ، فيظنه الناس ساخرا من قيمهم لانه لا يقيم وزنا للفضائل ولا للرذائل التي تثيرهم • انه ليس عيابا ساخرا ، غير ان ما يدعونه فضيلة ، وما يدعونه رذيلة ، ليسا مما يعنى به او يهتم • انهما عناصر لا اهمية لها في انتظام الامور التي بها يبتني حريته الخاصة • فمن الطبيعي ان يشعر الاناس العاديون بالسخط عليه ، ولكن ليس في هذا أي خير له • انه عصيّ على الاصلاح •

٥١

عندما بلغت النجاح في الدراما عزمت على ان اكرس بقية حياتي

Twitter: @ketab_n

للكتابة للمسرح ، غير مبال بما يعترضني من مصاعب وعقبات • كنت سعيدا ، رخي المورد ، لا يشغلني غير ما في رأسي من مسرحيات اكتبها • ولست ادري اهو النجاح الذي لم يؤتني بما كنت اتوقع ، او انه كان الانكماش عن هذا النجاح ، ذلك الذي جعل ذكريات حياتي الماضية تأخذ عليّ جوانب نفسي ولما يمض على شهرتي طويل وقت كاتباً مسرحياً• فجيعتي بأمي وانهيار محيطي العائلي وتعاستي في سنوات دراستي الاولى بسبب من سوء اعدادي اثناء تربيتي الفرنسية ، والتي زادها شقاء تلعثمي في الكلام ، ثم مباهج ورتابة تلك الايام الرخية الهنية التي قضيتها في (هايدلبرج) وتعرفي لاول مرة على الحياة الادبية ، ثم مضايقات السنوات القليلة التي امضيتها في المستشفى ، وانبهاري بالحياة في لندن ، كل تلك الذكريات اخذت تعاودني بالحاح لا ينفك ، في منامي ، في نزهاتي ، اثناء قراءات مسرحياتي مع الممثلين ، وعند حضوري الحفلات ، حتى غدت تثقل علي ثقلا ادركت معه انني لن استعيد سلامي ما لم اقم بتسجيل كل ذلك في رواية • كنت اعلم انها ستكون رواية مطولة • ولكيلا يشغلني شيء عنها، رفضت العقود التي سعى مديرو المسارح لعرضها علي ، وابتعدت عن المسرح موقتا •

كنت قد كتبت رواية عن المواضيع ذاتها ، عندما رحلت الى اشبيلية بعد نيل شهادتي في الطب • وكان من حسن حظي ان (فيشر انوين) رفض اعطائي المئة جنيه التي طلبتها عن الرواية ، كما رفض الناشرون الآخرون شراءها بأي سعر ، ولولا ذلك لكنت قد فقدت موضوعا لم تكن حداثة سني يومئذ تعينني على ايفائه حقه • كانت مسوداتها ما تزال على حالها بعد تصحيحها في حينه ، ولكنني لم اعد النظر فيها ، اذ لم اشك في انها ابعد ما تكون عن النضج ، لاني لم اكن قد بعدت عن حوادثها بمدة تكفي لتكون نظرتي اليها معقولة ومنطقية ، كما لم تكن قد تجمعت عندي بعد تلك الخبرة التي اغنت الكتاب فيها بعد عندما كتبته بشكله الاخير • فاذا لم تستطع كتابة هذه الرواية الاولى ان تخمد في نفسي تلك الذكريات المريرة ، فمرد ذلك هو ان الكاتب لا يعتبر نفسه قد تخلص من موضوعه الا بعد ان يراه قد طبع ونشر ، فما ان تتداوله ايدي الجمهور ــ وان يكن جمهورا لا اباليا ، حتى يكون قد تخلى عن ملكيته فتحرر من العبء الذي

Twitter: @ketab_n

اثقل عليه • اسميته (جمال بين رماد) اقتباسا من اشعيا ، ولكني وجدت اني قد سبقت اليه ، فاخترت له عنوان احد الكتب التي وردت في (الاخلاق) لسبينوزا ، فدعوته باسم (عن عبودية الانسان Of Human Bondage) ، وليس هذا من كتب السير تماما ، وانما هو سيرة روائية امتزج فيها الواقع بالخيال امتزاجا لا ينفصم • فالانفعالات انفعالاتي ، ولكن الحوادث لم تنقل كلها كما وقعت ، وبعض مما يقوم به ابطالي لم يقع لي في الحياة ، بل وقعت لاشخاص كانت لي بهم اوثق صلة • لقد حقق لي الكتاب ما اردت ، فما ان نشر على العالم (عالم كانت تعتصره مآسي حرب ضروس تستغرق كل همه لمداواة جراحه ، بله الالتفات الى مغامرات مخلوق خيالي) حتى وجدتني وقد تخلصت الى الابد من عذاب الذكريات المحزنة ، كنت قد سكبت فيه عصارة كل ما كنت اعرفه يومذاك• وبعد الانتهاء منه اعددت نفسي لبداية جديدة •

٥٢

كنت تعبا ، ليس من الناس ومن الافكار التي شغلتني طويلا فحسب، وانما اتعبني الذين كنت اعايشهم والحياة التي كنت احياها • كنت اشعر انني قد نلت كل ما امكنني الحصول عليه من العالم الذي كنت اتحرك فيه: نجاحي كمؤلف مسرحي ، والعيش المرفه الذي واتاني به هذا النجاح ، والوسط الاجتماعي ، والولائم العظيمة في بيوتات عظيمة ، والحفلات الرائعة ، وسفرات عطلة الاسبوع الى الريف ، وصحبة اللامعين من المشاهير من كتاب ورسامين وممثلين ، وامور حب استمتعت بها ، ورفقة اصحابي الهينة ، وحياة رخية مضمونة • كل ذلك كان يكبت انفاسي ويخنقني ، فكنت اتوق الى طراز مختلف من وجود ومن تجربة ، ولكني ما كنت ادري اين اجدهما ، ففكرت في السفر • لقد سئمت الرجل الذي كنته ، فخطر لي ان رحلة بعيدة الى بلد بعيد قد تجددني • كانت روسيا تدور كثيرا في اذهان الناس يومذاك ، وكانت بي رغبة في ان امكث فيها سنة اتعلم خلالها لغتها التي كنت اعرف مبادئها مسبقا ، وان القي نفسي في انفعالات وغموض ذلك البلد الفسيح لعلني واجد فيه ما يغذي روحي ويغنيها • كنت في الاربعين ، ولم يكن الوقت قد فاتني للزواج وانجاب

Twitter: @ketab_n

الاطفال ، وكنت احيانا امتع خيالي بتصور نفسي متزوجا • لم اكن قد خصصت واحدة بعينها كزوج ، وانما الحياة الزوجية هي التي كانت تستهويني ، اذ كانت هي الموضوع الرئيس في الخطة التي اختطها لحياتي (على الرغم من اني كنت جاوزت الشباب وكنت ارى الدنيا قد زادتني حكمة ، فقد كنت ما ازال غرا في كثير من الوجوه) لذلك كان خيالي الساذج يظن ان في الزواج سلاما وخلاصا من مشاكل الغرام ، فبالرغم من ان هذه المشاكل تقع في الاعم الاغلب مصادفة فانها تجرّ في اعقابها كثيرا من المتاعب المعقدة (ذلك ان الحب يقتضي شخصين اثنين ، الحلو عند احدهما قد يكون مرا عند الآخر) • كنت اريد سلاما يتيح لي ان اكتب ما اريد دونما ضياع للوقت ، او ارباك للذهن ، سلاما وعيشا كريما مطمئنا• كنت ابحث عن الحرية فظننتني واجدها في الزواج • كانت هذه التوافه قد خطرت لي اثناء كتابتي (عن عبودية الانسان) ، فحولتها الى خيال ، كما يفعل الكتاب ، ورسمت في نهاية الكتاب صورة لزواج وددته لنفسي، ولكن غالبية القراء لم يعجبهم هذا الجزء من الرواية •

غير ان حادثا لم تكن لي في وقوعه يد وضع حدا لشكوكي ، فقد اعلنت الحرب ، فانتهى فصل من حياتي وبدأ فصل جديد •

٥٣

كان لي صديق في مجلس الوزراء كتبت له استشيره فيما اعمل ، فطلب مني الحضور الى وزارة الحرب • ولكني خشيت ان يعهد الي بعمل كتابي في انكلترا ، ولما كنت اتوق للذهاب الى فرنسا ، فقد التحقت فورا باحدى وحدات سيارات الاسعاف • وعلى الرغم من انني لم اكن أضعف وطنية من غيري ، الا ان هذه التجربة امتزجت في نفسي بمثيرات دعتني الى العناية بكتابة ملاحظاتي منذ ان وطئت قدماي ارض فرنسا ، وثابرت على ذلك الى ان امسى الجهد اليومي شاقا كنت اعود منه تعبا لا يهمني سوى الاخلاد الى النوم • لقد لذّت لي الحياة الجديدة التي وجدتني غارقا فيها متحررا من المسؤولية ، وسرّني ان اتلقى الاوامر بالقيام بذا وبذاك بعد ان لم اكن قد تلقيت امرا منذ ان تركت المدرسة ، كما سرني ان اشعر ، بعد

Twitter: @ketab_n

تنفيذ الاوامر ، بأن الوقت اصبح ملكي ، وهذا ما لم اشعر به يوم ان لم يكن يشغلني غير الكتابة ، بل على العكس من ذلك كنت اشعر ان ليس لي من الوقت دقيقة واحدة اضيعها ، ولكني يومئذ كنت مرتاحا وانا اضيع الساعات الطوال في ثرثرة لا طائل وراءها في المقاهي الصغيرة • كنت ارغب في لقيا الكثرة من الناس ، لاني على الرغم من تركي الكتابة كنت اكتنز غرائبهم في ذاكرتي • وكان بودي ان اتعرض لاي خطر لاكتشف شعوري وانا الذي لم اتعرض لخطر من قبل • ما كنت ارى في نفسي شجاعة كبيرة ، اذ لم اكن اجد حاجة اليها • والمناسبة الوحيدة التي كنت استطيع ان اختبر نفسي فيها كانت يوم ان كنت في (غراند بلاس) في (ايبرس) عندما هدمت قنبلة جدارا كنت اتكىء عليه في اللحظة التي تركته فيها لالقي نظرة على خرائب قاعة (كلوث ميكرز) في الجانب الآخر ، ولقد دهشت لحالتي الذهنية على اثر ذلك •

ثم التحقت بقسم الاستخبارات على اعتبار انني قد اكون اكثر نفعا من قيادة غير متقنة لسيارة اسعاف • وقد راق ذلك لمشاعري الرومانسية ولكونه كان مضحكا في نفس الوقت • فالاساليب التي طلب مني اتباعها في تضليل من قد يتبعني ، والمقابلات الخفية مع الوكلاء في اماكن غير مظنونة ، وتسليم الرسائل بطرق غامضة ، وتهريب التقارير عبر الحدود ، كل ذلك كان امرا لازما ولا شك ، ولكنه كان في نظري امرا قد ابتعد بحقيقته عن الحرب ، ولم يسعني الا ان اعتبره اشبه بمادة قد تنفعني يوما ما ، ولكنه كان من التكرار والابتذال حدا جعلني اشك في امكانية الانتفاع به • وبعد قضاء سنة في سويسرا انتهى عملي هناك • كانت سنة شاقة ، اذ كان الشتاء قاسيا وكان علي ان اقوم برحلات عبر بحيرة جنيف مهما تكن قسوة ظروف الطقس وبالرغم من اعتلال صحتي • بعد ذلك رحلت الى امريكا حيث كانت اثنتان من مسرحياتي على وشك العرض • كنت اريد ان استعيد هدوئي العقلي الذي حطمته حماقتي وغروري بسبب امور لا اود الخوض فيها • وهكذا قر رأيي على الرحيل الى البحار الجنوبية التي كنت احب ان اراها منذ شبابي بعد قراءتي (انحسار المد) و (سفينة الانقاذ) ، وفضلا عن ذلك كنت ابحث عن مادة لرواية طال تفكيري فيها تستمد حوادثها من حياة (بول كوكوين) •

Twitter: @ketab_n

رحت ابحث عن الجمال والحب ، مبتهجا بكوني وضعت بحرا شاسعا بيني وبين المشكلة التي ارهقتني • لقد وجدت الحب والجمال ولكني وجدت كذلك ما لم اكن اتوقعه ، وجدت في نفسي شخصا جديدا ، فمنذ ان تركت مستشفى سنت توماس كنت اعاشر اناسا عندهم للثقافة قيمة ، فدخل في روعي ان لا شيء يفوق الفن اهمية ، ورحت ابحث عن معنى في الكون فلم اعثر الا على الجمال الذي يصنعه الانسان هنا وهناك • كانت حياتي على الظاهر منوّعة مثيرة ، ولكنها فيما وراء ذلك كانت ضيقة • اما الآن فقد ولجت عالما جديدا ، فتحشد كل ما فيّ من غريزة الروائي ليتشرب مبتهجا هذه الجدة • لم يكن جمال الجزر هو وحده الذي اسرني، فقد هيأني لذلك ما وصفه (هرمان ملفيل H. Melville) و (بيير لوتي Pierre Loti) ، وعلى الرغم من روعة ذاك الجمال فانه لم يكن بأروع من جمال اليونان او جنوب ايطاليا • ولا كان هو حياتها الرخية المتداعية المغامرة • بل ان ما شاقني كان تعرفي على اشخاص جدد باستمرار • كنت كالمغرم بالطبيعة يدخل ارضا تمتاز حيواناتها بتنوع بعيد عن التصور • كنت اعرف بعضها من قبل من مطالعاتي ، فشعرت لدى رؤيتها بنفس شعور الدهشة اللذيذ الذي انتابني وانا في ارخبيل الملايو حيث شاهدت طيرا جاثما على غصن ولم اكن قد رأيت مثله الا في حدائق الحيوان ، فخلته لاول وهلة قد فرّ من قفص • وبعض آخر كان غريبا علي فهزني مثلما اهتز (ولاس) عند عثوره على سلالة جديدة • وجدت الانسجام مع هؤلاء الاشخاص سهلا ، وكانوا من اصناف شتى • والحقيقة ان هذا التنوع كان خليقا بالارباك ، الا ان قوة ملاحظتي كانت قد بلغت درجة من التمرس والتدريب لم اجد معها صعوبة في وضع كل منهم في المكان اللائق • المثقفون منهم كانوا قلة ، تعملوا الحياة في مدرسة مختلفة عن مدرستي ، فوصلوا الى نتائج مختلفة • كانوا يختلفون عني اتجاها ، ولكني بمزاجي الخلقي لم يسعني الاستمرار في الظن بأن ما لدي اسمى مما لديهم سوى انه مختلف • كانت حياتهم قد صيغت وفق طراز لم يخل من نظام واتساق ما كانت عين الفطن لتغفل عن ملاحظتهما •

ونزلت من عليائي • لقد بدا لي ان هؤلاء الناس اكثر حيوية من اولئك الذين عرفتهم • انهم لم يحترقوا بجمر متقد ملتهب كأولئك ، بل

Twitter: @ketab_n

بنار حارة آكلة ذات دخان. كان في تفكيرهم ضيق وكان في نفوسهم تحيّز، وكثيرا ما كنت اجدهم بلهاً حمقى فلم ابال بذلك . كانوا مختلفين . فأمزجة الناس في المجتمعات المتحضرة تخفف من حدتها ضرورة الانسجام مع قواعد للسلوك معينة ، والثقافة قناع يخفون خلفه وجوههم . اما هنا فالناس قد كشفوا عن انفسهم دون ستر . فهذه المخلوقات المتنافرة التي ألقيت في حياة ما زالت تحتفظ بكثير من بدائيتها ، لم تشعر بحاجة ما الى ان تكيف نفسها بحسب مقاييس مألوفة ، وقد اتيح لخصائصها الغريبة ان تنمو دونما عائق . والناس في المدن الكبيرة يشبهون كومة من الحجارة القيت في جراب فراحت جوانبها الناتئة يحتك بعضها ببعض حتى تتملس فتغدو وكأنها المرمر . اما هؤلاء الناس فلم يتح لنتوءاتهم ان تحتك ببعضها فبقيت خشنة . انهم اقرب الى عناصر الطبيعة البشرية من اي من الذين عشت معهم دهرا طويلا ، فاندفع قلبي نحوهم مثلما اندفع قبل سنوات نحو المرضى في مستشفى سنت توماس ، فملأت دفتري بملاحظات اصف فيها مظهرهم واخلاقهم ، ومن ثم على اثر استثارة خيالي المكتظ بهذه الانطباعات باشارة او حادثة او فكرة مبدعة ، راحت القصص تتجمع حول عدد من ألمع تلك الانطباعات .

٥٤

عدت الى امريكا حيث ارسلت منها في مهمة الى بتروجراد . كنت مترددا في قبول المهمة التي كانت تتطلب قابليات كنت اراني لا امتلكها ، ولكن الظاهر انهم لم يجدوا انسب مني في حينه ، وكانت شهرتي ككاتب خير (غطاء) لما طلب مني القيام به . لم تكن صحتي على ما يرام ، وكانت ما تزال عندي بقية من علم الطب لاعرف معنى النزيف الذي كان يعتريني ، واظهر التصوير الشعاعي اني مصاب بالسل الرئوي ، ولكني لم اشأ ان افقد فرصة قضاء فترة طويلة في موطن تولستوي ودستويفسكي وجيخوف. كنت ارى انني في فترات فراغي من العمل الذي اوكل الي استطيع ان احظى بشيء لنفسي ذي قيمة . وهكذا وضعت قدمي على رصيف الوطنية الصلب ، مقنعا طبيبي بأني في تلك الظروف المحزنة لم اكن مقدما على مجازفة خطرة ، فرحلت بمعنوية قوية وتحت تصرفي مبلغ غير محدود وأربعة

Twitter: @ketab_n

من الجيكيين المخلصين كضباط ارتباط بيني وبين البروفسور (ماساريك) الذي كان يترأس ما يقرب من ستة آلاف من مواطنيه في انحاء شتى من روسيا • كنت مسرورا بمسؤليتي في مركزي كوكيل خاص يمكن التنصل منه ان اقتضى الامر ، مطلوب منه الاتصال بالاحزاب المناوئة للحكومة ووضع خطة لابقاء روسيا في الحرب ، ومنع البلاشفة من الوصول الى الحكم تؤيدهم السلطات المركزية • ولا ضرورة لاخبار القارىء بأني فشلت في ذلك فشلا محزنا ، ولا انا طالب منه ان يثق بقولي بأني كنت سأنجح لو كنت قد ارسلت قبل ذلك بشهور ستة • ولكن الضربة جاءت بعد وصولي الى بتروجراد بثلاثة شهور فقضت على كل خططي •

عدت الى انجلترا ومعي بعض من تجربة ممتعة حيث قدرلي ان اتعرف عن كثب بواحد من أروع الرجال الذين سبق ان عرفتهم ، وهو (بوريس سافينكوف) الارهابي الذي اغتال (تريبوف) والغراندوق (سرغيس) • ولكني عدت وقد انزاحت عني غشاوة الوهم ، فالثرثرة بدل العمل ، والتردد ، واللامبالاة المؤدية الى الهلاك ، والاحتجاجات الطنانة ، والنفاق، والخمول وغير ذلك مما واجهته في كل مكان ، نفّرني من روسيا والروس• كما اني رجعت وقد هدني السقم ، ذلك اني ، بسبب الظرف الذي كنت فيه ، لم استطع الانتفاع بالطعام الوفير الذي كان مهيأ للسفارات لكي تخدم اوطانها ببطون ملأى ، فكنت ، كالروس انفسهم ، لا يتاح لي الا القتر من الطعام • (عند وصولي الى ستكهلم حيث كان علي ان انتظر المدمرة التي ستعبر بي بحر الشمال دخلت دكان حلواني وابتعت رطلا من الشوكولاته وازدردتها في الشارع) • كان هناك مشروع لارسالي الى رومانيا فيما يتعلق بمؤامرة بولونيا نسيت تفاصيلها الآن ، ولكن المشروع اخفق فلم آسف له ، لان السعال كان يكاد يحطم رأسي والحمى المستمرة كانت تقض مضجعي في الليالي ، فاستشرت ابرع المتخصصين في لندن ، فشحنني الى مصح في شمال سكتلندا فيما لم يكن اي من مصحي (دافوس) و (وسنت موريتز) ملائما • وانقضت السنتان التاليتان في سقم ومرض •

كانت تلك فترة عظيمة ، فقد اكتشفت لأول مرة في حياتي متعة الاضطجاع

Twitter: @ketab_n

في الفراش • انه لمن المدهش ان تتنوع الحيـاة وأنت مستلق في فراشك طوال اليوم ، وما أكثر ما يمكنك ان تفعله وأنت كذلك• لقد سرني الانفراد في غرفتي ذات النافذة الفسيحة مفتوحة لنجوم الشتاء ، واثار في شعورا لذيذا من الاطمئنان والشموخ والحرية • كان الصمت آسرا وكأن الفضاء اللا متناهي ينفذ اليه ، وقد بدا لي ان روحي وهي منفردة بالنجوم قادرة على ركوب المخاطر كلها • لم يسبق لمخيلتي ان كانت بتلك النباهة ، كسفينة تنطلق أمام النسيم والريح تملأ أشرعتها • وتتابعت الايام رتيبة مسرعة ليس فيها ما يشوق سوى الكتب التي قرأتها ، وتأملاتي • وتركت الفراش وفي حلقي غصة •

كان عالما غريبا ذلك الذي سمح لي بدخوله جانبا من النهار ، اختلط فيه برفاقي من المرضى بعد ان تماثلت للشفاء• كان كل واحد منهم ــ ومنهم من أمضى سنوات في المصح ــ يحيا حياته الخاصة المختلفة ، كالذين التقيتم في البحار الجنوبية • كان للمرض وللحياة المغلقة الشاذة تأثير غريب فيهم ، فبعض التوت شخصيته ، وآخر قويت ، وثالث انحطت ، مثلما كان الأمر في (ساموا) أو (تاهيتي) ، انحطاط وقوة والتواء بفعل المحيط الغريب والمناخ الباعث على الوهن والتراخي • اظنني قد تعلمت الكثير عن الطبيعة البشرية في ذلك المصح ما كنت لادرى به لولاه •

٥٥

كانت الحرب قد انتهت عندما شفيت ، فرحلت الى الصين ، يملؤني شعور الرحالة المعني بالفن ويستبد به الفضول ليطلع على ما يستطيع من اخلاق شعب غريب ترجع حضارته الى أزمنة سحيقة في القـدم • ولكني كنت أرى ان عليّ ان التقي اناسا من مختلف المشارب لتزيدني معرفتهم تجربة وخبـرة • وهكذا كان ، فقد ملأت عـددا من المذكرات بوصف الاماكن والاشخاص والقصص التي استوحيتها منهم ، وادركت مـدى الفائدة التي استطيع استخلاصها من الترحال ، فقبل ذلك لم يتعد الامر مجرد شعور غريزي بتحرير النفس من جهة ، وبالحصول على نماذج من السلوك البشري تنفع اغراضي من جهة أخرى • ثم رحلت الى العديد من

Twitter: @ketab_n

الامصار ، وعبرت عددا من البحار ، في البواخر ، وسفن الشحن ، والمراكب الشراعية ، وبالقطار والسيارة والمحفة سيرا على الاقدام وفارسا • وكنت في كل ذلك فاتحا عيني بحثا عن سلوك أو غـرابة أو شخصية • وسرعان ما تعلمت تمييز المكان الذي قد يمدني بشيء فانتظر حتى أناله او اتجاوزه • كنت أتقبل كل تجربة تصادفني • وكنت أسافر في أكثر الوسائل راحة بقدر ما كانت تسمح به نقودي ، فقد كان من السخف ان اركب الخشن لمجـرد الاخشيشان ولكني لم اتردد في القيام بأي عمل بسبب ما فيه من خشونة أو خطورة •

ما كنت يوما من محبي التطلع الى المناظر • لقد قيل الكثير وبحماس كبير عن المناظر العظيمة في العالم حتى انني لاتذكر القليل عنـدما أقف قبالتها • كنت أفضل المناظر المألوفة ، كوخا من خشب على أعمدة يعشش فيما بين أشجار الفاكهة ، أو عطفة في خليج صغير تمتد بمحاذاة أشجـار الجوز ، أو خميلة من الخيزران بمنأى عن الطريق • كان اهتمامي يقتصر على الناس والحياة يحيونها • من طبيعتي أن أشعر بالخجل عند التعرف بغريب ، ولكن كان من حسن حظي انني في رحلاتي كان لي صاحب ذو موهبة اجتماعية لا تقدر ، وكان له مزاج محبوب يسّر له عقد أواصـر الصداقة مع مختلف الاشخاص حال التقائه بهم على ظهـر السفن أو في النوادي والمشارب والفنادق ، فسهل عليّ التعرف بوساطته على عدد كبير من الاشخاص لم أكن لاتعرف عليهم لولاه ، الا عن بعد •

في صحبتي مع هؤلاء كنت أتعمق الى الحد الذي يناسبني ، كانت صحبة يتحملونها دفعا للسأم والوحدة ، صحبة تبقي القليل من الاسرار مكنونا ، ولكنها سرعان ما تنفصم عراها بالانفصال والتباعد • كانت صحبة سليمة لان حدودها قد رسمت مسبقا • واني اذ استعرض الآن ذلك القطار الطويل من الاصحاب لا أجد فيهم من لم يكن لديه ما يطلعني عليه مما كان يسرني • وقد بدا لي اني غدوت في الحساسية وسرعة التأثر كمثل اللوحة الفوتوغرافية • لم أكن اعنى بأن تكون الصورة حقيقية بقدر ما كان همي ان استعين بخيالي في جعل كل شخص التقيه انسجاما معقولا • كانت تلك من ابهج اللعب التي اشتركت فيها •

Twitter: @ketab_n

تقرأ فيما تقرأ ان ليس هناك فرد يشبه آخر وان كل امرىء نسيج وحده • وهذا صحيح على وجه ما ، ولكنها حقيقة يسهل المغالاة فيها ، اذ ان الناس كثيرا ما يتشابهون بالفعل، وهم ينقسمون نسبيا الى بضعة ضروب معدودة ، والظروف المتشابهة تقولبهم قولبة متشابهة ، وآخرون تبرزهم مميزات أخرى• فأنت ، كالعالم بالمتحجرات ، تستطيع ان تعيد بناء الحيوان من عظمة واحدة من عظامه • وكتاب (الاخلاق) الذي كان شكلا مألوفا من أشكال الادب منذ عهد (ثيوفراستوس) ، وكذلك (الامزجة) في القرن السابع عشر ، تدل على ان الناس يضعون أنفسهم ضمن أصناف قليلة معلومة • وكان هذا في الحقيقة أساس الواقعية التي تعتمد في جاذبيتها على التمييز والتعرف • فالرومانسية تولي اهتمامها للشاذ المستثنى ، والواقعية توليه للعادي المألوف • وحياة الناس في ظروف تكاد تكون شاذة في اقطار بدائية ، أو في محيط غريب عليهم ، تؤكد طبيعتهم وتسمهم بسمة خاصة بها ، وعندما يكونون هم مختلفين غير عاديين ــ وهم كذلك أحيانا ــ يكون انعدام القيود على الحرية عاملا في تنمية براعاتهم بحرية يصعب نيلها في المجتمعات المتحضرة • وهكذا تجدك ازاء مخلوقات ليس من السهل على الواقعية ان تجاريها •

كنت قد اعتدت المكوث بعيدا عن الوطن حتى تستهلك قدرتي على التفتح على الغربة ، وحتى تصبح قوة تخيلي عند التقاء الناس عاجزة عن الباسهم لبوسا مترابط الجوانب منطقيا ، فكنت عندها أكر راجعا الى انجلترا لتنظيم انطباعاتي وتصنيفها ، ولأتمتع بقسط من الراحة استعيد به قابلية الهضم والتمثيل في نفسي • وأخيرا ، وبعد سبع من هذه الرحلات الطويلة ، على ما أتذكر ، بدأت أجد نوعا من التشابه في الناس، فقد التقيت مرات أثر مرات انماطا كنت قد التقيتهم من قبل ، فلم يبق فيهم كثير مما يستهويني • فخلصت من ذلك الى الاعتقاد بأني قد بلغت نهاية قدرتي على ان أميز ، بعاطفة وفردية ، الناس الذين قطعت تلك الاشواط البعيدة لرؤيتهم ، اذ لم يكن لدي ادنى شك في انني انا الذي منحتهم تلك السجايا التي اكتشفتها فيهم • وهكذا ادركت ان لم يبق لي في السفر أي رجاء • لقد كدت أقضي نحبي مرتين من الحمى، وكدت أغرق مرة، وأخرى أوشكت ان أكون ضحية نيران العصابات ، فسرني ان أعود الى حياة أكثر انتظاما •

Twitter: @ketab_n

كنت أرجع من كل سفرة وفيّ بعض اختلاف • كنت في شبابي قد قرأت الكثير ، ليس لاني كنت أرى في ذلك نفعا ، بل من باب الفضول والرغبة في التعلم • وسافرت لأني كنت أستمتع بذلك ولكي أجمع ما قد ينفعني في الكتابة ، ولكن لم يخطر لي ان تجاربي هذه سيكون لها أي أثر في ذاتي ، ولم أشعر الا بعد زمان بمدى تأثيرها في خلقي • فباتصالي بأولئك الناس الغرباء فقدت النعومة التي كنت قد اكتسبتها وانا واحد من احجار الجراب في الحياة الرتيبة التي كنت أحياها كأديب ، فاستعدت جوانبي الناتئة الخشنة ، فكنت ، أخيرا ، نفسي • وتوقفت عن السفر لأني ما عدت استزيد منه شيئا • لم أعد قادرا على تطور جديد • لقد نبذت عجرفة الثقافة ، وعدت بمزاج تام من القبول والرضا • لم أطلب من أحد ما لا يطيق • تعلمت التسامح • تقبلت من الناس طيبتهم قانعا ولم يكربني سوؤهم • اكتسبت استقلالا في الروح • تعلمت السير على نهجي الخاص دون اعتبار لما قد يظنه الآخرون • طلبت الحرية لنفسي وكنت مستعدا ان أمنحها لغيري • ان من السهل ان تهز كتفيك ضاحكا عندما يسيء الناس الى الناس ، ولكنه يصعب اذ يساء اليك ، غير اني لم أجد ذلك مستحيلا • وقد خرجت باستنتاج عن الناس وضعته على لسان رجل التقيته على ظهر سفينة في بحر الصين ، جعلته يقول : « سأعطيك رأيي في الجنس البشري ملخصاً ، ايها الاخ • ان قلوبهم في مواضعها السليمة ، غير ان رؤوسهم أجهزة عاطلة تماما » •

٥٦

كنت دائما أرغب في ان اترك الفكرة تنضج في رأسي ببطء فترة طويلة قبل ان أسطرها على الورق ، لذلك ما كتبت أول قصة عن البحار الجنوبية الا بعد أربع سنوات من كتابة ملاحظاتي عنها • لم أكن قد كتبت قصة قصيرة منذ سنوات ، وان كان عملي الادبي قد بدأ بها ، وكان كتابي الثالث مجموعة من ست قصص ، ولم تكن جيدة • ثم رحت أكتب القصص للمجلات على فترات ، وكان وكلائي يلحون عليّ بالكتابة الفكهة ، ولكني ما كنت أجدني راغبا في ذلك ، بل كنت اما متجهّم النفس ، أو ناقما ، أو لاذعا ، وقلما نجحت جهودي لارضاء الناشرين ونيل بعض من المال •

Twitter: @ketab_n

والقصة الاولى التي كتبتها يومئذ كانت (مطر) وقد بدا انها ليست أحسن حظا من تلك التي كتبتها في شبابي ، فقد رفضها الناشرون الواحد بعد الآخر ، ولكني لم ابال بذلك ومضيت في الكتابة حتى أكملت ست قصص ــ نشرت كلها في المجلات ــ واخرجتها في كتاب واحد كان نجاحه مفرحا وغير منتظر. وأعجبني الوضع. أعجبني كثيرا ان أحيا مع مخلوقات مخيلتي اسبوعين أو ثلاثة ، ثم أطرحها جانبا ، فالوقت لا يتسع للمرء لكي يضجر منها مثلما هو يضجر لقضائه أشهرا في صحبتها عند كتابة رواية مطولة . وقد أفسح لي هذا اللون من القصص ، التي لا تتجاوز الواحدة منها بضعة عشر الف كلمة ، متسعا من الوقت لتحسين مواضيعي ، ولو انه فرض عليّ ايجازا حببه اليّ عملي الدرامي .

كان من سوء حظي اني عندما بدأت كتابة القصة القصيرة جديا ، كانت الطبقة الفضلى من الكتّاب في انجلترا وامريكا قد وقعت تحت تأثير (تشيخوف) . عالم الادب يفتقر الى الاتزان بعض الشيء ، فعندما تستبد به نزوة فهو لا يراها عابرة ، بل ينظر اليها وكأنها شرعة من السماء . وهكذا ساد فيما بين تلك الاوساط ان من كانت له ميول فنية وشاء ان يكتب قصصا قصارا فعليه ان يقتفي أثر تشيخوف . فأخذ عددا من الكتّاب ينقلون الكآبة الروسية ، والغموض الروسي ، والتفاهة الروسية ، واليأس الروسي ، والعبث الروسي ، والتردد الروسي ، الى سورى ، وميشيغن ، وبروكلين ، وكلافام ، واشتهروا ايما شهرة . لا بد من الاعتراف بأن تقليد تشيخوف ليس صعبا ، فقد عرفت شخصيا عددا من اللاجئين الروس الذين اتقنوا تقليده . أقول عرفتهم شخصيا لانهم كانوا يرسلون قصصهم اليّ لتصحيح لغتها الانجليزية ، ثم يغضبون عليّ لفشلي في الحصول لهم على مبالغ كبيرة من المجلات الامريكية . كان تشيخوف قاصا جيدا ، الا انه كانت فيه نواح من القصور استطاع بكل حكمة ان يجعلها أساس فنه . لم تكن لديه الموهبة لابتداع قصة درامية متماسكة ، قصة تستطيع ان تؤثر بها على السامعين وانت ترويها على مائدة الطعام ، مثل (الميراث) و (العقد) . والظاهر انه كان انسانا ذا مزاج عملي مرح ، اما كفنان فقد كان ذا طبيعة كئيبة حزينة حملته على النفور والاعراض عن الشدة والحماس . وما الفكاهة عنده ــ وهي مؤلمة في الاغلب ــ الا رد فعل السخط في رجل

Twitter: @ketab_n

صقلت مشاعره القلقة صقلا خاطئا. رأى الحياة في رتابة واحدة ، وشخوصه تعوزهم الفردية المتميزة ، والظاهر انه لم يعن بهم كأشخاص . والى هذا قد تعزى قدرته على جعلك تشعر انهم جميعا بعض جزء من بعض ، كالبلازما الغريبة على الجسم تنساب ثم تذوب بعضاً في بعض ، كذلك يجعلك تشعر بغموض الحياة وعمقها ، الامر الذي وهبه ملكته الفريدة ، وهي ملكة خفيت على اتباعه .

لا ادرى ان كنت قد كتبت قصصا بالاسلوب التشيخوفي ، ولا اريد ان أعرف . كنت أريد ان أكتب قصصا محكم السبك ، يتقدم في خط غير منكسر ابتداء بالعرض وانتهاء بالنتيجة . رأيت القصة القصيرة حكاية ذات حدث واحد ، مادي أو معنوي، يمكن ان تسبغ عليها وحدة دراماتيكية بحذف كل ما هو غير جوهري لتوضيحها . انني لست ممن يرهبون ما يعرف فنيا باسم (المغزى) . كان يمكن ان أخشاه لو لم يكن منطقيا ، فالخشية منه تعزى الى التشبث به أكثر مما ينبغي لمجرد التأثير دونما سبب مشروع . وباختصار ، كنت أفضل ان انهي قصصي بمغزى واحد على مجموعة من المغازي متناثرة .

وهذا ، في رأيي ، هو ما جلب التقدير للكتّاب في فرنسا أكثر مما جلبه لكتّاب انجلترا ، فرواياتنا العظيمة صعبة القياد عديمة الشكل . لقد أحب الانجليز فقدان ذواتهم في هذه المؤلفات الضخمة اللامعة المتناثرة . فهذا البناء الرخو ، وهذا السلوك الهائم والاعتباطي للقصة ، وهذا الخليط العجيب من الشخوص الذين لا يربطهم بالمغزى رابط ، قد وهبهم شعورا غريبا بالواقعية ، وهو ما أثار في الفرنسيين شعورا بالقلق حادا . والمواعظ التي دعا (هنري جيمس) الانجليز اليها في شكل الرواية استأثرت بعنايتهم، ولكنها قلما أثرت في سلوكهم . والحقيقة انهم يرتابون في الشكل ويجدون فيه ضربا من انعدام الجو ، وتزعجهم قيوده . يرون ان المؤلف الذي يقرر لمادته شكلا مقصودا تكون الحياة قد انسابت من بين أصابعه هدرا . بينا يطلب الناقد الفرنسي في كل قطعة أدبية ان تكون لها بداية ووسط ونهاية ، وان يكون لها مرمى واضح التدريج والنمو نحو نهاية منطقية ، وان عليها ان تطلعك على كل دقائق المشكلة بجلاء . ولعلني اكتسبت شعوري

Twitter: @ketab_n

بالشكل من دراستي لموباسان ومن تجاربي كدرامي ، وقد يكون من مزاجي الخاص أيضا ، وهو ما أعجب الفرنسيين ، دون ان يجدوني مثيرا أو ممـلا .

٥٧

من النادر جدا ان تقدم الحياة للكاتب قصة كاملة الصنع ، والحقائق غالبا ماتكون متعبة ، فهي قد توحي بما يلهب الخيال ، ولكنها عندئذ تفرض سيطرتها الخبيثة . والمثل الكلاسيكي لهذا هو (الاحمر والاسود Le Rouge et Le Noir) وهي رواية رائعة ، ولكن الرأي السائد هو ان نهايتها غير مرضيّة ، ولا يصعب معرفة السبب ، ذلك ان (ستندال) أخذ الفكرة من حادث كان له صدى كبير في حينه : طالب لا هوتي يقتل عشيقته فيحاكم ويعدم بالمقصلة . ولكن ستندال لم يضع في بطله (جوليان سوريل) الكثير من ذلك فحسب ، وانما وضع فيه أكثر مما كان هو نفسه يرغب ان يكون في ذاته والذي كان يشعر بألم انه لن يكونه . لقد اختلق شخصية خيالية على امتع ما تكون وخلال ثلاثة أرباع الرواية جعله يسلك باتزان ومعقولية تامين ، ولكنه وجد نفسه مضطرا الى ان يرجع الى الحقائق التي أوحت له بالرواية ، فحمله هذا على دفع بطله للقيام بما لا ينسجم مع طبعه وذكائه ، فتكون الصدمة عليك من الشدة بحيث انك لا تصدق ، وعندما ينتفي تصديقك لما في الرواية لا تعود منجذبا اليها ، اذ تجد ان عليك ان تكون من الشجاعة بحيث تطرح حقائقك جانبا ان هي لم تتسق ومنطق شخصية البطل . لست أدري كيف كان يمكن لستندال ان ينهي روايته ، ولكني أعتقد انه لم يكن ليجد نهاية أسوأ من التي اختارها .

لقد ووجهت باللوم لكوني رسمت شخوصي عن اناس أحياء . ويبدو من النقد الذي قرأته ان احدا لم يسبقني الى ذلك ، وهذا هراء ، فالذي فعلته عادة منتشرة ، فمنذ بداية التاريخ كان للكتّاب أصول لمخلوقاتهم . وأظن ان الباحثين عرفوا اسم الثري النهم الذي اتخذه (بترونيوس Petronius) نموذجا لكتابة (تريمالجيو Trimalchio) ، وكذلك وجد

Twitter: @ketab_n

دارسو شكسبير أصلا لاحد أبطاله ، (جستيس شالو Justice Shallow). وقد رسم (سكوت) وهو الرجل الفاضل المستقيم ، صورة مريرة لابيه في أحد كتبه ، ثم رسم له صورة أخرى في كتاب آخر أقل مرارة من الاولى بعد ان لطف توالي السنين من قسوته عليه • وستندال كتب في أحدى مخطوطاته أسماء الاشخاص الذين أوحوا له بشخوصه • وديكنز رسم صورة لابيه ، كما نعرف جميعا ، في شخصية (مستر مكوبر) وصوّر (لاي هنت) في شخصية (هارولد سكيمبول) • واعترف ترجنيف انه لم يكن ليخلق شخصية مبدئيا ما لم يركز تفكيره حول شخص حي • لذلك فاني أعتقد ان الكتّاب الذين ينكرون الاستفادة من أشخاص حقيقيين انما يخادعون أنفسهم (وليس هذا بمستحيل ما دام من الممكن ان تصبح روائيا ممتازا دون ان تكون ذكيا جدا) أو يخدعوننا نحن • اما اذا صدقوا في انه لم يكن في الواقع شخص بعينه في أذهانهم فسنجد انهم مدينون بمخلوقاتهم الى ذاكرتهم الباطنة أكثر مما هم مدينون بها الى ما لديهم من قوة الخلق والابداع • وما اكثر لقيانا مع (دارتانيان d'Artagnan) و (مسز برودي Mrs. Proudie) و (جين آير Jane Eyre) و (جيروم كوجنار J. Coignard) بأسماء جديدة ولبوس جديد ! ان رسم الشخوص من نماذج حقيقية ليس امرا شائعا فحسب ، بل انه لا مندوحة عنه، ولا ادري ما الذي يدعو الكتّاب الى الخجل من الاعتراف بذلك ، فأنت ، كما قال ترجنيف ، لن تكون قادرا على منح الحيوية والسلوك الخاص لشخوص من خلقك الا اذا كان هناك اشخاص معنيون في ذهنك •

ومع ذلك فأنا اصر على انه خلق ، ذلك اننا لا نعلم الا القليل حتى عن اقرب المقربين الينا ، اننا لا نعرفهم بالقدر الذي يسمح لنا بنقلهم الى صفحات كتاب لنجعل منهم كائنات حية • والبشر مخلوقات محيرة ، كثيرة الظلال ، لا يسهل تقليدها ، كما انها متنافرة متناقضة • فالكاتب لا يستنسخ الاصل ، وانما يأخذ منه ما يريد ، بعضا من مميزات جلبت انتباهه ، او لفتة فكرية الهبت خياله ، فيبني منها شخوصه ، ولا يهمه كثيرا صدق انطباق التشابه ، فكل همه خلق انسجام مقبول يفي بغرضه • وقد يختلف الناتج عن الاصل اختلافا يكون معه من المألوف ان يهتم

Twitter: @ketab_n

الكاتب بتصوير شخص معين في واقع حياته ، في الوقت الذي يكون في ذهنه شخص آخر مختلف عنه كل الاختلاف • ثم ان اختيار الكاتب نماذجه من بين معارفه المقربين او عدم اختياره لهم انما هو محض مصادفة ، فكثيرا ما تكفيه لمحة خاطفة لشخص ما يلتقيه في مقهى ، او يجري مع آخر اطراف الحديث على ظهر سفينة بعض ساعة • ان كل ما يلزمه هو ذلك النزر الخصب من الخميرة يدونها بما له من خبرة في الحياة ومعرفة بالطبيعة البشرية ، وموهبة اصيلة •

والعملية كلها تكون كالابحار تحت ريح رخية ، لولا حساسية الذين يتخذهم الكاتب نماذج لابطاله • ان الانانية البشرية من الجسامة بحيث ان اشخاصا يلتقون كاتبا ما مرة لا يتعبون من البحث عن انفسهم فيما يكتب ، واذا استطاعوا ان يقنعوا انفسهم بأن هذا البطل او ذاك انما استمد شخصيته من شخصيتهم ، فسيرون انهم قد اهينوا ان لم ترسم تلك الشخصية رسما متقنا • وعلى الرغم من انهم لا يتحرجون عن البحث عن اخطاء اصدقائهم والضحك من حماقاتهم ، فانهم ، لما فيهم من غرور لا يطاق ، لا يعترفون بما يرتكبونه هم من اخطاء وحماقات • ومما يزيد في طينتهم بلّة ، ان اصدقاءهم يتظاهرون بالغضب الخبيث والعطف المزيف لما لحقهم من اهانة • وطبيعي ان يكون كثير من الدجل يحيط بذلك كله • ولست اظنني الكاتب الوحيد الذي شوهت سمعته نسوة زعمن بأنني قد مكثت معهن بعض الوقت ثم اسأت الى كرم ضيافتهن بالكتابة عنهن ، بينا انا لم امكث معهن ابدا ، بل ولم اعرفهن او اسمع بهن مطلقا • ان اولاء المومسات العاثرات من الهوان والفراغ بحيث انهن يتعمدن تشخيص ذواتهن في مخلوقات ذوات سلوك كريه لكي يمنحن انفسهن بعض شهرة تافهة في محيطهن الضيق • فقد يتناول الكاتب احيانا شخصا من الاوساط الدنيا ويبتدع منه شخصية نبيلة ذات شجاعة وضبط للنفس ، لكونه رأى في ذلك الشخص سمة مميزة لم يجدها في غيره ممن يعاشرهم • ثم ان من الغريب ألا يتنبه احد الى الاصل ، ولكنك ما ان تعرض لشخص ما بمساوئه ونقاط الضعف فيه حتى ينبري الناس ليشخصوه لك بالاسم • وهذا ما حملني على الاستنتاج بأننا نعرف اصدقاءنا بمثالبهم لا بمحامدهم• والمؤلف قلما يكون راغبا في الاساءة الى احد بل انه يستعين بما لديه من

Twitter: @ketab_n

وسائل لحماية الاصول التي ينقل عنها ، فهو ينسب شخوص خياله الى اماكن مختلفة ويمنحهم وسائل للعيش مغايرة ، وقد يضعهم في وسط مختلف ، ولكن الذي يصعب عليه هو تغيير مظاهرهم • ان السمات البدنية للمرء تؤثر في سلوكه ، ثم يظهر التعبير عن هذا السلوك في مظهره، ولو بصورة بدائية ، فأنت لا يمكنك ان تقصّر الطويل ثم تحافظ على مزاياه الاخرى دون تغيير ، فطول المرء يعطيه وجهة نظر مختلفة عما يحيط به ، وهكذا يتغير سلوكه ، ولا انت بقادر على ان تحيل سمراء قصيرة الى شقراء فارعة • ان عليك ان تتركهما كما هما او قريبا من ذلك ، او ان تتخلى عمّا استثارك فيهما لابتداع شخصية من شخوصك • ولكن ليس لاحد الحق في ان يشير الى شخصية ما في رواية ويقول انه هو المقصود بها ، وانما له ان يقول انه هو الذي اوحى بخلقها ، واذا كان له شيء من حسن الادراك فسيسره ذلك ولا يغضبه ، بل ان ابتداعات الكاتب والهاماته قد توحي له بأشياء تكون ذات نفع له •

٥٨

انا لا اتوهم اشياء عن مركزي الادبي • ان من بين نقّاد بلدي اثنين فقط تناولاني بشيء من الجد • اما الشبان الاذكياء الذين يكتبون المقالات عن القصة المعاصرة فلن يخطر لهم ان يحسبوا لي حسابا • ولست امتعض لهذا ، فهو امر طبيعي ، وما كنت بالداعية لنفسي • في السنوات الثلاثين الماضيات ازداد عدد القراء زيادة هائلة ، وهناك عدد ضخم من الجهلة الذين يريدون معرفة تنال بأيسر جهد ، وهم يظنون انهم يتعلمون شيئا بقراءة روايات يعرب فيها ابطالها عن وجهات نظرهم في اهم احداث الساعة تتّبل بشيء من مسائل الحب والغرام تنثر هنا وهناك لتجعل تلك المعلومات لذيذة الطعم ، فقد اعتبرت الرواية منبرا مناسبا للتعبير عن الافكار ، وكثير من الروائيين استحبوا اعتبار انفسهم قادة من قواد الفكر ، الا ان ما كتبوه كان اقرب الى الصحافة منه الى القصة • انهم يمتازون بتقييم للخبر ، الا ان عيب ما كتبوا هو عيب ما يكتب في الجرائد مما لا ينفع بعد اسبوع من صدورها • الا ان اقبال هذا العدد الضخم من الجمهور على المعرفة في هذه الايام اظهر الى الوجود عددا من الكتب تعالج مواضيع مهمة كالعلم

Twitter: @ketab_n

والتربية والاجتماع وغير ذلك بلغة ليس فيها شيء من الفن • كان نجاح هذه الكتب باهرا ، فقتلت الرواية الدعائية • وازاء استمرار ذاك الرواج وتلك الشعبية ، بدت تلك الكتب أهم فيما عرضته مـن مواضيع تصلح للحديث والجدل من رواية تعالج الشخصية او المغامرة •

اما النقاد الاذكى وقراء القصة المجدون فقد اولوا مزيدا من عنايتهم واهتمامهم للكتّاب الذين قدموا شيئا جديدا من حيث الفن والتكنيك • وهذا امر مفهوم ، ذلك ان الجدة التي عرضوها اضفت شيئا من الطراوة على مواضيع ابتذلها القدم ، فكانت مدعاة لنقاش نافع مثمر •

وقد يبدو غريبا ان تحظى امور كهذه بالكثير من الرعاية والاهتمام • فالاسلوب الـذي ابتدعه (هنري جيمس) واوصله الى درجة الكمال ، بسرد قصته عن طريق احاسيس ومشاعر رقيب كان له ضلع في احداثها ، كان مراوغة رائعة احيت الدرامية التي كان ينشدها في القصة ، وابقت على احتمالية التصديق السائغة لدى كاتب متأثر بالطبيعيين الفرنسيين ، فكانت وسيلة للتغلب على مصاعب تواجه الروائي البصير والقاص الحكيم • اما ما لا يعرفه هذا الرقيب فليبق طي غموض مستساغ • كان هذا ، على كل حال ، اختلافا بسيطا عـن اساليب كتب السير الذاتية وذا منافع مشابهة ، ولكن الحديث عنه كما لو كان اكتشافا جماليا عظيما يكاد يكون سخفا •

من التجارب الاخرى التي نالت اهمية كبرى كان استخدام تداعي الافكار • فالكتّاب ما يزالون معجبـين بالفلاسفة ذوي القيم العاطفيـة والذين لا يصعب فهمهم ، فتوالى اعجابهم بشوبنهاور ، ونيتشه وبرجسن ، وكان من المحتم ان يستهويهم التحليل النفسي ، فقد اتاح للروائي امكانات واسعة ، وادرك كم هو مدين لعقله الباطن في خير ما كتب • واستحثه ذلك عـلى سبر اغوار النفس بتصوير خيالي للعقل الباطن في الشخصيـة التي يبتدعها • كانت خدعة بارعة ممتعة ليس غير • فبدلا من ان يستخـدمه الكتّاب احيانا لغرض معين ، كالتهكم او الدراما او التفسير ، اتخذوا منه اساسا يقيمون عليه انتاجهم فانكشف املاله • واني لاحسب ان ما ينفع في هذا وامثاله من وسائل التعبير سوف يمتزج بالاسلوب القصصي بوجـه عـام ، غير ان الكتب التي كشفت هذه الوسائل سرعان ما ستفقد متعتها •

Twitter: @ketab_n

والظاهر ان الذين خلبت لبهم هذه التجارب الغريبة لم يفطنوا الى ان المواضيع التي تناولتها امثال هذه الكتب تافهة ، وهي تبدو وكأن مؤلفيها قد اندفعوا نحو هذه البدع بدافع من ضمير قلق لعلمهم بفراغهم ، فالاشخاص الذين يصفونهم بهذه البراعة هم في الاصل لا يثيرون اهتماما ، والمواضيع التي يعالجونها لا اهمية لها . وقد يكون هذا متوقعا ، فالفنان يستغرقه الاسلوب ايما استغراق عندما لا يكون لموضوعه اي تأثير ملح عليه ، ولكنه عندما يستحوذ عليه موضوع مهم فلن يجد الوقت الكافي للتصنع في اسلوب عرضه . وهكذا راح الكتّاب في القرن السابع عشر ، بعد ان اضناهم الجهد العقلي لعصر النهضة وحال طغيان الملوك وسيطرة الكنيسة بينهم وبين حرية اختيار المواضيع الحياتية المهمة ، يتجهون نحو الغموض والزخرفة اللفظية والامعان في الخيال وما اليها . ان ما ظهر في السنوات الاخيرة من ايلاء العناية لكل شكل من اشكال التجربة الفنية في مختلف الفنون يشير الى حقيقة كون حضارتنا آخذة بالانهيار ، فالمواضيع التي كانت مهمة في القرن التاسع عشر بدأت تفقد تلك الاهمية ، ولم يعد الفنانون يميزون ماهية المشاكل الكبيرة التي سوف تؤثر في الجيل الذي يصنع الحضارة الجديدة التي هي بسبيل احتلال مكان حضارتنا .

٥٩

وعليه ، فاني ارى الامر طبيعيا ان عالم الادب لم يعن كبير عناية بكتبي . في الدراما كنت اجدني متمكنا منه وفق المقاييس المألوفة ، اما في القصة فاني اعود اجيالا عديدة الى الوراء ، الى راوي الحكايات للمتحلقين حول النار الموقدة في الكهف الكبير الذي يحمي رجال العصر الحجري . كانت عندي قصص تقال فأعجبني ان اقولها . وكان هذا هو الغاية عندي . وانه لمن سوء حظي ان الطبقة المثقفة بدأت تحتقر القصة هذه الايام . لقد قرأت العديد من الكتب حول فن القصة فوجدتها جميعا لا تقيم كبير وزن للحبكة القصصية (وبالمناسبة انني لا افهم الفرق الكبير الذي يقول به بعض النظريين اللامعين بين القصة والحبكة ، فعندي ان الحبكة هي الهيئة التي تصاغ بها القصة) . ولك ان تحكم من هذه الكتب على أن ذلك ليس سوى عائق امام المؤلف الذكي وتنازل منه تجاه رغبات الجمهور

Twitter: @ketab_n

الحمقاوات • والحق انك قد يخطر لك ان افضل الروائيين هو كاتب المقالة وان خير كاتبين للقصة القصيرة هما (تشارلس لامب Charles Lamb) و (هازليت Hazlitt) .

غير ان المتعة الناجمة عن الاصغاء الى قصة طبيعية في البشر ، كالمتعة من النظر الى الرقص والمحاكاة اذ منهما انبثق الدراما ، وهذه حقيقة لا شك في وجودها كأقوى ما تكون بدليل رواج القصة البوليسية التي يقرؤهـا حتى اكثر الناس ثقافة ، ولو بشيء من التنازل بالطبع ، ولكنهم يقرأونها ، فلماذا ، ان لم يكن لان الرواية المعتمدة على علم النفس والتثقيف والتحليل النفسي ــ وهي اللون الوحيد الذي تستحسنه عقولهم ــ لا تمنحهم تلك المتعة التي يحتاجونها ؟ هناك عدد من الكتّاب الموهوبين الذين تحتشد في اذهانهم اشياء طيبة كثيرة وعندهم ملكة خلق الشخوص الحية ، ولكنهم لا يعرفون كيف يسيّرونها بعد اذ يخلقونها • انهم غير قادرين على ابتداع قصة مقبولة الحبك • وهم كالكتّاب جميعا (وفي الكتاب جميعا بعض من دجل قل او كثر) يجعلون من ضيق افقهم هذا خصيصة متميزة ، فهم اما ان يطلبوا مـن القارىء ان يقوم هو بتصور ما يلي مـن حوادث ، او انهم يعنّفونه على رغبته في معرفة النهاية ، زاعمين ان القصة في الحياة الواقعية ليست تنتهي ، وان المواقف لا تتبلور تبلورا نهائيا ، وان النهايات تبقى متأرجحة • وهذا ليس حقا دائما ، فالموت ، في الاقل ، يضع حدا لجميع قصصنا • وحتى لو صح ذلك فانه لا يكون دفعا حسنا •

والروائي يزعم انه فنان ، والفنان لا يحاكي الحياة ، وانما هو ينظّمها بحيث تتسق واغراضه • واذ يفكر الرسام بفرشاته واصباغه ، يفكر القاص بقصته ، فآراؤه في الحياة وشخصيته تبرز ، ولو بغير تقصد ، كسلسلة من الفعاليات البشرية ، فعندما ترجّع نظرك في فـن الماضي لا يسعك الا ان تلاحظ قلة اهتمام الفنانين بالواقعية • انما هم استعملوا الطبيعة للزينة ، وكانوا يحاكونها من حين لآخر محاكاة مباشرة كلما شط بهم الخيال بعيدا عنها بحيث كانوا يضطرون للعودة اليها • وفي مجال الرسم والنحت يمكن القول بأن الاقتراب من الواقعية اقترابا شديدا كان دائما نذيرا بانحطاط مدرسة مـن المـدارس • فانت ترى في تمثال (فيدياس) كآبة (ابولو

Twitter: @ketab_n

بلفيدير) ، وفي (معجزة في بلزامو) لرفائيل تلاحظ تفاهة (بوجرو) • واذن لا يستعيد الفن نشاطه الا بفرض تنازل جديد على الطبيعة • الا ان ذلك امر عارض •

انه لمن الطبيعي ان يرغب القارىء في معرفة ما يحدث للاشخاص الذين استثير اهتمامه بهم ، والحبكة هي الوسيلة التي تشبع بها رغبته تلك • لا ريب ان ابتداع قصة جيدة امر صعب ، ولكن ذلك سبب واه لاحتقارها • والحبكة ينبغي ان تكون متماسكة ومحتملة التصديق بما يتناسب وفكرتها ، ويجب ان تكون ذات طبيعة تبرز تطور الشخصية الذي هو أهم خصائصها في الوقت الحاضر ، وان تكون كاملة بحيث ان حل عقدتها في النهاية لا يستتبع مزيدا من الاسئلة عن شخوصها ، وان يكون لها ، مثل تراجيديات ارسطو ، بداية ووسط ونهاية • واحسب ان معظم الناس لم يفطنوا الى ان أهم استعمال للحبكة هو كونه الخيط الذي يوجه اهتمام القارىء ، وهذا قد يكون اهم شيء في القصة ، ذلك انه بجذب الاهتمام وتوجيهه يمكن المؤلف من حمل القارىء على متابعة القراءة صفحة بعد صفحة ، وبه كذلك يستثير المزاج الذي يريده فيه • والكاتب يتحكم دائما في مسكته لزهر النرد ، ولكن عليه ألا يسمح للقارىء ابدا ان يكتشف منه ذلك ، فبادارته حبكته ادارة بارعة يستطيع ان يجذب اهتمام القارىء حتى يغفل عن المناورة التي لعبت عليه • لست الآن بصدد كتابة بحث فني عن الرواية ، ولا اراني بحاجة الى تعداد مختلف الطرق التي اتبعها القصاصون لبلوغ تلك الغاية • غير ان مدى الاثر البالغ لتوجيه الاهتمام بنجاح ، ومدى الضرر الناجم عن اهمال ذلك ، يتضحان في (الوعي والادراك) وفي (التربية العاطفية) • فجين اوستن تشد القارىء شدا بخيط القصة البسيطة بحيث انه لا يتلبّث ليدرك ان (الينور) متزمتة بغيضة ، وان (ماريان) حمقاء ، وان الرجال الثلاثة دمى لا حياة فيها • وفلوبير ، باستهدافه الموضوعية الصارمة ، لا يوجه اهتمام القارىء الا ابسط التوجيه بحيث انه لا تهمه مصاير سائر الشخوص ، وهذا ما يجعل الرواية صعبة قراءتها • ولا يخطر ببالي كتاب آخر له العديد من المزايا ، ثم لا يبقى منه غير انطباع غامض •

Twitter: @ketab_n

عندما كنت في العشرينات من عمري قال النقاد عني انني قاس ، وفي الثلاثينات قالوا انني ثرثار وقح ، وفي الاربعينات قالوا انني ساخر عيّاب ، وفي الخمسينات قالوا انني كفء ، والآن وانا في الستينات يقولون عني سطحي • لقد مشيت في طريقي متبعا المسار الذي اختطته لنفسي ، جاهدا ان احقق باتتاجي النموذج الذي كنت اسعى اليه • في رأيي انه ليس من الحكمة ان يهمل المؤلفون قراءة النقد ، فمن المفيد ان يتعلم المرء ألا يتأثر بقدح او مدح • من السهل ان يهز المرء كتفيه لامبالاة اذا ما قيل عنه انه عبقري ، ولكن الامر ليس كذلك اذا ما عومل كغرّ ساذج • يريك تاريخ النقد ان النقد ليس منزها عن الخطأ ، وانه لجميل ان يقرر الكاتب متى يوليه اهمامه ومتى يهمله ، وهذا من باب اختلاف الآراء ، حتى انه ليصعب على الكاتب ان يصل الى قرار نهائي عما فيه من مزايا • في انجلترا ميل الى ازدراء الرواية ، فكتاب سيرة عن سياسي مغمور وعن حياة محظية من محظيات البلاط يحظى بعناية كبيرة من النقاد ، فيما تجد حفنة من الروايات يكتب عنها الناقد كمجموعة واحدة ، وهو اذ يكتب عنها انما يبغي من وراء ذلك امتاع القراء على حسابها • والحقيقة البسيطة هي ان الانجليز اكثر عناية بكتب الاعلام من عنايتهم بالفن ، وهذا ما لا ينفع الروائي لانه لا يجد في نقد النقاد ما يجديه في تحسين انتاجه •

ان من سوء حظ الادب الانجليزي ألا يكون فيه ناقد في هذا القرن يرقى الى طبقة بمستوى (سنت بوف) أو (ماثيو ارنولد) أو حتى (برونتير) • ولو وجد لما شغل نفسه كثيرا بالأدب السائد ، ولو فعل ، قياسا على الثلاثة المذكورين ، لما كان في ذلك أي نفع مباشر للكتّاب المعاصرين • فقد كان (سنت بوف) يتمنى لنفسه شكلا من أشكال النجاح سعى اليه ولم يبلغه ، لذلك لم يكن منصفا في تناوله لمعاصريه • وكان (ماثيو ارنولد) هزيل الذوق في تناوله للكتّاب الفرنسيين في عصره ، فليس اذن ما يدعو الى افتراض انه كان خيرا من ذلك لو أنه تناول كتّابا انكليزا • أما (برونتير) فلم يكن سمحا ، فقد كان يقيس الكتاب بمقاييس صارمة ، وكان عاجزا عن رؤية الفضل فيمن يرمي الى هدف

Twitter: @ketab_n

لا يستسيغه هو . كان لقوة شخصيته تأثير لم يكن في مواهبه ما يسوّغها. ولكن بالرغم من كل ذلك فان الكتّاب يفيدون من ناقد يعنى بالادب عناية جد ، فحتى لو أنكروه فانه سيكون ، بمفهوم المخالفة ، باعثا لهم على تحديد أوضح لغاياتهم ويستثير فيهم نخوة تدعوهم الى بذل جهد مقصود أوفى ، ويحثهم على أخذ فنهم بالمزيد من الجد والاهتمام .

حاول أفلاطون في واحدة من محاوراته أن يستدل على تعذر النقد ، ولكنه في الواقع وصل الى أن يكشف مدى التطرف الذي يمكن أن يقود اليه الاسلوب السقراطي أحيانا . والنقد الذي لا طائل تحته انما هو ذلك الضرب الذي يكتبه الناقد ليثأر لنفسه الهوان الذي لقيه وهو في مقتبل العمر ، فيكون النقد عنده وسيلة لاستعادة احترامه لنفسه ، ففي المدرسة لم يكن قادرا على تكييف نفسه طبقا لمقاييس ذلك العالم الضيق ، فطرد منه بالصفع والركل ، فما أن تقدم به العمر حتى أخذ بدوره يصفع ويركل ، بلسما لجراح مشاعره ، فهو يعنى بما ينعكس من نفسه على الكتاب فينتقده ، وليس بما ينعكس من الكتاب على نفسه .

ندر أن احتجنا فيما سبق الى ناقد متمكن حاجتنا اليه اليوم ، فالفنون غدت في حيص بيص : فهذا موسيقي يكتب القصص ، وذاك رسام يتفلسف ، وآخر روائي ينتصب واعظا ، ونرى الشعراء يضيقون ذرعا بموازين الشعر وايقاعه فيسعون الى اقتباس ايقاع النثر ، ونقرأ لكتّاب يحاولون فرض موسيقى الشعر على النثر . فنحن مفتقرون الى من ينقّي مرة أخرى الشوائب الغريبة على كل فن من الفنون ، وينصح الذين يشطّ بهم المسار بأن محاولاتهم لا تقودهم الا الى مزيد من التخبط والخلط . ولكننا نطلب الكثير ببحثنا عن شخص قادر على أن يقول قولته في جميع الفنون بكفاية متساوية . ولكن اذا كان الطلب ينتج العرض فاننا ما زلنا نأمل ان يتقدم يوما ما ناقد يستحق اعتلاء العرش الذي شغله سنت بوف وماثيو ارنولد . أن ناقدا هذا شأنه سيفعل الكثير . لقد قرأت مؤخرا بضعة كتب دعي فيها الى جعل النقد علما من العلوم ، ولكنها لم تقنعني بأن ذلك ممكن ، فالنقد عندي أمر شخصي ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الناقد ذا شخصية عظيمة ، انما من الخطر عليه أن يظن نفسه خالقا شيئا ، فمهمته أن يرشد ويقود ويقرض ويكشف عن مسلك لخلق جديد . ولكنه

Twitter: @ketab_n

ان رأى نفسه خلاقا مبدعا ، فسيشغله الخلق ــ وهو اكثر فعاليات البشر فتنة ــ عن أداء الوظيفة المناسبة له • ولعل من المناسب له أن يكتب مسرحية أو رواية أو شعرا ، فليس هناك من سبيل آخر لاتقانه صنعة الادب ، ولكنه لن يكون ناقدا كبيرا ما لم يدرك أن ليس من شأنه الخلق • ان من بعض الاسباب التي تجعل النقد السائد لا نفع فيه هو ان كتابا مبدعين يتعاطونه كعمل ثانوي ، فلا بدع اذا أن يظنوا أن ما يعملونه هو خير ما يستحق أن يعمل • على الناقد العظيم أن يكون واسعا في عطفه وحلمه سمعته في معرفته وعلمه ، وعليه ألاّ يبني نقده على اللا أباليـة كما يفعل المرء ازاء أمر لا يعنيه ، وانما ينبغي ان يقوم على الابتهاج والترحيب بالتنوع والاختلاف • والناقد يجب ان يكون عالما بالنفوس وبوظائف الاعضاء ليكون قادرا على ملاحظة العلاقات بين عناصر الادب الرئيسية وعقول الناس واجسامهم ، وأن عليه أن يكون فيلسوفا ، فمن الفلسفة يتعلم الناقد الاتزان والعدل وادراك اتّسام شؤون البشر بالزوال • وليس يكفي أن يتعرف على أدب وطنه ، فبمعرفته بالمقاييس المبنية على الادب القديم ، ودراسته للادب المعاصر في البلدان الاخرى ، يستطيع أن يدرك المسير الذي يسلكه الادب في تطوره وبذلك يكون قادرا على توجيه الادب في بلاده • عليه أن يعتمد على العرف ، فهو التعبير الحتمي لمزايا أدب أمة من الامم ، ولكن عليه أن يسعى سعيه الحثيث لتشجيع تطوره في مجراه الطبيعي ، فالعرف قائد لا قيد • عليه أن يتحلى بالصبر والثبات والحماس • ينبغي أن ينظر الى كل كتاب يقرؤه على انه مغامرة جديدة مثيرة ، ويحكم عليه بما في نفسه من سعة في الاطلاع ومتانة في الخلق • والواقع أن الناقد العظيم ينبغي أن يكون انسانا عظيما ، أن يكون من العظمة بحيث انه يدرك ، بكل تواضع وسلامة نية ، ان نقده مهما يكن مهما فلن تكون له قيمة خالدة ، انما فضيلته تكمن في كونه يستجيب لحاجة جيله ويأخذ بيده الى الطريق السوي • وتتعاقب الاجيال ومعها تولد حاجات أخرى ، وامامها يمتد طريق جديد ، وعندئذ لن يبقى لديه ما يقوله، فينبذ جانبا مع كل ما قد قاله •

وناقد هذه نهاية حياته لا يسوى أن يحياها الا اذا أدرك أن الادب أهم مهنة يمتهنها انسان •

Twitter: @ketab_n

٦١

ذلك هو الزعم الذي كان الكاتب يدعيه دائما ، وقد زاد عليه زعما آخر قائلا ان الكاتب ليس كغيره من الناس ولذلك فهو لا يذعن لقوانينهم. وتلقى الناس هذا الزعم بالاستنكار وبالسخرية وبالاحتقار. وقابل الكتّاب ذلك بردود فعل مختلفة بحسب امزجتهم ، فبعض راح يزهو بكونه يختلف عمن كان يميل الى تسميتهم بالقطيع ، متقصدا الشذوذ تقصدا ، فارتدى الصدار الاحمر على غرار (ثيوفيل غوتيه Theophile Gautier) او مثل (جيرار دى نرفال Gerard de Nerval) وراح يمشي في الشارع يقود وراءه سرطانا مربوطا بشريط وردي ، وبعض كان يرى متعة السخرية في التظاهر بأنه لا يختلف عن غيره من الناس ، مثل (براونينغ Browning) الذي ألبس الشاعر فيه لبوس صراف مثر . ولعلنا جميعا لسنا سوى زمرة من ذوي النفوس المتعارضة ، ولكن الكاتب، الفنان ، عنده اعمق الاحساس بذلك . اما الآخرون فان حياتهم التي يحيونها تجعل جانبا منهم هو السائد على الجوانب الاخرى ، لذلك فان هذا الجانب قد يصبح هو الانسان نفسه ، اذا استثنينا العقل الباطن . اما الرسام او الكاتب او القديس فهو دائم التبصر في ذاته بحثا عن واجهة جديدة . انه يعاف تكرار نفسه ، لذلك فهو يسعى ألاّ يكون ذا جانب واحد ، وقد لا يدري فعلا بهذا السعي ، ولذلك لا تتاح له الفرصة ابدا لكي يصبح مخلوقا ثابت الاهواء متسق الشخصية .

واستبد الغضب بالناس الآخرين لاكتشافهم ــ وهم كثيرا ما اكتشفوا ــ الاختلاف البيّن بين حياة الفنان وانتاجه . فالناس لم يستطيعوا التوفيق بين مثالية بتهوفن وضعة نفسه ، وبين سمو فاجنر في الطرب والنشوة وانانيته ودناءته ، وبين انحراف سرفانتس الاخلاقي ورقته وشهامته ، حتى انهم في غضبتهم تلك راحوا يقنعون انفسهم بأن مؤلفات امثال اولئك الرجال لم يكن فيها ما ظنوه من قيمة . وعندما قيل لهم ان شعراء عظاما اتقياء قد خلفوا وراءهم الكثير من الشعر البذيء ، اصابهم الهلع وركبهم شعور من الحيرة بان ذلك كله مخجل ، قائلين : « ما أحطهم من دجالين ! » ولكن الكاتب يرى انه عدد من الاشخاص وليس شخصا واحدا ، وانه لكونه عدة

Twitter: @ketab_n

اشخاص قادر على خلق شخوص عديدين ، ومقياس عظمته هو عدد الشخوص الذين يبتدعهم . وعندما يبتدع شخصية ليس فيها ما يدعو الى الاقتناع بها يعزو ذلك الى عدم وجود شيء من تلك الشخصية في ذات نفسه ، فاعتمد الملاحظة ، فكان واصفا لا خالقا . والكاتب لا يشعر مع الناس ، بل يشعر بهم ، وليس هذا تعاطفا ، فذلك كثيرا ما يؤدي الى العاطفية ، وانما هو ما يدعوه علماء النفس باتحاد الشخصية في الفنان . وقد كان حظ شكسبير من هذا كبيرا حتى غدا اعظم المؤلفين واقلهم عاطفية في نفس الوقت . واحسب ان (غوته) كان اول كاتب بدأ يحس بتعدد الشخصية هذا وعانى منه طوال حياته . كان دائم المقارنة بين الكاتب والرجل اللذين كانهما ، ولم يستطع التوفيق بينهما كفردين متناقضين . انما الغايات تختلف كذلك ، غاية الفنان وغاية غيره من الناس ، فالفنان غايته الانتاج ، وغاية الآخرين الفعل الصحيح ، لذلك يرى الفنان في موقفه من الحياة شيئا من الشذوذ . يقول النفسانيون ان الصورة الذهنية عند الرجل العادي أقل وضوحا من الاحساس وأنها لتجربة واهنة ان تصف المحسوسات ومن عالمها ينبعث الباعث على العمل . وأحلام اليقظة عنده تشبع فيه حاجته العاطفية وتسد رغبات لا تتحقق في عالم الواقع ، ولكنها ظلال باهتة لحياة واقعية ، وهو يدرك في باطنه أن لمطاليب عالم الحس شرعية أخرى . وليس الامر كذلك عند الكاتب ، فالصور والافكار الحرة التي تنبض في فكره ليست باعثا وانما هي مادة للعمل ، ولها كل وضوح المحسوس وجلائه ، وان لأحلام يقظته أهمية لا يكون عالم الحس أزاءها سوى ظلال لا تنالها يده الا بجهد . ان قصوره في اسبانيا ليست بنيانا من رمل ، بل هي قصور حقة يحيا فيها .

وللفنان « أنا » فظيعة لا تطاق ، وينبغي لها ـ ذلك أنه فردي بطبيعته ، فما وجد العالم الا لكي يجرب عليه قوة الخلق عنده ، وهو لا يشارك الناس الحياة الا بجزء من ذاته ، فلا يشعر ، بكليته ، بما ألف الناس من عواطف ، ومهما يشتد الحاح الضرورة عليه فأنه لا يعدو ان يكون متفرجا وممثلا معا . وكثيرا ما يبدو وكأن لا قلب له . والمرأة بما لها من حاسة مرهفة تكون على حذر منه ، وعلى الرغم من أنها تنجذب اليه، فانها تشعر بغريزتها انها لن تستطيع الهيمنة عليه هيمنة كاملة ، ـ وهذا ما

Twitter: @ketab_n

تريده ــ عالمة بأنه سيزوغ منها بشكل ما • ألم يخبرنا (غوته) ، ذلك العاشق العظيم ، كيف كان ينظم الشعر بين ذراعي عشيقته ، واصابعه الراقصة تنقر التفعيلات على ظهرها الجميل ؟ والفنان صعب المعاشرة • ان بامكانه ان يخلص الاخلاص كله لعاطفته الخلاقة ، ومع ذلك فان في دخيلته انسانا آخر غير منزّه عن الخيانة بحقه • لا اعتماد على فنان •

والآلهة لا تمنح المواهب الا ومعها بعض من نقص • فتعدد الشخصية في الكاتب تمكنه ، كالآلهة ، من خلق كائنات بشرية ، ولكنه لن يبلغ الكمال في حقيقة ما يخلق ، فالواقعية نسبية ، واعمق الكتاب واقعية يزيف مخلوقاته بوحي من ميوله ، وهو يراها بعينه هو ، فيزيد من وعيها بذواتها اكثر مما ينبغي لها في الواقع ويجعلها اكثر اغراقا في التأمل وأعقد • انه يلقي بنفسه فيها ليظهرها وكأنها مخلوقات عادية ، ولكنه لن ينجح كل النجاح ، ذلك ان الشذوذ الذي يمنحه موهبته ويجعله كاتبا يحول دائما بينه وبين معرفة كيف يكون الاناس العاديون• وليست الحقيقة هي التي ينشدها ، بل مجرد نقل لشخصيته ذاتها • وكلما عظمت موهبته عظمت قوة فرديته وعمقت خياليته في الصورة التي يرسمها للحياة • يبدو لي أحيانا أنه اذا شاءت الاجيال القادمة ان تتعرف على عالم اليوم ، فلن تطلب ذلك من الكتّاب الذين أثّرت مزاياهم في معاصرينا ، وانما سيلجأون الى كتاب أقل شأنا ، كانوا ، لكونهم كتابا عاديين ، أقدر على وصف محيطهم وصفا أمينا • ولست اريد ذكرهم لأن احدا لا يحب ان يوسم بأنه عادي ، ولو ان الاجيال القادمة سوف تثني عليه • ولكني يجب ان اعترف بأن المرء يشعر بأن صور الحياة التي رسمها (انطوني ترولوب Antony Trollope) في رواياته ادق تعبيراً من تلك التي رسمها (تشارلس ديكنز Charles Dickens) .

٦٢

على الكاتب ان يتساءل أحيانا عما اذا كان لما كتبه أية قيمة عند الآخرين ، ولعل هذا التساؤل ملحّ الآن فيما يبدو لنا العالم ، في اعيننا نحن الذين نعيش فيه في الاقل ؛ وهو يعاني من قلق وتعاسة لم يعان منهما كثيرا

Twitter: @ketab_n

فيما سبق • ان لهذا السؤال عندي دلالة خاصة ، ذلك اني لم اتمنّ ان أكون الا كاتبا • كنت أتمنى ان أحيا الحياة كاملة • كنت قلقا من شعوري بأن من واجبي أزاء نفسي ان أسهم ولو بجزء ضيئل في سبيل الصالح العام• كان الابتعاد عن كل نشاط عام مزاجا طبيعيا فيّ ، فحتى الخدمة في لجان انشئت لبلوغ هدف عابر كنت استصعبها • ولما كنت ارى ان فترة الحياة بأكملها لا تكفي المرء لاتقان الكتابة ، فقد رغبت عن منح النشاطات الاخرى وقتا كنت بأمس الحاجة اليه للوصول الى الهدف الذي كان في ذهني ، فما كنت قادرا على اقناع نفسي بأهمية أي أمر آخر • ومع ذلك ، فانه عندما يعيش ملايين الناس على شفا المسغبة ، وعندما تكون الحرية في معظم ارجاء المعمورة ميتة او تعالج سكرات الموت ، وعندما تعقب حربا عوانا سنوات لا تلمح فيها الآلاف المؤلفة من الجنس البشري لمحة من سعادة ، وعندما يصاب الناس بالذهول والخبل لانهم لا يستطيعون ان يروا أية قيمة للحياة، ولأن الآمال التي أعانتهم قرونا على تحمل شقائها لم تعد الا وهما ، فلا يسع المرء الا ان يسأل نفسه انه اذا لم تكن كتابة المسرحية او القصة او الرواية عبثا عقيما فما عساها تكون ؟ والجواب الوحيد الذي يخطر لي هو ان بعضا منا قد جبلوا وليس في امكانهم ان يفعلوا شيئا آخر • اننا لا نكتب لمجرد اننا نرغب في ذلك ، وانما لأننا يجب ان نكتب • وقد تكون في العالم امور أخرى أدعى الى الانجاز ، فعلينا ان نحرر ارواحنا من قيد الخلق الثقيل • ان علينا ان نمضي قدما ولو كانت روما تحترق ، وحتى ان احتقرنا الآخرون لعدم مدنا يد المعونة بدلو من الماء ، اذ ليس لنا مندوحة عن ذلك، فلسنا نعرف كيف نحمل الدلو • هذا الى ان اللهب المحرق يهزنا هزا فيشحن ادمغتنا بالكلام •

ومع ذلك ، فقد أسهم الكتاب من حين لآخر في السياسة ، وكان تأثيرها عليهم ككتّاب ضارا ، دون ان ألحظ لمساهمتهم تلك أي أثر في مجريات الامور • والاستثناء الوحيد الذي اتذكره هو (دزرائيلي Disraeli) ، ولكننا لا نبعد عن الانصاف ان قلنا ، بهذا الشأن ، ان الكتابة عنده لم تكن غاية لذاتها ، بل كانت وسيلة للتقدم السياسي • اما اليوم ونحن نحيا عصر التخصص ، فمن رأيي ألا يعكف الاسكاف الا على قوالب احذيته •

Twitter: @ketab_n

على أثر سماعي ان (درايدن Dryden) قد تعلم الانجليزية بدراسته لكتب (تيلوتسن Tillotson) ، أخذت أطالع بعضا مما كتب هذا ، فلفتت نظري فقرة منحتني شيئا مـن العزاء بهـذا الخصوص • تقول الفقرة : « ينبغي ان تسعدنا رؤية الاكفياء للحكم يتقبلون تحمل أعبائه ان هم دعوا اليه ، نعم ، وان نكون جد شاكرين لهم بما سيتحملون من صعاب وبما لديهم من جلد لتحمل الحكم والحياة تحت أنظار الجمهور • لذلك فان من سعادة العالم ان يكون هناك أفراد ولدوا وانشئوا لذلك ، وان تكون العادة قد سهّلت الحكم عليهم او جعلته محتملا في الاقل ••• للناس فائدة مـن حياة التقى ، والهدوء ، والتأمل ، ذلك ان امورا عديدة لا تصيبهم بالقلق الفكري ، لأن عقولهم وعواطفهم مقصورة على امر واحد ، ولان كل مجرى طاقاتهم وعواطفهم تجري مجرى واحدا ، وكل افكارهم ومساعيهم تتحد في غرض عظيم واحد ، الامر الذي يجعل حياتهم وحدة واحدة منسجمة » •

٦٣

عند بدء هـذا الكتاب نبهت القارىء الى أن ما انا واثق منـه هو ما لست واثقا من غيره • لقد سعيت الى عرض آرائي عن مختلف الامور في نظام ، ولم أطلب تأييدي عليها من أحد • وعند مراجعة ما كتبته حذفت كلمات في اكثر من موضع على الرغم من انها كانت قد انسابت الى قلمي انسياب طبيعة ، اذ وجدتها مملة ، وان كانت تصف كل ما قلت • والآن اذ اصل الى هذا القسم الاخـير من كتابي ، أجدني مجبرا برغبة ملحة على تكرار القول بأن آرائي ان هي الا ما أعتقده وأراه ، وقد تكون سطحية ، وقد ينقض بعض منها بعضا آخر • ان من المستبعد ان تكون الاستنتاجات ــ وهي نتاج الافكار والمشاعر والرغبات المبينة على شتى ضروب التجارب المضطربة والمصطبغة بصبغة شخصية بذاتها ــ منسجمة مع الضبط المنطقي لفرضية من فرضيات اقليدس • فما كتبته عن الدراما والقصة كان بوحي من معرفة جاءتني بالممارسة • اما الآن وانا بصدد الخوض في امور يعالجها الفلاسفة ، فليست معرفتي باكثر مما يتأتى لرجل عاش سنوات عديدة حياة حافلة منوّعة • والحياة مدرسة الفلسفة ولكنها أشبه ما تكون باحـدى

Twitter: @ketab_n

رياض الاطفال حيث يترك الاطفال وشأنهم مع وسائلهم ، لا يعنى فيها الا بما يثير اهتمامهم ، فيستدرجون الى ما يبدو ان لهم فيه معنى ، ولا يتنبهون الى ما ليس يعنيهم آنيّا • وفي المختبرات تـدرب الجرذان عـلى اكتشاف سبيلها في متاهة ، وسرعان ما تميز بالتجربة والخطأ طريقها الى الطعام • فما اشبهني في هذه المواضيع التي انا بصددها باحد هـذه الجرذان ، اذ ينطلق مسرعا في مسلك المتاهة المتشابكة ، ولكني لا اعلم ان كان فيها مركز سأعثر فيه على ما انشد • انما الذي اعلمه هو ان جميع المسالك مسدودة المخارج •

تعرفت بالفلسفة على يـد (كونو فيشر Kuno Fischer) يـوم كنت احضر محاضراته في هايدلبرج • كانت لـه سمعة عريضة هناك ، وكان في ذلك الشتاء يلقي محاضراته عن شوبنهارو في قاعة شديدة الزحام حتى انه كان على المستمع ان يبكر في دخول الطابور المنتظر للحصول على مقعـد مناسب • كان انيقا ، قصيرا ، ممتلئا ، نظيف الملبس ، مدور الرأس ، اشيب الشعر ، احمر الوجه • كانت عيناه الصغيرتان لامعتين سريعتي الحركة ، وكان له انف مفرطح ناتيء مضحك وكأنه الصق بوجهه لصقا ، حتى لتخاله أقرب الى ملاكم محترف منه الى فيلسوف • كان فكها ذا دعابة ، وقـد كتب بالفعل كتابا في الملح والنوادر ، ولو اني نسيت عنوانه كليا • وكان الطلبة ينفجرون مقهقهين فيما بين حـين وآخر على اثر نكتة منـه • كان جهوري الصوت وخطيبا مفعما حيوية عظيم التأثير • كنت اصغر سنا واقل تجربة من ان افهم الكثير مما قال ، ولكن حصل عندي انطباع واضح عن شخصية شوبنهاور الغريبة الاصيلة ، واحساس مشوش عن القيمة الدرامية لماهية مقولاته الرومانسية • وبعد هـذه السنوات العديدة فاني متردد في التصريح بشيء ، ولكني ارى ان (كونو فيشر) قد عالجها كفن من الفنون وليس كمساهمة جدية في دراسة ما وراء الطبيعة •

ومن يومها قرأت الكثير في الفلسفة ، وكانت قراءات نافعة • والحق ان من بين شتى المواضيع العظيمة التي تستحق المطالعة لمـن يرى المطالعة ضرورة ومتعة ، تكون الفلسفة اكثرها تنوعا ، واوسعها ميدانا ، وألذها اشباعا ، فتاريخ اليونان فيه اثارة تهز المشاعر ولكنه على الاعتبار السابق

Twitter: @ketab_n

خلو من كل شيء ، وسيحل يوم تكون قد قرأت فيه القليل الذي بقي من ادبه وكل مهم مما كتب عنه • وعصر النهضة الايطالية رائع ايضا ، ولكنه موضوع ضيق نسبيا ، والافكار التي اعطته جوهره قليلة ، وسرعان ما ينتابك السأم من فنه الذي استنزف الزمن ما فيه من قيمة الخلق بحيث لم يبق لك سوى الجمال والسحر والتناسق (صفات لك ان تنال منها ما تشاء) كما يضجرك ناسه الذين يقع تنوعهم ضمن اطار واحد • لك ان تواصل القراءة عن النهضة الايطالية الى ما شئت ، الا ان جذوة اهتمامك ستخبو قبل ان تستنفد المادة كلها • والثورة الفرنسية قد تكون موضوعا آخر خليقا بالعناية ، واهميتها انها ذات دلالة واقعية ، وهي قريبة منا من حيث الزمن ، حتى اننا بقليل من جهد الخيال نستطيع ان نضع انفسنا في الاشخاص الذين صنعوها ، فهم يكادون يكونون معاصرين لنا ، وان ما فعلوه وفكروا فيه يؤثر في الحياة التي نحياها اليوم ، فبشكل ما نحن من سلالة الثورة الفرنسية • والمادة فيها وفيرة ، فالمستندات المتعلقة بها لا تحصى ولم ينته القول الفصل فيها حتى اليوم ، فانت واجد دائما الجديد المتع لتقرأه عنها • ولكنها لا تشبع ، فما صدر عنها مباشرة من فن وادب لا يعتد به ، فتراك مدفوعا الى دراسة الاشخاص الذين صنعوه ، وكلما ازددت قراءة عنهم ازددت عجبا من تفاهتهم وسوقيتهم • ان ممثلي اعظم دراما في تاريخ العالم لم يكونوا مؤهلين للقيام بادوارهم • واخيرا تشيح بوجهك عن هذا الموضوع بشيء من الاشمئزاز •

اما علوم ما وراء الطبيعة ، الميتافيزيقا ، فلن تخونك ابدا ولن تبلغ فيها الى نهاية ، وفيها من التنوع مثلما في روح الانسان ، وان فيها لعظمة لانها لا تتناول امرا اقل من المعرفة ككل • انها تعالج الكون ، والله ، والخلود ، وخصائص العقل البشري ، وغرض الحياة ومنتهاها ، وامكانية الانسان وقصوره • فان لم تستطع الاجابة عن الاسئلة التي تهاجم الانسان اثناء رحلته في هذا العالم المظلم الغامض ، فانها لا أقل من ان تقنعه بتحمل جهله بروح من المرح • انها تعلّم المرء الخضوع ، وتغرس فيه الشجاعة والاقدام ، وهي تستهوي الخيال كما تستهوي العقل ، واحسب انها تتيح للهاوي اكثر مما تتيح للمحترف مادة لأحلام يقظته ، احلام هي ألذ المتع التي يزجي بها وقت فراغه •

Twitter: @ketab_n

ومنذ ان الهمني (كونو فيشر) بمحاضراته قراءة شوبنهاور ، رحت اقرأ اهم مؤلفات كبار الفلاسفة • وعلى الرغم مـن وجود الكثير مما لم افهمه فيها ، على ما اجهدت فكري ، فقد قرأتها بكثير من الرغبة والشوق • والفيلسوف الوحيد الذي لم يزل يضجرني هو (هيجل) ، وذلك لنقص فيّ ولا ريب ، فان تأثيره الكبير على الفكر الفلسفي في القرن التاسع عشر لدليل على اهميته • كنت اراه يسهب الى حد الازعاج ، ولم استطع حمل نفسي على تقبل الشعوذة التي بـدت لي انها وسيلته لاثبات ما يريده • ولعلني كنت منحازا ضده بسبب لهجة الاحتقار التي تحدث بها شوبنهاور عنه • ولكني ، مع الآخرين ، من افلاطون فما بعده ، طأطأت رأس التسليم لهم الواحد بعد الآخر بابتهاج الرحّالة المغامر الضارب في ارض مجهولة • لم اكن اقرأ كناقد ، بل كما كنت اقرأ رواية لمجرد المتعة• (سبق ان اعترفت باني لم اقرأ رواية للفائدة بـل للاستمتاع ، فاستميح القارىء مغفرة) • لقد استخلصت وانا الدارس للشخصية ، اعظم قدر من السرور بما انكشف لي من نفسي مما اتاحه لي هؤلاء الكتاب على اختلافهم • كنت ارى الرجل من خلال فلسفته ، فهزني النبل في بعضهم ، وامتعني ما تبينته من غرابة في بعض آخر • احسست بابتهاج رائع وانا اسير مشدوها وراء افلوطين في تحليقه من فذ الى فذ ، ومع اني عرفت منذئذ ان (ديكارت) قد وصل الى استنتاجات لا منطقية من مقدماته الفعلية ، فقد اسرني بجزالـة تعبيره • كنت اذ تقرؤه كأنك تسبح في بحيرة راق ماؤها حتى بان لك القعر • كان ذلك الماء البلوري عجيب الانعاش • واني لأرى في اولى قراءاتي (لسبينوزا Spinoza) تجربة رائعة في حياتي ، فقد ملأتني بشعور من الهيبة والجلال ، كالذي تحس به وانت تتطلع الى سلسلة من الجبال عظيمة •

وعندما تحولت الى الفلاسفة الانجليز وجدتني على شيء من التحيز ضدهم ، فقد انطبع في ذهني وانا في المانيا ان ليس فيهم احـد ذو خطر ، باستثناء (هيوم Hume) الذي ما برز الا بعد ان دحضه (كانط)• ولكني وجدتهم كتابا مجيدين بالاضافة الى كونهم فلاسفة • وبالرغم من انهم قد لا يكونون مفكرين عظاما ــ فما انا في هذا بالحَكم الفيصل ــ فقد كانوا حقا مـن عشاق المعرفـة • ولست اشك في ان قليلـين ممن قرأوا كتاب (ليفياثان) لـ (هوبز Hobbes) لم يأخذهم العجب مـن فظاظة شخصيته

Twitter: @ketab_n

وانجليزيته الصريحة ، كما ان احدا لا يمكن ان يقرأ (محاورات) (باركلي Berkeley) دون ان يخلب لبه سحر ذلك الاسقف البهيج • وحتى ان صح ان (كانط) قد احال نظريات (هيوم) الى هشيم ، فاني اعتقد ان من المستحيل ان يبزه احد في كتابة الفلسفة من حيث الاناقة والتهذيب والوضوح • وهم جميعا ، بما فيهم (لوك Locke) كتبوا بلغة انجليزية خير لطلاب الاسلوب ألاّ يدرسوها • فانا ، قبل ان ابدأ كتابة رواية ، اعيد قراءة (كانديد) كمصدر للوضوح والاناقة والبراعة • واحسب انه ليس مما يضير فلاسفتنا اليوم اذا هم قبل البدء بالكتابة حملوا انفسهم على مطالعة (هيوم) في كتابه (تحقيق عن الادراك البشري) اذ من المشكوك فيه انهم يكتبون بجلاء • قد تكون آراؤهم اثقل وزنا من آراء اسلافهم بحيث انهم يضطرون الى استعمال تعابير ومصطلحات من وضعهم ، وهذا تطرف خطر ، وبخاصة عندما يتناولون امورا تهم المفكرين من القراء ، فيأسف المرء لعدم تمكنهم من تبسيط ما يقصدون حتى يفهمه كل قارىء • قيل لي ان البروفسور (وايتهيد Whitehead) من اكبر ذوي العقول العبقرية المشتغلة بالفكر الفلسفي ، ولكن مما يرثى له ألاّ يعنى دائما بجعل مفاهيمه واضحة • كان (سبينوزا) يتبع قاعدة محمودة بالاشارة الى طبيعة الاشياء بكلمات لم تكن معانيها المألوفة تتعارض مع ما كان هو يضيفه عليها من معان •

٦٤

ليس هناك ما يمنع الفلاسفة من ان يكونوا ادباء ، الا ان اجادة الكتابة لا تكون بالغريزة ، فهي فن يتطلب ممارسة وسعيا • والفيلسوف لا يتوجه بالحديث الى الفلاسفة الآخرين او الى الجامعيين الذين يدرسون لنيل الدرجة ، وانما هو يتحدث ايضا الى الادباء والسياسيين والمفكرين الذين يصوغون افكار الجيل القادم • وهم بالطبع ، يميلون الى فلسفة تلفت النظر ولا تستعصي على الهضم والتمثيل • نحن جميعا نعلم كيف ان فلسفة (نيتشه Nietzsche) قد اثرت في انحاء من العالم ، وقليل اولئك الذين سيدّعون ان اثره كان اقل من كارثة ، غير ان فلسفته لم تعم وتنتشر

Twitter: @ketab_n

لما فيها من عمق في الفكرة ، كما كان ينبغي ، بل لاسلوبها الحي وشكلها المؤثر الذين عرضت بهما • فالفيلسوف الذي لا يبالي ان يكون مفهوما انما يدل على ان ليس لافكاره اكثر من قيمتها الاكاديمية •

ولكن الذي خفف مـن ذلك في نفسي هـو اكتشافي ان الفلاسفة المحترفين انفسهم لا يفهم بعض بعضا احيانا • فهـذا (برادلي Bradley) يعترف انه لا يكاد يفهم كثيرا من مقاصد من يدخل معه في جدل • ويقول البروفسور (وايتهيد) ان بعضا مما يقوله (برادلي) يستعصي عليه فهمه • فاذا كان فلاسفة مبروزن لا يفهم بعضهم بعضا دائما ، فليس من تثريب على الفرد العادي ان هو لم يفهمهم ايضا • لا شك ان الميتافيزيقا عسيرة الفهم ، وهذا امر متوقع ، فالفرد العادي الذي يمشي على حبل مشدود بدون عصا للموازنة عليه ان يكون شاكرا ان هو وصل سالما الى الجانب المأمون ، وهو عمل بطولي مثير يستحق عناء تجنب السقطة •

كان يثبط من عزمي كثيرا الزعم الذي كنت اقرؤه هنا وهناك من ان الفلسفة ميدان مقصور على رجال الرياضيات العالية ، وشق علي ان اصدق ذلك • فاذا كانت المعرفة ، حسب نظام النشوء والارتقاء ، قـد تطورت لاسباب عملية في معمعة الكفاح في سبيل البقاء ، واذا كان مجمل ما فيها ــ ذلك الشيء الجوهري اللازم للصالح العام ــ قد ادخر لزمرة صغيرة ممن وهبتهم الطبيعة ملكة نادرة ، فقد كان من الممكن ان يحال بيني وبين دراساتي الممتعة في هذا الميدان بالنظر لافتقار رأسي الى دماغ رياضي ، لولا اني ، لحسن الحظ ، عثرت على اعتراف من (برادلي) بانه لم يعرف الا القليل جدا من هـذا العلم العويص • وبرادلي هـذا لم يكن من صغار الفلاسفة • من المعروف لدينا ان حاسة الذوق عند الناس تختلف من فرد لآخر ، غير ان وجودها ضروري ، اذ لولاها لهلكوا • وهكذا احسب ان من المستبعد ألاّ يكون لك بعض نظريات معقولة عن الكون وعن موضع الانسان منه ، وعـن غموض الشر ، ومعنى الواقعية ، حتى وان لم تكن رياضيا فيزيائيا ، اذ ليس من المعقول انك لا تستطيب كأسا من الخمر الا اذا كانت لك حاسة ذوق مدربة تمكنك مـن معرفة سنة اعتصارها من بين عشرين نوعا من الخمور مختلفات •

Twitter: @ketab_n

فليست الفلسفة اذا موضوعا يختص به الفلاسفة والرياضيون ، انما هي تخصنا جميعا • صحيح ان اكثرنا تتكون لديه آراء عن مواضيع فلسفية بصورة غير مباشرة ، وان اكثرنا لا يعرف مطلقا ان لتلك الآراء جوانبها الفلسفية ، ولكن ذلك مفهوم ضمنيا حتى في ابسط الناس تفكيرا • والمرأة التي كانت اول من قال : « لا يعيد البكاء حليبا اهرق » كانت فيلسوفة بشكل ما ، اذ ما الذي كانت تعنيه غير ان الندم لا طائل تحته ، وفي هذا ينطوي تسلسل فلسفي تام • يقول الجبري انك لا تخطو خطوة في الحياة دون ان تكون مدفوعا اليها بما انت كائنه في ذات اللحظة ، وذلك لانك لست مجموعة من عضلات ومن اعصاب ومن أحشاء ومن دماغ فحسب ، وانما انت كذلك مجموعة من عادات ومن آراء ومن افكار • ومهما تكن ضعيف الاحساس بها ، ومهما تكن هذه متناقضة ولامنطقية ومتحيزة ، فهي موجودة ومؤثرة في افعالك وفي انعكاسات افعالك • انها فلسفتك وان لم تلبسها لبوس الكلمة والتعبير • ولعل من الخير ان معظم الناس لم يضعوا لها صيغة ما ، والواقع انها لا تكاد تكون افكارا ، او افكارا مدركة في الاقل ، وانما هي ضرب من الشعور غامض ، او هي لون من التجربة ــ كالحس العضلي الذي اكتشفه الفزيولوجيون منذ وقت ليس بالبعيد ــ اشربوها عن طريق الافكار السائدة في المجتمع الذي يعيشون فيه ، واجروا عليها بعض تحوير وفق تجاربهم الخاصة • انهم يمشون في حياة رتيبة ، تكفيهم فيها هذه المجموعة من الافكار والمشاعر المتشابكة • ولما كانت تضم شيئا من حكمة العصور السالفة فانها تفي بالاغراض العادية لحياة عادية • ولكني شخصيا سعيت الى ان اجعل حياتي تسير وفق طراز معين ، ومنذ حداثة سني كنت ابحث عن العناصر التي كنت سأتعامل معها • اردت ان احصل على كل ما استطيع من المعرفة عن البنية العامة للكون • كنت اريد ان اقرر فيما اذا كان علي ان اعنى بهذه الحياة او بحياة قادمة • كنت اريد ان اكتشف ان كنت قوة حرة او ان شعوري بقدرتي على صياغة نفسي وفق ارادتي ليس الا وهما • كنت اريد ان اعرف ان كان للحياة معنى او ان علي انا ان اسعى لمنحها المعنى • فرحت اقرأ على غير هدى •

Twitter: @ketab_n

كان الدين اول موضوع جذبني اليه • فقد عنّ لي ان من اهم الامور التقرير فيما اذا كان هذا العالم الذي اعيش فيه هو الوحيد الذي علي ان احسب له الحساب ، او ان علي ان اعتبره مجرد دار محنة اتهيأ فيها للانتقال الى حياة اخرى • في كتابي (عن عبودية البشر) كتبت فصلا عن فقد البطل ايمانه الذي ترعرع في كنفه • وقرأت مسودة الكتاب سيدة فاضلة كان لها من الطيبة ما حملها على الاهتمام بي ، فقالت عن الفصل المذكر انه غير واف ، فاعدت كتابته ، ولو انني لا أظنني قد حسنته كثيرا ، فقد كنت اصف فيه تجربة مرت بي ، ولا شك في ان الاسباب التي اوصلتني الى تلك النتيجة لم تكن كافية ، فقد كانت لفتى غر ، صادرة عن القلب لا من الرأس• وعلى اثر وفاة والدي انتقلت للعيش مع عمي الذي كان قسّا في الخمسين من عمره ، لم يعقب ، ولا اشك في ان اضطراره الى تعهد طفل صغير كان عبءاً بغيضا عليه • كان يتلو صلواته كل صباح ومساء ، وكنا نذهب الى الكنيسة ايام الاحد مرتين ، فكان يوما مزدحما بالعمل • كان عمي يقول ان الرجل الوحيد في ابرشيته يعمل سبعة ايام في الاسبوع ، والحقيقة انه كان شديد الكسل ، يلقي اعباء العمل في الابرشية على عاتق مساعديه ووكلائه ، ولكني كنت سهل القياد ، وسرعان ما غدوت متدينا شديد التدين ، فتقبلت ما لقنوه لي ، سواء في الكنيسة او بعد ذلك في المدرسة ، بثقة لا جدل معها •

كان هناك امر واحد ذو تأثير فوري علي • فما ان التحقت بالمدرسة حتى اكتشفت عظم بليتي باللعثمة • وكنت قد قرأت في الانجيل انك بالايمان تستطيع تحريك الجبال • واكد لي عمي ان ذلك حقيقة لا ريب فيها • وفي احدى الليالي دعوت الله من كل قلبي ان يكشف عني غمتي غدا عند ذهابي الى المدرسة ، كذلك كان ايماني ، فنمت وكلي ثقة بأني عند استيقاظي في اليوم التالي ساستطيع الكلام دونما تلعثم ، مثلما يفعل الآخرون ، ورحت اتصور الدهشة التي ستعقد ألسنة الاطفال (كنت في السنة التحضيرية) عندما لا يرون اثراً للتلعثم على لساني • واستيقظت ممتلئا استبشارا • وكانت صدمة فظيعة مذهلة حقا لدى اكتشافي اني

Twitter: @ketab_n

ما زلت اتلعثم كأسوأ ما كنت تلعثما من قبل .

وتقدم بي العمر ، ودخلت مدرسة (كينج) حيث كان المعلمون قساوسة . كانوا حمقى، سريعي الغضب ، لم يستطيعوا صبرا على تلعثمي. وهم وان لم يهملوني الاهمال كله ــ وهذا ما كنت افضله ــ فقد كانوا يستأسدون علي . كانوا وكأنهم يعتبرونني مسؤولا عن عاهتي . ثم اكتشفت ان عمي كان انانيا لا يهمه سوى راحته . كان جيراننا من رجال الدين يزورون ابرشيتنا احيانا ، وكانت المحكمة قد غرّمت احدهم لتجويعه بقرته ، وآخر أجبر على الاستقالة من منصبه لادانته بالسكر . قيل لي اننا نحيا في حضرة الله ، وان واجبنا الرئيس هو ان نتأى بارواحنا عن الخطيئة . فما وسعني الا ان ارى ان اولئك القساوسة كانوا يقولون ما لا يفعلون . وعلى الرغم من قوة ايماني ، فقد كرهت ان يفرض علي الذهاب الى الكنيسة فرضا ايام كنت في البيت او في المدرسة . وعند رحيلي الى المانيا رحبت بالحرية التي اتاحت لي الابتعاد عنها . ولكني من باب الفضول ذهبت مرتين او ثلاثة الى القداس الكبير في كنيسة الجزويت في هايدلبرج . وعلى الرغم من ان عمي كان يميل الى الكاثوليك (كان من كبار رجال الكنيسة واثناء الانتخابات كانوا يكتبون على سياج الحديقة : من هنا الطريق الى روما) فما كان يداخله الشك في انهم مكتوون بنار جهنم . كان يؤمن ايمانا مطلقا بالعقاب الابدي . كان يكره دخول المنشقين عن الكنيسة الانكليكانية الى ابرشيته ، ويرى في تسامح السلطة معهم امرا فظيعا ، وما كان يخفف من اثر ذلك عليه سوى اعتقاده بأن اللعنة الابدية محيقة بهم . اما الجنة فهي محجوزة لاتباع كنيسة انجلترا ، لذلك فان نعمة عظيمة من الله قد تولتني برحمتها فهيأت لي ان اتربى في ذلك المجتمع، وكان ذلك رائعا روعة ان يولد المرء انجليزيا .

ولكني في المانيا اكتشفت ان الالمان لم يكونوا اقل تفاخرا بجرمانيتهم من تفاخري بانجليزيتي . كنت اسمعهم يقولون ان الانجليز لا يفهمون الموسيقى ، وان شكسبير لم يقدر حق قدره الا في المانيا . كانوا يتحدثون عن الانجليز كشعب من الكسبة ، ولم يكن يخامرهم ادنى شك في تفوقهم هم كفنانين وعلماء وفلاسفة . فصدمت . وهكذا عندما دخلت القداس

Twitter: @ketab_n

الكبير في هايدلبرج لم يسعني الا ان الاحظ التدين البادي على الطلبة الذين ملأوا المكان حتى المداخل • كان واضحا انهم شديدو الايمان بدينهم مخلصين له اخلاصي لديني • وأثار ذلك عجبي ، فقد كنت اعلم طبعا انهم على باطل واني على حق • من حيث طبيعتي لا احسب اني كنت املك شعورا دينيا قويا ، والا لصعقتني المقارنة بين ما يستدعيه احتراف الانتماء الى الكنيسة والسلوك الفعلي للذين كنت اعرفهم من رجالها ، والذي كنت اشك فيه فعلا ، ولولا ذلك ما كان لتلك الفكرة البسيطة التي خطرت حينئذ تلك النتائج المهمة • فقد خطر لي انني لو كنت قد ولدت في جنوب المانيا لكنت اتربى كاثوليكيا • فشق علي ان القى في العذاب الابدي دون ان تكون لي يد في ذلك • فثارت طبيعتي الساذجة على هذا الظلم • وكانت الخطوة التالية اسهل ، فقد استنتجت ان ما يعتقده المرء لا اهمية له ابدا ، فالله لا يمكن ان يدين الناس لمجرد كونهم من ابناء اسبانيا او من الهوتنتو في افريقيا • وكان من الممكن ان اقف عند هذا الحد ، ولو كنت اقل جهلا لدنت بشكل من الاشكال بالربوبية العقلية ، مثلما كان سائدا في القرن الثامن عشر • ولكن العقائد التي سكبت فيّ كانت مرتبطة بعضها ببعض ، فما ان يتبين ان احداها بعيدة الاحتمال حتى تتبعها الاخريات الى نفس المصير ، وعندئذ يتهاوى كل الهيكل المروع المبني على الخوف من الجحيم، وليس على حب الله ، كما يتهاوى بيت من ورق •

وتوقفت عن الايمان بالله بعقلي ، فشعرت بالفرحة لهذه الحرية الجديدة • ولكن الايمان بالله لا يأتي عن طريق العقل وحده ، ففي غور بعيد من روحي كان الخوف القديم من نار الجحيم ما يزال عالقا يتلكأ ، فظلت فرحتي زمانا مكبوحة الجماح ، يهيمن عليها ذاك القلق الموروث ، فلم اعد اؤمن بالله ، وانما آمنت بالشيطان حتى عظامي •

٦٦

كان هذا الخوف هو الذي اسعى لطرده عندما ولجت عالما جديدا ، بدراستي الطب • قرأت الكثير من الكتب • قرأت فيها ان الانسان جهاز يسير وفق قوانين الميكانيك ، وتأتي النهاية عند ما يتوقف الجهاز عن العمل•

Twitter: @ketab_n

ورأيت الناس يموتون في المستشفى ، فأكدت مشاعري الجافلة ما تعلمته في الكتب • كنت قانعا باعتقادي بأن الدين وفكرة الله معنى استنبطه الانسان كوسيلة للعيش تمثل شيئا كان في وقت ما ــ وكنت عموما ارى انه ما يزال ــ ذا قيمة لبقاء النوع ، الا ان ذلك امر ينبغي ان يفسر تاريخيا دون رابطة بشيء حقيقي ، فكنت بذلك من اللاداريين ، ولكني في دمي وفي عظامي كنت ارى وجود الله فرضية جدلية على الرجل الحصيف ان يرفضها •

ولكن اذا لم يكن هناك اله يرميني في النار الابدية ولا روح ترمى فيها ، واذا كنت مسيرا بقوى آليـة وكان الكفاح في سبيل الحيـاة امرا مفروضا ، فما كنت ارى اي معنى في الخـير كالذي لقنته • ورحت اقرأ كتب الاخلاق ، خائضا بين صفحات مجلداتها الهائلة ، وخرجت منها بأن الانسان ما سعى الا الى ملذاته ، وانه اذا ما ضحى بنفسه في سبيل غـيره فانه فعل ذلك متوهما ان هدفه لم يكن اشباع رغبات نفسه ابدا • ولما لم يكن المستقبل مضمونا فقد كان من حسن الادراك ان ينتهز الانسان كل فرصة للمتعة تنهز لـه • فرأيت انالخطأ والصواب ليسا سوى كلمتـين فحسب ، وان آداب السلوك ليست اكثر من اعراف وضعها الانسان تحقيقا لاغراضه الانانية ، ما كان على الفرد الحر ان يمتثل لها الا بمقدار • واذ كنت يومها ميالا الى التعابير البارعة اللاذعة ، وكانت سائدة حينذاك ، فقد صغت رأيي فيالجملة التالية : لك ان تسير وفق هواك على ان تحذر الشرطي في المنعطف • وعند بلوغي الرابعة والعشرين كنت قد وضعت مجموعة من الآراء الفلسفية اقمتها على مبدأين : العلاقة النسبية فيما بـين الاشياء ، والمحيطية التي تكتنف الانسان • ثم ادركت بعد ذلك ان اولهما لم يكن اكتشافا اصيلا • اما ثانيهما فلعله كان عميقا ، ولكني لوبقيت اعصر دماغي عصرا مدى الحياة لما تذكرت معناه ابدا •

في مناسبة خاصـة قرأت قصـة اسرتني ، وكانت ضمن مجموعـة (اناتول فرانس A. France) باسم (الحياة الادبية) • ومع ان سنوات قد مرت على قراءتي لها فانها ما تزال عالقة بذهني ، وهي كما يلي : عندما ارتقى ملك شاب من ملوك الشرق عرش ابيه حرص على ان يحكم مملكته بالعدل ، فاستدعى حكماء بـلاده وامرهم بتدوين حكمة العالم في كتب

Twitter: @ketab_n

ليقرأها فيتعلم منها افضل سلوك يسلكه • فتفرق الحكماء كل الى اتجاه ، وعادوا بعد ثلاثين عاما مع قافلة من الابل محملة بخمسة آلاف مجلد ، واخبروا الملك ان في تلك المجلدات كل ما تعلموه من تاريخ الانسان ومصيره • غير ان الملك لانشغاله بامور الدولة ، لم يستطع قراءة كل تلك الكتب ، فامرهم ان يختصروا ما فيها من معلومات في عدد اقل من الكتب • وبعد خمسة عشر عاما عادوا بجمالهم تحمل خمسمائة كتاب ، قائلين للملك ان في تلك المجلدات سيجد كل حكمة العالم • ولكنها كانت كثيرة ايضا ، فارجعهم الملك كرة اخرى • ومضت سنوات عادوا بعدها وليس معهم سوى خمسين كتابا • الا ان الملك كان متعبا متقدما في السن ، فلم يكن لديه متسع من الوقت حتى لقراءة تلك الكتب القليلة ، فأمر حكماءه مرة اخرى ان يختزلوا العدد الى مجلد واحد يحتوي على خلاصة المعرفة البشرية ليتعلم اخيرا ما تهمه معرفته • فغاب الحكماء خمس سنوات ، ثم عادوا بعد ان نالت منهم كل تلك السنوات ، ووضعوا خلاصة اعمالهم امام الملك • غير ان الملك كان يعاني سكرات الموت وما كان بوسعه ان يقرأ حتى ذلك المجلد الواحد الذي اتوه به •

ان ما كنت ابحث عنه كان شيئا يشبه ذاك المجلد • كتاب واحد يرد باجابات قاطعة على الاسئلة التي حيرتني ، ويضع النقاط على الحروف بحيث استطيع متابعة حياتي دونما معوق • فقرأت وقرأت • وبعد انتهائي من الفلاسفة الاقدمين تحولت الى المحدثين منهم ، ظانا انني واجد عندهم ما كنت اريد ، فما وجدت بينهم كبير اتفاق • بل وجدتني مقتنعا بالجانب النقدي من انتاجهم ، اما جانبهم الاستدلالي ، فبالرغم من فشلي في متابعة افكارهم ، فلم يستطع حملي على القبول والتسليم •وخرجت من كل ذلك وانا مقتنع بأن الفلاسفة ، على ما يملكون من علم ومن منطق ومن مراكز ، فانهم لم يعتنقوا هذا المعتقد او ذاك لقناعة عقلية به ، بل لأن مزاجهم هو الذي فرضه عليهم ، والا فليس بامكاني ان افهم كيف انهم ، بعد هذا الزمن الطويل ، ما زالوا يختلفون مع بعضهم هذا الاختلاف الكبير • عندما قرأت ــ ولا اعلم اين ــ ان (فختة Fichte) قد قال ان نوع الفلسفة الذي يختاره الانسان انما يعتمد على اي نوع من الرجال هو ، خطر لي انني قد اكون ابحث عن شيء لا وجود له • وقد بدا لي يومئذ انه اذا لم يكن في

Twitter: @ketab_n

الفلسفة حقيقة عامة يتقبلها كل الناس ، وانما فيها الحقائق تتلاءم ومزاج كل فرد ، فليس امامي الا ان اضيق من دائرة بحثي للعثور على الفيلسوف الذي تلائمني اراؤه لتوافق مزاجي بيني وبينه • ان اجاباته عن الاسئلة التي حيرتني ينبغي ان تقنعني ، لانها الاجابات الوحيدة التي ستناسبني •

واستهواني الذرائعيون (Pragmatists) الى حد بعيد زمانا • لم اكن قد انتفعت كثيرا ، عكس ما كنت اتوقع ، بما كتبه الميتافيزيقيون من عمداء الجامعات الانجليزية العظيمة ، فقد بدوا لي أرق وأرهف من ان يكونوا فلاسفة ممتازين ،ولم استطع مقاومة الشك في انهم فشلوا احيانا في ادامة الجدل لحين الوصول الى النتيجة المنطقية خشية ان يسيؤوا الى مشاعر زملاء لهم تربطهم بهم روابط اجتماعية • كان للذرائعيين نشاط وحيوية ، وكانت كتابات كبارهم جيدة ، اسبغوا البساطة على مشاكل لم استطع ان اتبين منها رأسا عن ذنب • ولكني ، بالرغم من رغبتي الشديدة، لم اوفق الى الاعتقاد ، مثل اعتقادهم ، بأن الحقيقة من صنع ايدينا ، نسد بها حاجتنا العملية • ان معطيات الحس التي كنت احسب المعرفة تعتمد عليها كانت تبدو لي كهبة ينبغي قبولها سواء أكانت متفقة مع العرف ام لم تكن • كذلك لم يرضني القول بأن الله موجود اذا كان في الاعتقاد بوجوده عزاء لي وسلوة • ومن ثم لم يعد الذرائعيون يثيرون اهتمامي • كان يطيب لي ان اقرأ (برجسن Bergson) وان لم يقنعني بشيء ابدا • كذلك لم اجد في (بنديتو كروس Benedetto Croce) ما ينفعني • ولكني من جهة اخرى وجدت في (برتراند راسل Bertrand Russell) كاتبا اعجبني ايما اعجاب، فقد كان سهل الفهم ، جيد اللغة ، فقرأته مستحسنا •

كنت قوي الرغبة في اتخاذه مرشدا اقتفي اثره • كان واسع الحكمة، سليم الادراك ، يتحلى بالصبر والتسامح ازاء ضعف بني البشر • ولكني اكتشفت انه قدوة غير متشبت من الطريق • كان ذا عقل كثير التململ ، كالمعمار الذي تقصده ليبني لك دارا تسكنه ، فيقنعك ببنائه من الآجر ، فاذا اقتنعت ، يعود ليضع امامك الادلة والبراهين لحملك على بنائه من الحجر ، وعندما تقره على ذلك ، يعرض عليك اسبابا اخرى لا تقل اقناعا تثبت لك ان خير مادة تستعملها للبناء هي السمنت المسلح • وانت اثناء

Twitter: @ketab_n

ذلك تظل ولا سقف لك تستظل به. كنت ابحث عن فلسفة متسقة الجوانب، مكتفية ذاتيا ، كالتي قال بها (برادلي) ، يرتبط كل جزء منها بالجزء الآخر بالضرورة ، بحيث لا يمكن اجراء أي تعديل عليها دون ان تتهاوى الاجزاء قطعا متناثرة . وهذا ما لم يعطينه برتراند راسل .

واخيرا استنتجت انني لن اعثر على الكتاب الفرد الكامل الوافي الذي كنت ابحث عنه ، لان كتابا كذلك لايكون الا تعبيرا عن نفسي . وهكذا ، وبكثير من الشجاعة وقليل من التحفظ ، قررت انني انا الذي يجب ان اكتبه بنفسي . فجمعت الكتب المقررة للطلبة الراغبين في نيل درجة فلسفية ودرستها درسا ، معتقدا ان ذلك سوف يهيء لي اساسا اقيم عليه كتابي وحاسبا اني بهذا ، وبمعارف العالم التي اكتسبتها خلال الاربعين سنة من حياتي (كنت في الاربعين عندما خامرتني هذه الفكرة) ، وبدراستي العميقة للادب الفلسفي الذي عزمت على ان اكرس بضع سنوات له ، سأكون مؤهلا لتأليف الكتاب الذي كان يراود فكري . كنت مدركا ان كتابا كذاك لا تكون له قيمة ، عدا ما له عندي ، الا من حيث كونه قد يعطي صورة متناسقة لروح (لا اجد كلمة أدق) انسان مفكر كان أملأ حياة واكثر تجربة مما يكون عادة من نصيب الفلاسفة المحترفين . كنت عالما باني لا املك الموهبة اللازمة للتخمينات الميتافيزيقية . كنت اريد ان آخذ من هنا ومن هناك نظريات لا ترضي عقلي فحسب ، بل ترضي ما كنت اراه اهم من عقلي ، ذلك هو كل غرائزي ومشاعري واهوائي ، تلك الاهواء التي هي من اللصق بالمرء حتى ليصعب تمييزها عن الغرائز ، فاصوغ منها نظاما ساري المفعول عليّ ويمكنني من متابعة مسيرتي في الحياة .

ولكني كلما ازددت قراءة ازداد الموضوع تعقيدا امامي وازددت ادراكا بجهلي . ومن الغريب اني كنت اتضايق من المجلات الفلسفية التي كانت تناقش باسهاب مواضيع كانت مهمة ولا ريب ، ولكنها بدت لي ، وانا في ذلك الظلام ، مواضيع تافهة ،كما ان الطريقة التي كانت تعالج بها تلك المواضيع ، والاسلوب المنطقي ، والعناية التي كانت تناقش بها كل نقطة ، والاعتراضات المحتملة التي كانت تردها ، والاصطلاحات التي كان كل كاتب يحدد معناها عند اول استعمال لها ، والمصادر التي يقتبس منها ، كل

Twitter: @ketab_n

ذلك اثبت لي ان الفلسفة مهنة للخبراء وحدهم ان يتناولوها فيما بينهم • اما القارىء العادي فكان امله ضئيلا في ادراك دقائقها • كنت ساحتاج الى عشرين سنة لاعداد نفسي لكتابة الكتاب الذي اقترحته ، ويوم يتم اكون مثل الملك في قصة اناتول فرانس ، على فراش الموت ، وعندئذ لا يكون للجهد الذي بذلته اي نفع ، لي انا في الاقل •

فنبذت الفكرة • وكل ما عندي الآن للدلالة على جهودي تلك هو الملاحظات العابرة القليلة التي سأذكرها فيما يلي • ولست ادعي باصالتها ، ولا حتى لمفرداتها • فمثلي مثل المتشرد الذي لم يجد ما يرتديه سوى بنطلون تعطفت به عليه زوجة فلاح ، وسترة انتزعها عن فرّاعة المزارع ، واحذية مشوهة استنبشها من المزبلة ، وقبعة عثر عليها في قارعة الطريق • انها مزع ورقع ، ولكنه حشر نفسه فيها مرتاحا ، وعلى الرغم من انها قد لا تكون لائقة ، الا انه يجدها تلائمه كل الملاءمة ، واذا ما مرّ برجل انيق ببدلة زرقاء وقبعة جديدة وحذاءاً لامعاً ، فقد يراه منظرا عظيما ، ولكنه لا يكون واثقا من انه لو ارتدى مثل لباسه نظافة واناقة لشعر بنفس الراحة التي يشعر بها وهو في اسماله الرثة البالية •

٦٧

عند قراءتي (كانط) وجدتني مجبراً على التخلي عن المادية التي استهوتني في شبابي ، ومعها الاتجاه الفزيولوجي المواكب لها ، اذ لم اكن يومها قد سمعت بالاعتراضات التي افسدت نظرياته • وجدت رضا عاطفيا في فلسفته دفعني للتأمل في المجهول (لذاته) ، وكنت قانعا بالعالم الذي بناه الانسان من المظاهر ، فقد منحني ذلك احساسا غريبا بالحرية • وتمسكت بعناد بقاعدة ان عليك ان تعمل عملا يمكن ان يصبح قانونا عاما • كنت شديد الايمان باختلافات الطبيعة البشرية لدرجة انني لم ابحث عن معقوليتها • كنت احسب ان الحق عند امرىء قد يكون باطلا عند آخر • وكنت من جهتي اود لو انني تركت وشأني ، ولكني لاحظت ان الكثيرين لا يودون ذلك ، فان تركتهم وشأنهم حسبوني قاسيا ، لاباليا ، انانيا •

Twitter: @ketab_n

ولكن ليس بامكان المرء ان يدرس الفلاسفة المثاليين طويلا دون ان تصادفه الذاتيــة (Solipsism) التي على حافتها تحوّم المثالية ، فيشيح الفلاسفة بوجوههم عنها خجلا كالخشفة الفزعة ، غــير ان مقولاتهم لا تفتأ تعيدهم اليها • احسب انهــم يتجنبونها لكونهم لا يتابعون تلــك المقولات حتى النهايــة • والذاتية نظرية قلما تخيب في اغراء كاتب القصــة ، فمدعياتها مجالات مألوفة لتطبيقاته • ان لها شمولية ولباقة تجعلانها اقوى ما تكون جاذبية • ولما كنت لا اظن ان كل قارىء لهذا الكتاب يعرف كل شيء عــن مختلف ضروب الفلسفة ، فليعذرني القارىء العليم اذا ما شرحت باختصار ماهية الذاتية • يؤمن الذاتي بذاته وبتجاربه فحسب ، وهو ينشىء العالم مسرحا لفعالياته، وعالمه هذا يتألف من نفسه وافكاره ومشاعره وليس هناك من وجود لأي شيء آخر غير ما ذكر • وكل ممكن المعرفة ، وكل حقيقة من حقائق التجربة ان هو الا فكرة في عقله ، ولا وجود لها الا بوجود عقله ، فليس من المحتمل عنده ، ولا هو ضروري له ، ان يسلم بشيء خارج نفسه• الحلم والواقع عنده سواء ، فالحياة حلم يخلق فيها الاشياء التي تجابهه بنفسه • انهــا حلم مترابط بانسجام ، وما ان يتوقف الحلم حتى يكون العالم بما فيه مــن جمال وافراح واحزان وما لا يتصور قد توقف عــن الكينونة • انها نظرية كاملة ، الا ان فيها نقصا واحدا ، انها لا تصدّق •

عندما عنّ لي ان اؤلف كتابا عن هــذه الامور ، ظننت ان علي ان ابدأ من البداية ، فدرست نظرية المعرفة ، فلم اجد ايا مــن النظريات التي تفحصتها مقنــعة كل الاقناع • ان للرجل العادي (وهو هــدف احتقار الفيلسوف ، الا اذا صادف واتفقت آراؤه مع آراء الفيلسوف ، وعندئذ تجده يسبغ عليها الكثير من الأهمية) وهو غير مؤهل للحكم على قيمة تلك النظريات ، الحق في ان يختار منها تلك التي تناسب ما يشغله • واذا لــم يشأ المرء الامتناع عن ابداء رأيه ، فاني ارى الكثير من المعقولية في النظرية القائلة بأنه ، فيما عدا بعض المسلّمات الاساسية التي يسمونها المعطيات ، وفيما خلا وجود العقول الاخرى ، لا يمكن للانسان ان يتأكد من اي شيء• وان كل ما لديه من معلومات اخرى مــن صنع خياله ، اصطنعها اصطناعا لاغراض معيشية ، ولاضطراره لتكييف نفسه في مضمار التطور وفق محيط دائم التغير ، فقد صنع صورة من نتف اخذها من هنا ومن هناك مما لاءم

Twitter: @ketab_n

اغراضه . ذاك هـو عالم الظواهر الذي قالوا به ، وما الحقيقة الا مجرد فرضية جدلية تسببت عنه . وما كان الامر ليختلف لوانهم اخذوا تتفا غير تلك فصاغوها صورة اخرى ، فالعالم المختلف الناتج عنها لا يكون اضعف ترابطا او أصدق من العالم الذي يخيل لنا اننا نعرفه .

ليس من السهل اقناع الكاتب بان ليس هناك كبير تفاعل بين الجسم والعقل . فالتجربة التي عاناها (فلوبير) من اعراض التسمم بالزرنيخ اثناء كتابته عن انتحار (ايما بوفاري) ليست الا مثلا نادرا مما يتعرض له القاص، فمعظم الكتاب يصيبهم البرد وتنتابهم الحمى ولهم اوجاعهم وآلامهم وينال منهم الغثيان احيانا وهم منهمكون بالتأليف ، وهم في نفس الوقت يدركون الحالات المرضية التي يدينون لها باجمل ابداعاتهم . وهم اذ يعلمون ان الكثير من اعمق عواطفهم والكثير من افكارهم التي تبدو وكأنها الهام من السماء ، قد تكون ناشئة عن قلة تريضهم او لضعف في اكبادهم ، فلا بد انهم ينظرون الى تجاربهم الروحية نظرة تهكم ، وهي نظرة نافعة ، فبهـا يقدرون على معالجتها . اما انا فان من بين مختلف النظريات عن علاقة المادة بالروح والتي يعرضها الفلاسفة امام انظار العامة ، ارى ان اكثرها ارضاءاً هي نظرية (سبينوزا) القائلة بان الجوهر بالقوة والجوهر بالفعل شـيء واحد . ولكننا اليوم من الأنسب بالطبع ان ندعوه بالطاقة . واذا لم اكن مخطئا فان برتراند راسل قد اعرب باسلوبه الحديث عن فكرة لا تختلف كثيرا عندما تحدث عن (شيء) محايد هو المـادة الاولية في عالمي العقل والجسم . ولكي اصور ذلك لنفسي ، رأيت الروح كمثل نهر يشق طريقه في غابة المادة ، ولكن النهر هو الغابة والغابة هي النهر ، لأن كليهما واحد . وليس يبدو مستحيلا ان ينجح علماء الاحياء في المستقبل في خلق الحياة في مختبراتهم ، وعندئذ قد يتاح لنا ان نزداد معرفة بهذه الامور .

٦٨

غير ان اهتمام الرجل العادي بالفلسفة اهتمام عملي ، فهو يريـد ان يعرف ما هي قيمة الحياة ، كيف يجب ان يحيا ، ما المعنى الذي يضفيه على

Twitter: @ketab_n

الكون • ولكن عندما ينكص الفلاسفة على اعقابهم ، رافضين اعطاء جواب حتى وان لم يكن باتا ، انما هم يتقاعسون عن تحمل مسؤولياتهم • واهم مشكلة تواجه الرجل العادي هي مشكلة الشر •

من الغريب ان نلاحظ ان الفلاسفة عند كلامهم على الشر يتمثلون بألم الاسنان ، فيقولون ، وهم صادقون ، بانك لا يمكن ان تحس بألم اسناني انا • فالظاهر انهم في حيواتهم الرخية الظليلة لا يقض مضاجعهم سوى هذا الألم ، حتى ان المرء ليستنتج انه بعد تحسن طب الاسنان تحسنا كبيرا في الولايات المتحدة فان بالامكان اعتبار هذه المشكلة قد وضعت على رف الاهمال • كثيرا ما خطر لي انه كان من الخير لو ان الفلاسفة ، قبل ان تمنح لهم الدرجات التي تجيز لهم تلقين الشباب حكمتهم ، قد فرض عليهم قضاء سنة في الخدمة الاجتماعية في الاحياء الفقيرة باحدى المدن الكبيرة ، او ان يقوموا بجهد عضلي لنيل لقمة العيش • فلو انهم شاهدوا طفلا يموت بالتهاب السحايا لأمكنهم ان يواجهوا بعض ما يعنيهم من مشاكل بعين اخرى •

ولو لم يكن الموضوع ذا اهمية ملحة لكان من الصعب قراءة الفصل الخاص بالشر في كتاب (المظهر والواقع) دونما سخرية • انه فصل مهذب الى حد مرعب يجعلك تشعر ان من السوء ان تولي الشر اهمية كبيرة ، فمع ان الشر موجود لا ينبغي انكاره ، فلا داعي لاثارة الصخب حوله ، وان هناك على كل حال كثيرا من المبالغات بشأنه ، وانه لمن الواضح ان فيه خيرا كثيرا • كان (برادلي) يرى ألا وجود للألم على وجه العموم ، وان الحقيقة المطلقة اوسع مجالا للجدل والنقاش لما تشمل من اختلاف • ويقول انه مثلما تؤدي المقاومة والضغط في اجزاء الماكنة الى غاية تتجاوز تلك الاجزاء ، فكذلك ، وعلى مستوى ارفع كثيرا ، يكون الامر بالنسبة للحقيقة المطلقة ، فان كان ذلك ممكنا فانه حقيقي لا ريب فيه • فالشر والخطأ يمهدان لمجال ارحب حيث به يتحققان • انهما يؤديان دورا في خير اعلى ، وبهذا المفهوم يكونان خيرا دون ان نعرف • فالشر ، باختصار ، خدعة من خدع حواسنا ليس غير •

وحاولت ان اعرف ما الذي يقوله فلاسفة المدارس الاخرى بهذا

Twitter: @ketab_n

الشأن • لم يكن هناك الكثير ، ولعله لا يوجد الكثير مما يقال عن ذلك ، فالفلاسفة يولـون اكبر اهتمامهم ، بالطبع ، للمواضيع التي يستطيعـون التحدث عنها باسهاب • وفي القليل الذي قالوه وجدت الاقل مما يفيدني • قد يكون ان الشر الذي تتحمله يهذبنا ، ومن ثم يجعلنا خيرا مما كنا ، ولكن الملاحظة تمنعنا من التفكير في ذلك كقاعدة عامة • قـد تكون الشجاعة والعطف خصلتـين حميدتين ، ولكنهما لا يمكـن ان يكون لهما وجـود الا بوجود الخطر والتألم • مـن الصعب ان ندرك كيف يمكـن لوسام فكتوريا الذي يمنح لجندي يخاطر بحياته لانقاذ رجل اعمى، ان يكون عزاء وسلوة للاعمى لفقد بصره • والتصدق دليل الاحسان ، والاحسان فضيلة، ولكن هل يكون هذا الخير تعويضا عـن الشر المتمثل في المتصدق عليـه والذي كان فقره داعية للخير ؟ والشر كلي الوجود ، فهناك الالم والمرض والموت الذي ينزل بأحبتنا والفقر والجريمة والاثم وخيبة الامل ، والقائمة لا تنتهي • فما عسى يكون عند الفلاسفة من تفسير ؟ بعض يقول ان الشر لازمة منطقية لادراك الخير • وبعض يقول ان التعارض بين الخير والشر من طبيعة العالم ، فهما لازم وملزوم ميتافيزيقيا • وما عسى تكون تفاسـير اللاهوتيين ؟ يقول بعض منهم ان الله قد اوجد الشر على الارض لتوجيهنا ولتسديد خطانا • ويقول بعض آخـر ان الله ينزل الشرور عـلى الناس ليعاقبهم على آثامهم • ولكني انا قد رأيت طفلا يموت بذات السحايا • لقد وجدت ان التفسير الوحيـد الذي يتفق مع مدركاتي وخيالي هـو نظرية تناسخ الارواح • كلنا نعلم ان مفاد هذه النظرية هو ان الحياة لا تبـدأ بالولادة ولا تنتهي بالموت ، بل هي حلقة في سلسلة لا تنتهي من الحيوات ، كل حياة منها محدودة بما فعلت في وجوداتها السابقة ، فالاعمال الصالحة قد تسمو بالانسان الى اعتاب السماء ، والاعمال الطالحة تهوي بـه الى اسفل دركات الجحيم ، وكل حياة لها نهاية ، حتى حيوات الآلهة ، والسعادة في التخلص من سلسلة الولادة هذه ، والاستكانة الى حالة الركود التي تدعى باسم (نيرفانا) • وفيها ايضا ان المرء لا يصعب عليـه تحمل شرور حياته بالذات ان هو آمن بانها ليست سوى نتيجة حتمية لأخطاء ارتكبها في وجود سابق ، كما ان بذل الجهد للقيام بالاعمال الصالحة يكون اسهل لوجود الامل بنيل سعادة اوفى جزاءاً على ذلـك • ولكن اذا كان شعور الانسان بآلامه أمضّ من شعوره بآلام غيره (اني لا احس بألم اسنانك ،

Twitter: @ketab_n

كما يقول الفلاسفة) فان مصائب الآخرين هي التي تثير سخط الانسان ، اذ من الممكن ان يستسلم المرء لما يصيبه ، غير ان الفلاسفة المأخوذين بكمال الحقيقة المطلقة هم وحدهم القادرون على النظر الى مصائب الآخرين بمثل نظرتهم الى مصائبهم ، وان كانت لا تستحق ذلك في الاغلب • فان صحت نظرية (الكرما) هـذه ، فللمرء ان ينظر اليها باشفاق ولكـن بثبات ، فالاشمئزاز او رد الفعل المفاجىء لن يكون ذا موضوع ، وستفقد الحياة لا معنائية الألم التي هي مجال جدل لا ينتهي للمتشائمين • والذي آسف له هو اني وجدت استحالة تصديق هذه العقيدة ، مثلها مثل الذاتية التي تكلمت عليها من قبل •

٦٩

ولكني لم انته من الشر بعد ، فالمشكلة تشتد عليك الحاحا عنـدما تتساءل عما اذا كان الله موجودا ، فان كان كذلك ، فما الماهية التي يجب ان تنسب اليه • ثم كان ان قرأت ، كما قرأ غيري ، المؤلفات الشيقة لعلماء الطبيعة ، فتملكتني الرهبة لدى تأملي في المسافات الشاسعة التي تفصل بين النجوم ، والازمان السحيقة التي استغرقها وصول ضوئها الينا • لقـد اطاش صوابي امتداد السديم امتدادا لا يمكن تصوره • واذا كنت قـد فهمت الذي قرأت على الوجه الصحيح ، فلا بـد ان نفترض بان قوتَي الدفع والجذب الكونيتين كانتا منذ البدء متوازنتين بحيث ان الكون بقي عصورا لا تعد في توازن تام ، ثم اضطرب ذلك في لحظة ما ومال الكون عن اتزانه فكان هذا الكون وهذه الارض الصغيرة التي يحدثنا الفلكيون عنهما • ولكن ما الذي سبب عملية الخلق اصلا ، وما الذي أخل بميزان التوازن ؟ وجدتني عندها منجذبا انجذابا محتما نحو المفهوم القائل بوجود خالق ، فمن ذا الذي يستطيع ان يخلق هذا الكون الشاسع المذهل غير كائن شديد القوى ؟

غير انه على الرغم من ان البشر قـد عزوا الى الله نقائص يشمئزون منها في انفسهم ، فان ذلك لا يثبت عدم وجود الله ، وانما يثبت ان الاديان التي تقبلهـا البشر ان هي الا ازقّة مسدودة شقّت في غابـة لا تقتحـم

Twitter: @ketab_n

ولا يؤدي اي منها الى قلب المتاهة الكبيرة • كثيرة هي الحجج التي ادليت للبرهنة عـلى وجود الله ، واني اسأل القارىء الصبر معي قليـلا ريثما استعرضها باختصار • واحدة من هذه الحجج تفترض في الانسان وجود فكرة عن كائن كامل ، ولما كان الكمال يشمل الوجود ، فينبغي ان يكون الكائن الكامل موجودا • وتقول اخرى ان لكل علة معلولا ، او ان لكل حدث سببا ، وبما ان الكون موجود فلا بد له من موجد ، وهو الخالق • والثالث ، المتحدث من حيث الارادة والقصد ، والذي قال به (كانط) ، يعتبر اوضحها واقدمها واقربها الى فكر البشر ، وهو ما جاء على لسان احـد شخوص محاورات (هيوم) العظيمة • قال : « ان نظام الطبيعـة وتدبـيرها ، والتنظيم الغريب للاسباب الغائية ، والاستفادة البسيطـة المقصودة من كل جزء وعضو ، كل اولئك ينطق بأجلى لغة مشيرا الى علة مفكرة ، الى الخالق » غير ان (كانط) قال قاطعا بان ليس هناك ما يقال في تأييد هذا البرهان اكثر مما قيل في الاثنين الآخرين • وعرض رأيا آخر كبديل عنهما ، مفاده باختصار هو انه بدون وجود الله لا يوجد ما يضمن ان الشعور بالواجب ــ وهو ما يستلزم ذاتا حرة وحقة ــ ليس مجرد وهم، وعليه يكون من الضروري خلقيا الايمان بالله • وقد اعتبر هذا الرأي على وجـه العموم اقرب الى مزاج (كانط) الاليف منه الى فكره المتزن • اما البرهان الذي يبدو لي اقوى اقناعا من اي مما ذكر فقد بطل الاستدلال به اليوم ، وهو ما كان يعرف باسم التواتر العام ، ومؤداه ان جميع البشر منذ ابعد اصولهم عهـدا كانوا يؤمنون بشكل ما بالله ، وانـه لعسير ان تتصور ايمانا نما وكبر مع الجنس البشري ــ ذلك الايمان الذي قبله احكم الحكماء من الناس ، وافهم العقلاء في الشرق ، وفلاسفة الاغريق ، وعظماء رجال اللاهوت ــ يمكن ان يكون ايمانا لا اساس له حقا • وكان ذلك عند الكثيرين غريزيا ، ولعل الغريزة (لا بد من استعمال « لعل » هذه لان الامر ابعد من ان يكون تحقيقا) لا يكون لهـا وجود ما لم يكن هناك احتمال لامكان اشباعها • لقـد دلت التجربة على ان انتشار عقيدة ما ، قصرت فترة انتشارها ام طالت ، لا يكون برهانا على صحتها • فالظاهر اذن ان كل البراهين عن وجود الله غـير ملزمة • ولكنك بالطبع لا تدحض وجوده بعدم استطاعتك اثبات وجوده • وتبقى المشكلة كما هي : شعور الانسان بالضعف وسعيه لبلوغ الانسجام بينه وبين الكون عموما • وهذا

Twitter: @ketab_n

اقرب الى ان يكون هو اصل الدين ، وليس عبادة الطبيعة او الاسلاف او السحر او الاخلاق • وليس هناك ما يدعو الى القول بان ما ترغب فيه موجود ، ولكن من القسوة القول بان لا حق لك في الايمان بما لا تستطيع اثباته ، فليس هناك ما يمنعك من الايمان ما دمت تعلم ان ايمانك يفتقر الى برهان • واعتقد انك ان كنت ممن يستأنس بالسلوى والتعزية في المحن ويمدك الحب بالجلد ، فلن تسأل عن الادلة ولن تحتاج اليها ، يكفيك ما لديك من بداهة •

والتصوف لا يتطلب برهانا ، وهو في الواقع لا يحتاج الى اكثر من اقتناع داخلي ، وهو مستقل عن القواعد العقائدية ، ففيها جميعا سند له ، وهو شخصي يشبع كل مزاج • انه شعور بان العالم الذي نعيش فيه جزء من كون روحي ، وهذا ما اعطاه مغزاه ودلالته • ان الشعور بوجود الله هو الذي يعيننا ويريحنا • ولقد قص المتصوفة الكثير من تجاربهم ، وتعابيرهم جد متشابهة عن تلك التجارب حتى انني لا اخال احدا ينكر واقعيتها • والحق انني في مناسبة ما مررت شخصيا بتجربة لا يسعني الا ان استعير لوصفها نفس التعابير التي استعملها الصوفيون في وصف حالة الوجد التي تنتابهم • كنت جالسا في جامع خلا من الناس بالقرب من القاهرة • وعلى حين غرة وجدتني في حالة من نشوة ، سابحا في عالم آخر ، مثلما شعر اغناطيوس الليولي اثناء جلوسه على شاطىء النهر في (منريسا) ، فقد انتابني شعور طاغ من الاحساس بسلطان الكون ودلالته ، وبشور مرهق بالاندماج فيه ، واكاد احمل نفسي على القول بأني احسست بحضرة الله • لا شك انه شعور مألوف رفع من شأنه الصوفيون عند ظهور تأثيره واضحا في نتائجه • ويبدو لي انه احساس يمكن ان يعزى الى اسباب غير الدين ، فقد كان القديسون انفسهم راغبين في الاعتراف بأنها حالة قد تنتاب الفنانين • والحب ، كما نعرف ، يمكن ان يؤدي الى حالة أشبه ما تكون بتلك ، حتى ان المتصوفة لم يجدوا بدا من استعارة تعابير العشاق للاعراب عن رؤى الوجد والسعادة الخالدة • لست ادري ان كانت هذه الحالة اشد غموضا من تلك التي لم يستطع علماء النفس تفسيرا لها حتى الآن ، وهي انك يخالجك حينا شعور قوي بانك في وقت ما قد مررت بنفس التجربة التي تمر بها الآن • ان شعور الصوفي بالوجد حقيقي

Twitter: @ketab_n

ولا ريب ، ولكن دلالته لا تتعداه الى غيره ، فالصوفي والمتشكك يتفقان في انه عند بلوغنا النهاية في جميع مساعينا الفكرية ، يتبقى الكثير من الغموض .

واذ واجهني ذلك كله ، واذ ملأتني عظمة الكون رهبة ، واذ اسخطتني مقولات الفلاسفة واخبار القديسين ، أخذت أرجع القهقرى ، الى ما قبل محمد وعيسى وبوذا ، والى ما قبل آلهة اليونان ، ويهوه ، وبعل ، الى براهما الهندوسي ، تلك الروح ـ ان صحت التسمية ـ التي خلقت ذاتها ، والمستقلة عن كل وجود آخر بالرغم من ان كل وجود موجود فيها ، ومصدر الحياة الاوحد في كل حي . ان فيها في الاقل ، عظمة ترضي الخيال . ولكن أرى انني قد اشغلت نفسي بالكلمات طويلا حتى لم اعد اتحفظ ازاءها ، وانا اذ اعيد النظر الى ما انتهيت من كتابته ، لا يسعني الا ان أرى ضعف معانيها وغموضها ، فالحقيقة الموضوعية هي اول ما ينفع في الدين وقبل اي شيء آخر ، والاله الوحيد ذو الفائدة هو ذلك الكائن الشخصي ، السامي، الخيّر ، والذي وجوده ثابت كثبوت ان اثنين واثنين يساويان اربعة . ليس بامكاني النفاذ الى السر ، فاظل لاادّريا ، والنتيجة العملية للادرية هي انك تقوم بعملك وكأن لا وجود لله .

٧٠

ليس الايمان بالله لازما للايمان بالخلود ، ولو ان من الصعب فصل احدهما عن الآخر . وحتى في ذلك البقاء الغامض الذي يتطلع عند تحرره من الجسد الى فناء الوعي البشري في الوعي العام ، فان من الممكن رفض اطلاق اسم الله على هذا الوعي العام اذا انت أنكرت ان يكون له أي أثر فعال او قيمة . ولكننا نعلم ، عمليا ، ان كلا الايمانين كانا من اللصوق واللاانفصامية بحيث ان حياة ما بعد الموت كانت دائما وسيلة جبارة يعامل بها الله البشر . فهي عند اله رحيم مكافأة سعيدة للاخيار ، وعند اله شديد العقاب وسيلة للانتقام من الاشرار . ان الادلة على الخلود بسيطة ، ولكنها اذا لم تكن خلوا من المعنى فهي ضعيفة الأثر بدون قبول فرضية وجود الله أولاً . ومع ذلك فاني اعددها . بعض يستند الى نقص الحياة : اننا نتوق

Twitter: @ketab_n

الى اكمال ذواتنا وتحقيقها ، غير ان سلطان الحوادث وامكاناتنا المحدودة تترك فينا شعورا بالخيبة والفشل ، فتأتي حياة اخرى لتعيد التوازن الينا • وهكذا شعر (غوته) انه بالرغم من كل ما انتج فما يزال امامه الكثير ليفعله • وقريب من هذا الدليل القائم على الرغبة : فنحن ان استطعنا تصور الخلود ورغبنا فيه ، أفلا يدل ذلك على وجوده ؟ اذ لا يتم فهم رغباتنا الخالدة الا باحتمالية اشباعها • ودليل آخر يشير الى النقمة والكرب والحيرة التي تعتور الانسان عند رؤيته ما يسود هذا العالم من ظلم وتفاوت اجتماعي، حيث يزدهر الاشرار كشجرة خليج مخضر ، فالعدل يقتضي وجود حياة اخرى يعاقب فيها المذنب ويكافأ فيها البريء ، فلا يمكن الصفح عن الشر الا اذا امكن التعويض عنه فيما بعد بالخير ، والله نفسه يلزم ان يكون خالقاً لأبرار فرائضه على البشر • ثم هناك الدليل المثالي القائل بان الفكر الواعي لا يمكن ان يباد بالموت ، اذ لا يعقل محق الفكر ، ذلك ان الفكر هو وحده القادر على ادراك محق الفكر ، فيستدل من ذلك على ان القيم يتحقق وجودها بالعقل ، ثم تأتي الاشارة الى عقل أسمى تتحقق فيه تلك القيم تحققا كاملا • فان يكن الله هو الحب ، فالبشر عنده قِيَم ، ولا يمكن الاعتقاد بان ما هو قيّم عند الله يمكن ان يترك للزوال • ولكن عند هذه النقطة ينشأ شيء من تردد ، فبالخبرة ، وبالاخص خبرة الفلاسفة ، نرى ان عددا كبيرا من الناس ليسوا ذوي قيمة ، والخلود فكرة اضخم من ان ترتبط بمخلوقات فانية تافهة ادنى شأنا من ان تستأهل عقابا ابديا او نعيما سرمديا • لذلك عرف عن الفلاسفة قولهم بان الذين لهم امكانية التحقق الروحي سوف يتمتعون ببقاء محدود لتتاح لهم فرصة بلوغ الكمال بالمقدار الذي يستطيعونه ، وعندئذ سوف يخضعون لانقراض مرغوب ، بينما الذين لا يملكون تلك الامكانية ينالون رحمة الابادة الفورية • ولكنك اذ تبحث عن ماهية المؤهلات التي تسمح للقلة بالتمتع بنعمة هذا البقاء المحدود تجد انها مؤهلات لا يملكها الا القلة من غير الفلاسفة • ومع ذلك فلا يسع المرء الا ان يعجب كيف سيقضي الفلاسفة وقتهم بعد ان تنال فضيلتهم ما تستحق من ثواب ، اذ ان المسائل التي شغلتهم اثناء حياتهم الموقتة على الارض تكون قد نالت اجاباتها الشافية ، فلعلهم سوف يتلقون دروسا في العزف على البيان من بيتهوفن ، او يتعلمون الرسم بالالوان المائية تحت ارشاد ميشيل انجلو• واذا كانت طبيعة هذين العظيمين باقية كما كانت

Twitter: @ketab_n

في حياتهم فسيجدونهما معلمين سريعي الغضب .

ان شئت ان تختبر قوة دليل على قبولك عقيدة ما فلك ان تسأل نفسك ان كنت تقدم على عمل ، مهما تكن اهميته ، استنادا على اسباب متساوية الاهمية . فمثلا ، هل ستبتاع دارا استنادا على ما تسمعه عنها دون ان تستشير محاميا في دراسة سندات الملكية ودون ان تستدعي مختصا يفحص مجاريها ؟ ان الادلة على الخلود ضعيفة اذا تناولتها واحدة فواحدة، ولكنها لا تزداد قوة افحام وهي مجتمعة . انها أخاذة مغرية ، كاعلانات سماسرة الدور في الصحف اليومية ، ولكنها ليست مما يقنعني انا في الاقل، فانا لا استطيع ان ادرك كيف يمكن للفكر ان يبقى في الوقت الذي يزول فيه اساسه المادي . اني اشد اقتناعا بالترابط بين جسدي وعقلي من ان أرى في اي بقاء لفكري منفصلا عن جسدي ، بأي شكل من الاشكال ، بقاءاً لذاتي . وحتى لو استطاع احد اقناع آخر بان جانبا من الصحة يتوافر في الرأي القائل بان الفكر الانساني يحيا في الفكر العام ، فلن يكون في ذلك الا القليل من السلوة ، فالرضى بكون الانسان يحيا ابديا في هذه القوة الروحية التي اوجدها لا يعدو ان يكون ترويحا عن النفس بكلمات باطلة . فالبقاء الوحيد الذي له اية قيمة هو بقاء الفرد بكامله .

٧١

فاذا ما ترك المرء موضوع وجود الله جانبا ، واعتبر احتمال البقاء امرا مشكوكا فيه ولا اثر له في سلوك الانسان ، فعليه عندئذ ان يصل الى تفسير حاسم لمعنى الحياة وجدواها . فاذا وضع الموت نهاية لكل شيء ، واذا لم يكن لي ان ارجو خيرا ولا ان اخشى شرا ، فلا بد لي ان أسأل نفسي لماذا انا موجود هنا ؟ وكيف يجب ان يكون سلوكي تحت هذه الظروف ؟ الجواب على احد السؤالين واضح ، ولكنه من الكراهة بحيث يرفض معظم الناس مواجهته : ليس هناك سبب للحياة وليس فيها أي معنى . اننا هنا ، سكنة كوكب صغير لفترة قصيرة ، ندور حول نجم ثانوي هو بدوره عضو في احدى المجرات التي لا يحصى عددها ، وقد يكون هذا الكوكب هو وحده الصالح للحياة ، او قد تكون في اجزاء

Twitter: @ketab_n

اخرى من الكون كواكب فيها امكانية تهيئة المحيط لذلك الجوهر الذي نحسب اننا خلقنا منه نحن البشر تدريجيا على مـدى زمن سحيق • واذا ما صدق الفلكيون فانه سيأتي زمان على هذا الكوكب تستحيل فيه الحياة عليه ، وفي النهاية البعيدة سيصل الكون الى مرحلة من السكون لا يحدث فيها شيء • ستمضي دهور ودهور قبل ان يتلاشى هذا الانسان ، فهل من الممكن ان نفترض وجود أية اهمية لفكرة وجود الانسان في وقت ما بعد ذلك ؟ سيكون ذلك فصلا في تاريخ الكون لا معنى له ، كالفصل الذي ذكرت فيـه قصص الهـوَل المنقرضة التي سكنت الارض في عصورهـا الاولى •

ثم عليّ ان اسأل نفسي ما اهمية ذلك كله لي ، وكيف ينبغي ان اعالج هذه الظروف اذا ما رغبت في استغلال حياتي على افضل وجه قدر الامكان؟ وهنا لست انا المتحدث ، وانما هي الرغبة الملحة في داخلي وفي داخل كل انسان ، في الحفاظ على كياني • انها الانانية التي نرثها جميعا مـن تلك الطاقة البعيدة التي دحرجت الكرة اول مرة في ماض سحيق لا يسبر غوره ، انها الحاجة الى توكيد الذات الموجودة في كل كائن حي فتبقيه حيا • انها الجوهر الفرد في الانسان ، وتطمينها تطمين للذات التي قال عنها سبينوزا انها اسمى ما يمكن ان تتطلع اليه « اذ ليس هناك من يسعى للحفاظ على كيانه لغاية من الغايات » • قد يصح القول بان جذوة الفكر قد اشعلت في الانسان كوسيلة تمكنه من معالجة محيطه ، وبانها خلال عصور مديدة لم تزدد تطورا لأكثر مما تتطلبه معالجة مشاكله الحيوية في حياتـه • ولكن يبدو انها بمرور الزمن قد غدت اكبر مـن الحاجات الآنية ، وبظهور قوة الخيال وسّع الانسان من محيطه حتى شمل غـير المرئي • ونحن نعرف الاجابات التي اكتفى بها ردا على الاسئلة التي وجهها الى نفسه حينذاك • والطاقة التي اشتعلت في ذاته كانت من الشدة بحيث لم يداخله اي شك في اهميته ، وكانت انانيته من السعة والشمول بحيث لم يستطع تصور امكانية فنائه وانقراضه • هـذه اجابات ما زالت ترضي الكثيرين ، فهـي تعطي للحياة معنى ولغرور الانسان عزاء وسلوة •

لا يفكر معظم الناس الا قليلا • انهم يتقبلون وجودهم في العالـم

Twitter: @ketab_n

خانعين • انهم عبيد عمي لكفاح هو الباعث الرئيس لاندفاعهم ذات اليمين وذات الشمال لاشباع نزواتهم الطبيعيـــة ، وعندما يتضاءل الباعث تخبو جذوتهم كما يخبو ضوء شمعة • حيواتهم غريزية محض ، وقد تكون بهذا اكثر حكمة • ولكن اذا كان تفكيرك قد نما بحيث تجد اسئلة معينة تفرض نفسها عليك ، وانك ترى الاجابات القديمة خطأ ، فماذا تفعـــل ؟ ما هي اجاباتك انت ؟ ان اثنين من اكثر الناس حكمة في الدنيا قد اجابا في الاقل على واحدة مـــن تلك الاسئلة • وعندما تتمعن في جواييهما تجـــد انهما لا يكادان يختلفان عن بعضهما معنى ، ولست واثقا مـــن ان فيهما شيئا كثيرا • فقد قال ارسطو ان الغاية من فعاليات الانسان هي الفعل الصحيح• وقال غوته ان سر الحياة هو العيش • اظن ان ما يعنيه غوته هو ان الانسان يكون قد نال من حياته اقصى ما يمكنه عند بلوغـــه مرحلة تحقيق ذاته ، فقد كان قليل الاحترام لحياة تسيّرها النزوات العابرة والغرائز السائبة • ولكن صعوبة تحقيق الذات ، او صعوبة ابلاغك كل ملكة من ملكاتك الى اعلى مراتب الكمال بحيث انك تعتصر من الحياة كل ما يمكنك من بهجة وجمال وعاطفة ومتعة ، تكمن في ادعاءات الناس الآخرين ومطالبهم التي تحد من نشاطك دائما • والاخلاقيون الذين استهوتهم معقولية النظرية ، ولكن ارعبتهم نتائجها ، قد استهلكوا الكثير من مداد اقلامهم ليثبتوا ان الانسان بالتضحيـــة ونكران الذات يستطيع تحقيق ذاتـــه تحقيقا اقرب ما يكون الى الكمال • ليس هذا ما عناه غوته ، ولا هو حق على ما يبدو• قليلون اولئك الذين ينكرون ما في نكران الذات من متعة فريدة ، وان له لقيمة في تحقيق الذات بما يتيحه من مجال جديد للنشاط وما يعرضه من فرصة لتطور جانب مـــن جوانب النفس • ولكنك ان سعيت الى تحقيق الذات دون تدخل في محاولات لغيرك ساعية نفس السعي ، فلن تبلغ مدى بعيـــدا • ان هدفا كذاك يتطلب مقدارا كبيرا مـــن القسوة وقلبا حجرا واستغراقا في الذات ضارا بالآخرين ، ناقضا ذاته • اننا نعرف الكثيرين ممن اتصلوا بغوته فكرهوا ما رأوا فيه من نانية قاسية •

٧٢

قد يكون من قبيل الغطرسة ألاّ اكون قانعا باتباع خطى رجال اكثر

Twitter: @ketab_n

مني حكمة ، ولكن بالرغم من ان الواحد منا يشبه الآخر في كثير من الوجوه ، فليس فينا تماثل تام ابدا (بدلالة اختلاف بصمات اصابعنا) ، لذلك لم أر سببا يمنعني من اختيار سبيلي الخاص قدر الامكان • سعيت الى ان ابرمج حياتي • واحسب ان هذا تحقيق للذات مازجه احساس حي بالسخرية في محاولة للاستفادة من مهنة رديئة • الا ان سؤالا يفرض نفسه كنت قد تجنبته عند معالجة هذا الموضوع في بداية كتابي هذا • اما الآن فلا يسعني المضي في تجنبه اكثر مما فعلت • في ثنايا كتابي اعتبرت حرية الارادة امرا مفروغا منه ، ولقد تكلمت كما لو كانت لي القدرة على قولبة نواياي وتوجيه افعالي وفق ما يعنّ لي • وفي اماكن اخرى عرضت رأيا غير مبتوت فيه وكأنه بات • ان تقلبا كهذا مقيت لو انني كنت اكتب في الفلسفة ، وما انا ازعم لنفسي ذلك • ولكن كيف ينتظر مني ، وانا الهاوي، ان احل مشكلة لم يتوقف الفلاسفة حتى الآن عن الخوض فيها ؟

قد يكون من الافضل ان يترك الامر وشأنه ، ولكنه من الامور التي تهم القاص ، فهو ككتاب يجد قراءه يجبرونه على الالتزام بالقول الفصل • لقد اشرت فيما سبق من هذه الصفحات الى عدم رغبة المشاهدين في تقبل الاندفاع على المسرح • وما الاندفاع الا الحافز لحركة لا يعرف الوسيط شيئا عن الباعث له ، انه اشبه ما يكون بالبديهة ، وهي حكم تصدره دونما ادراك لأساسه • وعلى الرغم من ان لكل اندفاع باعثا ، فان المشاهدين يرفضونه لان باعثه مبهم عندهم • فمشاهدو مسرحية وقارئو كتاب يصرون على معرفة اسباب كل حركة ، ولن يعترفوا باحتماليتها ما لم تكن الاسباب قوية مفحمة ، وعلى كل شخص ان يتحرك ضمن شخصيته ، اي انه يجب ان يقوم بافعال وحركات يتوقعونها منه بحسب معرفتهم به • فلا بد من التوسل بالمكر لاقناعهم بقبول المصادفات والحوادث التي ان وقعت في الحياة الواقعية لابتلعوها دون امعان فكر • وان هم التصقوا بشخص ما ، فان الكاتب الذي يستهين بتحيزهم العنيد هذا يكون في حكم الضائعين •

ولكني اذ اعيد النظر في حياتي لا يسعني الا ان الاحظ انّ ما اثّر فيّ اعظم الاثر يرجع فضله الى الظروف التي لا يسهل فصلها عن كونها مجرد مصادفات • يقول المذهب الجبري ان الاختيار يتبع خطّ لأضعف مقاومة او لأقوى دافع • ولا احسبني قد اتبعت دائما خط المقاومة الضعيفة ، واذا

Twitter: @ketab_n

كنت قد اتبعت الدافع لاقوى فان ذلك الدافع كان من بنات افكاري استنبطته بالتدريج . وليس انسب من استعارة لعبة الشطرنج في هذا المقام بالرغم من ابتذالها . فقد أعطيت القطع ، وكان علي ان اتقبل طريقة حركة كل قطعة ، وكان علي ان اتقبل نقلات من ألعب معهم ، ولكن بدا لي ان لي من السلطة ما يمكنني ، بحسب رغبتي فيما احب وما اكره وبحسب النموذج المثالي الذي اقيمه لنفسي ، من ان انقل القطع بحرية . واحسبني قد استطعت في بعض الاحيان ان ابذل مساعي لم تكن مقررة مسطورة كليا ، فان كان وهما فهو وهم كانت له قوة تأثير وفعالية . كانت النقلات التي قمت بها ، بعد ان عرفتها الآن ، خطأ في الاغلب ، ولكنها كانت بشكل ما تتجه الى الغاية المبتغاة . انني اتمنى لو اني لم ارتكب العديد من الاخطاء ، ولكني لا آسف لها ولا اتمنى نقضها .

انني ارى معقولية التمسك بالرأي القائل بان كل الاشياء في هذا الكون تتضافر لتكون السبب لكل فعل من افعالنا ، بما في ذلك طبعا افكارنا ورغباتنا . الا ان القول بان عملا ما ، بعد انجازه ، كان محتما منذ الازل ، لا يمكن تقريره الا اذا اقررت بوجود او عدم وجود حوادث كالتي يدعوها (الدكتور برود Dr. Broad) أسلاف سببية ، لم تكن مقررة كلية . لقد كشف (هيوم) منذ زمن بعيد عن انعدام وجود علاقة داخلية بين العلة والمعلول مما يمكن ادراكه عقلا . وظهر مؤخرا ، على اثر انكشاف بعض الحوادث التي لم يمكن عزوها الى سبب معين ، ان مبدأ التفويض قد ألقى ظلا من الشك على الفعالية العامة لتلك القوانين التي كان العلم يعتمدها حتى الآن . والظاهر انه ينبغي ان يحسب للمصادفة حسابها ثانية . ولكننا اذا لم نكن حقا مقيدين بقانون العلة والمعلول ، فلعل حرية ارادتنا ليست وهما من الاوهام . لقد حاول الاساقفة والكهنة ان يتمسكوا بهذه الفكرة الجديدة وكأنها ذيل الشيطان الذي سيرجع لهم الشيطان نفسه الى الوجود ، فكان ابتهاج صاخب ، ان لم يكن في سوح السماء ، ففي القصور الكنسية ولا ريب ، ولعلهم بادروا بالاسراع في ترتيل تسبيحة الشكر . لا بد ان نذكر ان اثنين من ابرز علماء العصر ينظران بعين الريبة الى مبدأ (هايزنبرج Heisenberg) . فقد اعرب (بلانك Plank) عن اعتقاده بان البحوث التالية سوف تمحو ما قيل عن الابعاد الزاويّة

Twitter: @ketab_n

فيما بين الكواكب والشمس ، ووصف (انشتاين Einstein) الآراء الفلسفية التي اقيمت على ذاك المبدأ بانها « ادب » ، ولعلها كلمة المهذب الذي اراد أن يقول انها « هراء » • والفيزيائيون انفسهم يقولون ان علم الفيزياء يتقدم بخطوات سريعة جدا بحيث لا يمكن مواكبته الا بالمثابرة على مطالعة المنشورات الدورية • انه لتسرع ولا شك في ان تقام نظرية على مبادىء علم هو نفسه لم يستقر بعد • و (شرودينجر Schrôdinger) نفسه قال ان اعطاء حكم نهائي شامل على المادة في الوقت الحاضر امر مستحيل • فالرجل البسيط محق ان هو اتخذ مجلسه على التل ، ولكن قد يكون من الحكمة ان يبقي رجليه متدليتين الى جانب الجبرية •

٧٣

سلطة الحياة طاغية ، والمتعة التي تصاحبها تعوض على الناس ما يعانونه من ألم وشقاء ، فبها تستحق الحياة ان تحيا ، ذلك ان تأثيرها داخلي ، فتضيء بلهبها الساطع ظروف كل امرىء ، حتى انها على صعوبتها تبدو محتملة له • والكثير من التشاؤم ينشأ عن كونك تعزو للآخرين مشاعر كنت ستشعر بها لو كنت بمكانهم • وهذا ، من كثير غيره ، هو الذي يجعل القصة تبدو مضللة ، فالقاص يبني عالما عاما من عالمه الخاص ، ويمنح شخوص خياله نوعا من الحساسية وقوة تفكير وقابلية عاطفية ليست في مزاجه هو • ومعظم الناس قوة الخيال عندهم ضعيفة ، فلا يجدون شيئا من التعاسة في ظروف لا يطيقها ذو الخيال الواسع ــ فمثلا ، ان افتقار الفقراء المدقعين الى الخلوة في حياتهم يبدو لنا نحن الذين نعتز بها ، امرا مرّوعا ، ولكنه لا يبدو كذلك لهم ، فهم يكرهون الوحدة لان الاختلاط يمنحهم شعورا بالامن ، والذين ساكنوهم ادركوا بانهم قلما حسدوا الموسرين • والحقيقة انهم لا يرغبون في كثير من الاشياء التي نعتبرها نحن جوهرية ، وذلك من حسن حظ الموسرين ، فالاعمى هو وحده الذي لا يرى ان ليس في حياة البروليتاريا في المدن الكبيرة سوى التعاسة والضنك • ان من الصعب ترويض النفس على تقبل حقيقة وجود البطالة ، او ان يكون العمل موحشا كئيبا ، او ان يعيش هو وزوجته واطفاله على شفا المسغبة ،

Twitter: @ketab_n

وألاّ يكون لـه في النهاية ما يتطلع اليه غـير الفاقة والعوز • فان كانت الثورة هي العلاج الوحيد لذلك ، فلتأت الثورة ، ولتأت بسرعة • عندما نشاهد القسوة التي يعامل بها انسان انسانا آخر ، حتى في هذا العصر وفي بلدان اعتدنا ان نصفها بالمتحضرة ، نكون متسرعين لو حكمنا بانهم خـير مما كانوا ، ولكن على الرغم من كل ذلك ليس مـن البلاهة ان نعتقد ان الحياة عموما خير الآن من تلك الماضية التي حدثنا التاريخ عنها ، وان مصير الغالبية ، وان يكن سيئا ، فهو اقل كراهة من الذي كان ، وان للمرء ان يرجو من ازدياد المعرفة ، ومن نبذ الكثير مـن المعتقدات الخرافية المؤلمة والعادات البالية ، ومن شعور اقوى بالحب والعطف ، ازالة الكثير مـن الشر الذي يعاني منه الانسان • الا ان ضروبا من الشر لا بد ان تبقى • اننا دمى في يد الطبيعة ، فالزلازل ستظل تحدث الدمار ، والعواصف تفسد الغلة ، والفيضانات تهدم مستحكم ما شيده الانسان ، وستظل ، وا أسفاً ، حماقات بني البشر تحطم الشعوب بالحرب ، سيظل اناس غـير مؤهلين للحياة يولدون فتكون الحياة عبءاً عليهم ، وما دام بعض قـويا وبعض ضعيفا فمصير الضعيف الى الهزيمة سوقاً ، وما دامت لعنة التملّك تسيطر على الانسان ــ وهـذه ما لا احسبها زائلة الا بزوال الانسان ــ فانـه سينتزع ما يمكنه انتزاعه مـن الذين لا قدرة لهم عـلى الاحتفاظ به ، وما دامت غريزة حب الظهور فيهم فانهم سيشبعونها على حساب سعادة الآخرين • وبالاختصار ، ما دام الانسان انسانا عليه ان يستعد لمواجهة كل بلاء يستطيع ان يتحمله •

ليس هناك تفسير للشر ، فلا بد ان تعتبره جزءا لازما في نظام الكون، تجاهله صبياني ، والتفجع منه حماقة • قال سبينوزا : ان التأسف من شيم النساء وهذا تعبير قاس من تينك الشفتين الرقيقتين وتلك الروح البسيطة ، واحسبه قصد الى القول انه لمضيعة للعواطف ان يتأثر المرء مما لا قدرة له على تغييره •

لست من المتشائمين • والحق ان من السخف ان اكون منهم ، فقد كنت محظوظا لدرجة اني كنت دائم العجب من حظي الحسن ، واني لأعلم ان الكثيرين ممن كانوا احق مني بذلك لم ينالوا سعادة الحظ التي نلتها •

Twitter: @ketab_n

كان من الممكن ان يحدث لي حدث ما فيتغير كل شيء ويشبط من عزمي كما حدث للكثيرين ممن يساوونني موهبة او يزيدون . فان عنّ لهؤلاء ان يقرأوا هذه الصفحات ، فاني اطلب منهم ان يثقوا باني لا اتبجح بمزاياي لأعزو اليها ما اصبت ، وانما انا اعزو ذلك الى سلسلة من ظروف غير متوقعة لا استطيع لها تفسيرا . وعلى ما فيّ من نقص جسمي وعقلي ، فقد اسعدني ان احيا . ولن احيا حياتي كرة اخرى ، اذ لا معنى لذلك ، ولا احب ان اعاني ثانية ما عانيت من آلام مبرحة . ان من النقائص في طبيعتي انني شقيت بآلامي اكثر مما سعدت بمتع حياتي ، ولكن لو ازيلت عني عاهتي ووهبت بنية اقوى وعقلا ارجح لما توانيت عن الولوج الى الحياة عودا على بدء . يبدو ان السنوات الممتدة قبالتنا الآن ستكون ممتعة . ان الشبان اليوم يدخلون معترك الحياة بامتيازات لم تكن متاحة لشبان جيلي. فعوائق التقاليد في طريقهم اقل عددا ، وهم مدركون قيمة الشبان العظيمة. كانت دنياي في العشرينات دنيا الكهول ، اذ كان الشباب شيئا ينبغي التسلل منه باسرع ما يمكن للوصول الى مرحلة النضج . والشبان في يومنا هذا ــ في الاقل ضمن الطبقة المتوسطة التي انتمي اليها ــ افضل اعدادا ، فهم يُعلّمون الآن كثيرا مما ينفعهم ، بينا كان علينا ان نبحث عنها فنلتقطها التقاطا قدر استطاعتنا . والعلاقات بين الجنسين اقرب الى طبيعتها اليوم مما كانت قبلا ، فقد تعلمت الفتاة ان تكون رفيقة للفتى . ان من بين المصاعب التي كان على جيلي ان يواجهها ، ذلك الجيل الذي بذر بذور تحرر المرأة ، هو ما يلي : تركت المرأة ادارة البيت ولم تعد امّا كما كانت من قبل . كانت حياتها منفصلة عن حياة الرجل ، لها مصالحها وشؤونها الخاصة ، ولكنها كانت تحاول التدخل في شؤون الرجل دون ان تكون لها الاهلية لذلك . كانت تطلب من الرجل نفس الرعاية التي كانت تستحقها يوم ان كانت ترى نفسها اقل شأنا منه ، ومع ذلك فقد اصرت على نيل حقوقها التي اكتسبتها حديثا ، بالمساهمة في جميع الفعاليات الرجالية التي لم تكن تعرف منها شيئا الا بمقدار ما يجعلها بغيضة مزعجة . لقد بعدت عن كونها زوج قبل ان تتعلم كيف تكون رفيقة صالحة . ليس اجمل في عين الرجل الكهل من منظر فتاة اليوم ، بمهارتها وثقتها بنفسها وقدرتها على ادارة مكتب او التباري في لعبة التنس الشاقة ، ذكية تعنى بالشؤون الاجتماعية ، مثقفة تتذوق الفنون ، قوية تقف على قدميها بثبات تواجه

Twitter: @ketab_n

الحياة ببرود ودهاء وتسامح •

انني ابعد ما اكون عن ارتداء لبوس الانبياء ، الا انه من الواضح ان على هذه الجمهرة من الشبان الذين يمسكون بالزمام الآن ان يتطلعوا الى التبدلات الاقتصادية التي ستغير الحضارة • انهم لن يعرفوا الحياة الرخية المطمئنة التي تجعل الكثيرين ممن كانوا في ريعان شبابهم قبل الحرب ينظرون الى تلك السنين ، كما كان ينظر الذين نجوا بعد الثورة الفرنسية الى (العهد القديم) • انهم لن يعرفوا حلاوة النجاة من الموت • اننا نعيش اليوم على اعتاب ثورات عظيمة • لست اشك في ان طبقة البروليتاريا ، التي تزداد معرفة بحقوقها ، ستقبض على زمام الامور قطرا فقطرا • واني لأعجب اشد العجب من ان حكام اليوم، بدلا من المضي في مناوءتهم الفاشلة لهذه القوى الكاسحة ، لا يبذلون كل جهد ممكن لاعداد الجماهير للاضطلاع بواجباتها القادمة ، لكي يكون مصيرهم ، بعد تجريدهم من السلطة ، اقل قسوة من المصير الذي حاق بهم في روسيا • لقد اشار عليهم دزرائيلي قبل سنوات بما يفعلون • اما انا شخصيا فيجب ان اقول صراحة باني ارجو ان تستمر الاوضاع الحالية ما دمت في الحياة • ولكننا نعيش في عصر سريع التغير ، فلا يستبعد ان اشهد دولا في الغرب تنتقل الى حكم الشيوعية • قال لي احد معارفي من الروس المنفيين انه عندما فقد ممتلكاته وثروته استولى عليه اليأس والقنوط ، ولكنه بعد انقضاء اسبوعين استعاد هدوءه ولم يفكر منذ ذلك الحين لحظة واحدة فيما جرّد منه • لا احسبني شديد العلاقة بما عندي من شتى الممتلكات بحيث آسف لها طويلا ، فان اتفق لمثل تلك الظروف ان تمر بي في عالمي فسأحاول التكيف لها ، فان وجدت الحياة لا تطاق ، فلا اظنني اعدم الشجاعة لاعتزال المسرح الذي لا يكون باستطاعتي ان اؤدي عليه دوري كما يرضيني • اني لأعجب مما يدعو الكثرة من الناس ان يشيحوا بوجوههم هلعا من فكرة الانتحار ، فالقول بانه جبن ليس الا هراء ، واني لا يسعني الا ان ابارك الرجل الذي يضع النهاية لنفسه وبمخض اختياره عندما لا يبقى لدى الحياة ما تقدمه سوى الالم والشقاء • ألم يقل (بليني Pliny) ان القدرة على الموت عندما تشاء افضل ما وهبه الله للانسان من بين جميع ما في الحياة من عناء ؟ فاذا تجنبنا قول القائلين بان الانتحار أثم لانه خروج عن ارادة سماوية ، احسب

Twitter: @ketab_n

ان سبب النقمة التي يثيرها الانتحار في كثير من الناس هو اعتباره اهانة واستهزاء بقوة الحياة ، فالاستخفاف باقوى غريزة في البشر يلقي شكا مروّعا على سلطانها في الحفاظ عليهم .

بهذا الكتاب اكون قد اكملت الحدود التي سعيت لها ، فان عشت ، فسأؤلف كتبا اخرى ، لمتعتي ولمتعة قرائي كما ارجو ، ولكني لا اظنها ستضيف شيئا جوهريا على خطتي ، فالبيت قد انتهى بناءا . قد تكون له ملحقات ، كدكة تشرف على منظر جميل ، او ظلة ظليلة للاسترخاء في قيظ الصيف ، فان حال الموت بيني وبين اضافة هذه الملحقات ، فان البيت نفسه قد بني ، ولو ان سماسرة الدور قد يتوافدون لاستطلاعه في اليوم التالي لدفني في عمود الوفيات .

اني انتظر الشيخوخة دون فزع . عندما قتل لورنس العرب قرأت في مقال لصديق انه كان من عادته ان يسوق دراجته البخارية بسرعة كبيرة بأمل ان يحدث له حادث يضع حدا لحياته وهو ما يزال مالكا لقواه ليوفر على نفسه هوان الشيخوخة ، فان صح ذلك فهو ضعف كبير في تلك الشخصية الغريبة التي تشبه شخوص المسرحيات ، ويدل على افتقار الى حسن التفكير ، فالحياة التامة بشكلها الكامل تشمل الشيخوخة كما هي تشمل الشباب والكهولة . جمال الصباح واشعاع الظهيرة حالان مطلوبان، فسخيف ذلك الذي يسدل الستاير ويشعل المصابيح لكي يمنع هدوء المساء من الدخول اليه . وللشيخوخة مسراتها . فان تكن مختلفة فهي لا تقل عن متع الشباب امتاعا . ما زال الفلاسفة يخبروننا باننا عبيد عواطفنا ، أفتراه امرا هينا ان تتحرر من تقلباتها ؟ لا شك ان شيخوخة الاحمق حمقاء ، ولكنه كذلك كان في شبابه . والشاب يشيح بوجهه عن الشيخوخة مرعوبا لانه يظن انه ببلوغه تلك المرحلة سيظل يتوق الى الامور التي تضفي التنوع والحيوية على شبابه . انه مخطىء . صحيح ان الطاعن في السن لا يستطيع تسلق جبل ، ولا ان يصرع فتاة على سرير ، وصحيح انه لا يكون قادرا على استثارة الرغبة في الآخرين ، فمع كبر السن ينبغي التحرز من غصص الغرام وعذاب الغيرة ، ومعه يجب اخماد نار الحسد ــ وهو كثيرا ما سمم حياة الشباب ــ باخماد اوار الرغبة . الا ان هذه كلها

Twitter: @ketab_n

تعويضات سلبية ، وللشيخوخة تعويضات ايجابيـة ايضا ، فلها الوقت الاطول ، على الرغم مما في ظاهر هذا القول من تناقض • لقد ادهشني ، وانا بعد شاب ، قول (بلوتارخ) بأن (كاتو Cato) بدأ بتعلم الاغريقية وهو في الثمانين • اما الآن فـلا يدهشني ذلك ، ففي الشيخوخة يستطيع المرء القيام بواجبات يتقاعس عنها الشباب لانها تستغرق زمنا طويلا • وفي الشيخوخة يتربى الذوق ويسمو ، فلا يصعب الاستمتاع بالفن والادب دون المحاباة الشخصيـة التي تنحرف بالشباب عـن اصدار حكم سليـم • والشيخوخة تقنع بمنجزاتها راضية • انها غير مقيدة بقيود الانانية البشرية• والروح ، وقد تحررت اخيرا مـن تلك القيود ، تبهجها اللحظة العابرة ، ولكنها لا تتشبث بها ، فهي قد اكملت الشكل والطراز • اراد غوته الحياة بعد الموت عساه يحقق مـن نفسه تلك الجوانب التي لم تسنح الفرصـة لانمائها في حياته ، ولكن ألم يقل هو نفـسه ان من يرغب في تحقيق شيء يجب ان يتعلم وضع الحدود لنفسه ؟ وانت اذ تقرأ سيرة حياته لا يسعك الا ان تدهش للطريقة التي اضاع بها وقته في التوافه ، ولعله لو وضـع لنفسه حدودا أدق لأمكنه ان يحقق ما قـد يكون مرتبطا ارتباطا فرديا بشخصه ، وعندئذ لم تكن به حاجة لحياة اخرى في المستقبل •

٧٤

يقول سبينوزا ان الانسان الحر لا يفكر بشيء قدر تفكيره بالموت • ليس لازما ان يستغرق فيه استغراقا ، ولكن من الحماقة ان ينكمش عـن كل تفكير فيه كما يفعل الكثيرون • ان من المستحسن ان يكون للمرء رأي فيه • من المستحيل ان يعرف المرء ان كان يخاف الموت قبل ان يقابله وجها لوجه • كثيرا ما حاولت ان اتصور ماهية مشاعري اذا ما اخبرني طبيب باني مصـاب بمرض مميت ، وبأن ايامي باتت معدودة • لقد وضعت تلـك المشاعر على ألسنـة شتى الشخوص في رواياتي ، ولكني بذلك ألبستها لبوسا دراميا ، فلا اعلم ان كانت هي ما ساشعر بـه حقا • لا احسب ان غريزة التمسك بالحياة قوية عندي ، فكثيرا ما اشتدت علي وطأة المرض ، ولكني لم اشعر الا مرة واحدة بان ما بيني وبين الموت قليل خطوة ، وكنت من الوهن بحيث ما استشعرت خوفا • كل ما كنت اريده هو الانتهاء من

Twitter: @ketab_n

الصراع ، فالموت حتم ولا يهم كيف يلقاه المرء ، ولكن ليس خليقا بالملامة من يرجو ألاّ يعلم بأنه وشيك ، وان يكون من حسن حظه لو نزل به دون ألم .

كان من كثرة انهماكي بالمستقبل انني الآن لا استطيع الاقلاع عن هذه العادة بالرغم من قصر هذا المستقبل ، فما زال عقلي يتطلع بشيء من الرضا ، خلال سنوات مجهولة العدد ، الى انتهاء حياة سعيت ان اصوغ اسلوبها لنفسي . لقد مرت بي لحظات كان فيها شوقي اللاهث الى الموت من القوة بحيث كنت اود ان القي بنفسي بين ذراعيه كما لو كانتا ذراعي حبيبة . انه يثير فيّ نفس الهزة الدافقة التي كانت الحياة تثيرها فيّ قبل سنين . انني ثمل بالتفكير فيه ، فكأنه يعرض علي الحرية النهائية المطلقة . ومع ذلك فاني ما زلت راغبا في الحياة قدر ما بامكان الاطباء ابقائي في صحة تحتمل . ان مناظر العالم تبهجني ، ويعجبني ان ارى ما سيقع من احداث . ان انتهاء اعمار الكثيرين ممن عايشوني يهبني غذاء للتفكير دائم، ويؤكد احيانا النظريات التي كنت قد صغتها منذ زمن بعيد . سوف آسف لمفارقتي اصدقائي ، ولا يسعني اهمال سعادة بعض ممن اخذت بيدهم ورعيتهم ، ولكن سيسعدهم التحرر ، بعد هذا الزمن الطويل ، من الاعتماد عليّ . واني بعد ان احتفظت لنفسي بمكان معين في العالم ردحا من الزمن، يسعدني ان آخرين سرعان ما سيخلفونني فيه . على كل حال ، ان اهمية أي طراز للحياة تكمن في وجوب تحقيقه ، فاذا لم يتمكن الفنان من اضافة شيء الى ذلك دون افساده ، فليتركه .

ولو سألني سائل الآن هل من فائدة او معنى لمثل هذا الطراز ، لكان جوابي بالنفي. انه مجرد اسلوب فرضته على حياة لا معنى لها لأني روائي. فلكي ارضي نفسي ، ولمتعتي ، ولاشباع ما يشبه حاجة عضوية ، صغت حياتي وفق نمط معين ، له بداية ، وله منتصف ، وله نهاية ، كما جعلت من الناس الذين التقيتهم هنا وهناك مسرحية او رواية او قصة . اننا حصيلة طبائعنا وبيئاتنا ، والطراز الذي التزمت به لم يكن خير ما يمكن ، ولا كان ما اردته ان يكون ، بل كان ما بدا لي انه المعقول المحتمل ، وان يكن هناك ما يفضله . ولا احسبني قد تأثرت فقط بذلك الوهم الطبيعي في

Twitter: @ketab_n

الاديب من ان خير نهج هو نهج المزارع الذي يحرث ارضه ، ويحصد غلته، ويستمتع بتعبه وبفراغه ، ويحب ، ويتزوج ، وينجب ، ويموت • لقد لاحظت الفلاحين في تلك الارض الطيبة ، حيث كانت التربة تجود بخيراتها وفيرة دون عناء كبير ، وحيث افراح الفرد واتراحه ثانوية ازاء الجنس البشري ، فخطر لي ان الحياة الكاملة قد تحققت هناك تحققا تاما • فالحياة هناك ، كالقصة الجيدة ، تنساب في طريقها من البداية حتى النهاية في خط ثابت مستقيم •

٧٥

ان ما يحمل الانسان على عدم التسليم بلا معنائية الحياة هو انانيته • وعندما يجد نفسه مكرها على ذلك وانه لم يعد قادرا على الايمان بسلطة اعلى كان يحسب انه يخدم اغراضها ، يعود فيسعى الى اعطائها اهمية باقامة مثل معينة غير التي كان يبدو انها تعينه على قضاء مصالحه المباشرة• لقد اختارت حكمة العصور ثلاثة من هذه باعتبارها اجدرها ، حتى ان مجرد تقصّدها بدا وكأنه يعطي الحياة بعض معنى • وعلى الرغم من صعوبة التشكك في ان يكون لهذه ايضا نفع عضوي ، فان لها على الظاهر سيماء النزاهة واللاابالية ، مما يتوهم معها الانسان انه قادر بها على التخلص من العبودية البشرية • ان ما فيها من نبل يقوي شعوره المتذبذب باهميته الذاتية • ومهما تكن النتيجة ، فالظاهر أن تمسكه بها يسوّغ مساعيه • انه يعتبرها واحات في صحراء الوجود المترامية الاطراف ، لانه لا يعرف غاية اخرى يقصدها في رحلته ، فهو يقنع نفسه بأن الوصول اليها، في كل الاحوال ، يستحق العناء ، حيث سيجد الراحة والاجابة على سؤله • هذه المثل هي : الحق والجمال والخير •

أرى أن الحق قد وجد له مكانا في هذه القائمة لاسباب بلاغية ، والانسان يعتبره اصلا لفروع ، كالشجاعة ، والشرف ، واستقلال النفس ، مصرا على أنها من سمات الحق ، ولكنها في الواقع لا علاقة لها به ، انما الفرصة الرائعة التي تتيحها له لتأكيد ذاته تجعله لا يبالي بما قد يجره ذلك من تضحيات • فاهتمامه اذن ليس في ذات الحق ، بل في نفسه • ولئن كان

Twitter: @ketab_n

الحق مثلا من المثل فذلك لأنه حق وليس لأن من الشجاعة القول بـه • والحق يظهر في الاحكام ، لذلك فان قيمته تكمن في الاحكام التي يتقمصها لا في ذاته • ان قنطرة تربط مدينتين كبيرتين اهم بكثير من اخرى توصل حقلا اجرد بآخر • ثم اذا كان الحق مـن المثل المطلقة ، فمن الغريب ألاّ يعرف احد ماهيته حق المعرفة • فالفلاسفة ما برحوا يتخاصمون في معناه ، وحملة المبادىء المتنافسة يسخر بعضهم ببعض ، فعلى الانسان العادي أن يتركهم وشأنهم في مثل هذه الظروف وان يقنع بالحق كما يراه هو • وهذه قضية بسيطة تؤكد امراً عـن موجودات معينة • انها تعبير صريح عـن الحقائق • فاذا كان هذا احد المثل ، فلا بد من الاعتراف بأنه قد اهمل اشد اهمال • ان كتب الاخلاق تسرد قوائم مطولة عن المناسبات التي يجوز فيها التغاضي عنه ، وكان الاجدر بمؤلفيها ان يجنبوا انفسهم هذا العناء ، فقد أقرت حكمة الاجيال منذ امد بعيد انه (ليس خيرا قول كل الحق) • ولقد ضحى الانسان دائما بالحق في سبيل كبريائه وراحته ومصلحته• انه لا يحيا بالحق ، وانما بالتظاهر به • وقد بدا لي احيانا ان مثالية الانسان ما هي الا سعيه لاضفاء سمة الحق على مبتدعات يختلقها لاشباع غروره •

٧٦

اما الجمال فظروفه افضل • كنت لسنوات عديدة احسب ان الجمال هو وحده الذي يمنح الحياة اهميتها ، وان الواجب الوحيد الذي يمكن ان تكلف به الاجيال المتكاثرة المتعاقبة على وجه الارض هو ان تنتج بين حين وآخر فناناً• كنت أرى عمل الفنان قمّة الفعالية البشرية، وانه المسوّغ الاكبر لكل ما يعتور البشرية من شقاء وكدح متواصلين وصراع مرير • فلكي يرسم ميشيل انجلو صورا على سقف كنيسة سيستين ، ولكي يكتب شكسبير ما كتب ، ويتغنى كيتس بشعره ، كنت أرى أن ذلك كله يستحق ان يحيا الملايين من البشر وان يتعذبوا وان يموتوا في سبيله • وعلى الرغم من انني قد خففت فيما بعد من هـذا الغلو بادخالي الحياة الجميلة ضمن الاعمال الفنية التي وجدتها تمنح الحياة معنى ، فقد ظل الجمال وحـده يحظى بتقديري • هذه افكار نبذتها جميعا منذ زمن طويل •

Twitter: @ketab_n

لقد اكتشفت اول ما اكتشفت ان الجمال نقطة نهاية • عندما اتمعن في الاشياء الجميلة الاحظ انه ما كان علي الا ان انظر فاعجب بما أرى • كانت العاطفة التي تثيرها فيّ رائعة ، الا اني لم اكن استطيع الاحتفاظ بها ولا تكرارها الى ما لا نهاية له • اجمل الاشياء في العالم كانت تنتهي عندي بالملل • لقد لاحظت ان نتاجات موقتة غير نهائية تمنحني رضى اطول دواماً، فلكونها لم تبلغ النجاح التام كانت تفسح مجالا اوسع لنشاط مخيلتي ــ ففي الانتاجات الفنية العظيمة تجد كل شيء محققا ، فليس بالامكان اضافة شيء آخر ، فيتعب عقلي الحَرِك من التأمل السلبي • فالجمال يشبه القمة الشاهقة في جبل ، ما ان تبلغها حتى تجد ان عليك ان تكر نازلا • الكمال مثل بعض الشيء • وليس اقل سخريات الحياة شأنا اننا من الخير لنا ألاّ نبلغ هذا الذي نسعى اليه •

احسب اننا بالجمال نقصد ذلك الشيء المعنوي او المادي ــ واكثره مادي ــ الذي يشبع احساسنا الجمالي • وهذا ، على كل حال ، لا يزيدك معرفة به اكثر مما يزيدك معرفة بالماء قولهم لك انه مبتلّ • قرأت من الكتب عددا امكنني من اكتشاف ما كان يريد الثقات قوله لتوضيح الموضوع بعض الشيء • كانت لي صلات وثيقة بالكثيرين ممن اولعوا بالفنون ايما ولع ، الا انني لم اتعلم منهم ولا من الكتب الكثير مما افادني فائدة جلّى • ان من اغرب الامور التي فرضت نفسها على انتباهي هو ان الحكم على الجمال لايدوم ، فالمتاحف تزخر باشياء كانت ذات جمال مشهود في يومها عند ذوي الاذواق الرفيعة ، ولكنها تبدو لنا الآن تافهة • وفي حياتي شاهدت صفة الجمال تتبخر عن قصائد ولوحات كانت رائعة قبل زمن ليس بالطويل ، كما يتبخر الندى تحت شمس الصباح • وعلى الرغم مما فينا من عجب وخيلاء فمن الصعب علينا ان نعتبر احكامنا قطعية ، فما نراه جميلا سيكون ولا شك موضع ازدراء جيل آخر ، وما نحتقره قد يرقى الى مدارج الشرف • فالاستنتاج الوحيد هو ان للجمال علاقة بحاجات جيل بعينه ، وان اختيار الاشياء التي نعتبرها جميلة من حيث الخصائص الجمالية المطلقة انما لا طائل تحته • ولئن كان الجمال واحدا من القيم التي تسبغ على الحياة روعتها فانه دائم التغير ، ولذلك لا يمكن تحليله ، فنحن قلما نحس بالجمال الذي احس به

Twitter: @ketab_n

اسلافنا ، ولو اننا نشم عبير الزهور مثلما شموها .

لقد سعيت ان اجد فيما كتب الكتاب عن الجمال ما هو مكنون في طبيعة البشر مما يجعلنا تنفعل بالجمال ، وماهية هذا الانفعال . من المألوف التحدث عن الغريزة الجمالية ، فهو تعبير يتخذ مكانه بين البواعث الرئيسة في الكائن البشري ، كالجوع والجنس ، وهو ، فوق ذلك ، يمنحها صفة تدغدغ التطلع الفلسفي للوحدة . فعلم الجمال منبعث اذن من غريزة التعبير ، ومن وفرة في الحيوية ، ومن احساس صوفي بالمطلق ، ومن غير ذلك مما لا علم لي به . واقول انا انه ليس غريزة مطلقا ، وانما هو حالة عقلية ـ جسمية تعتمد جزئيا على عدد من الغرائز القوية ، ولكنها مندمجة مع الخصائص البشرية الناتجة عن عملية التطور وظروف الحياة المعتادة . اما كونها ذات علاقة وثيقة بالغريزة الجنسية فيظهر جليا في الحقيقة المعترف بها عموما، بان الذين وهبوا حسا جماليا مرهفا ينحرفون جنسيا عن المألوف الى التطرف الى حد المرض في الاغلب . وقد يكون في بنية العقل الجسدي شيء يظهر مردوده في نبرات خاصة وايقاعات خاصة والوان خاصة ذات جاذبية غريبة على الانسان ، بحيث قد يكون هناك سبب فزيولوجي لعناصر ما نعتبره جميلا . ولكننا قد نجد الاشياء جميلة لانها تذكرنا باشياء او اشخاص او اماكن احببناها او ان الزمن قد اضفى عليها قيمة عاطفية . اننا نجد الاشياء جميلة لاننا نتعرف عليها ، او بالعكس ، لان جدتها تدهشنا فنعتبرها جميلة . فان دل كل هذا على شيء فانه يدل على ان الترابط ، بالتشابه او بالتناقض ، يدخل من اوسع باب الى الانفعال الجمالي . والترابط ، او تداعي المعاني ، هو وحده القادر على تفسير القيمة الجمالية للقبح . لم يتأت لي ان اعلم ان كان احد قد بحث في تأثير الزمن على خلق الجمال ، فليس الامران ادراكنا لجمال الاشياء يزداد بنموّنا وازدياد معرفتنا بها فحسب ، وانما ابتهاج الاجيال المتتالية بها يزيدها جمالا . وهذا عندي هو السبب في ان بعضا من نتاجات بيّنة الجمال الآن لم تثر اهتماما يوم ان قدمت الى العالم لأول وهلة . فهذه اغاني (كيتس) اجمل الآن مما كتبها في يومه ، ذلك لانها ازدادت غنى بانفعالات جميع الذين وجدوا في روعتها السلوة والقوة . لذلك لا أرى الانفعال الجمالي مسألة بسيطة محددة ، بل انها شديدة التعقيد ، وهي حصيلة عناصر شتى وغالبا ما تكون

Twitter: @ketab_n

متنافرة • ليس مـن حق علماء الجمال القول بأن عليك ألاّ تتأثر بلوحة او بسيمفونية لكونها تستثير فيك الشهوة الجنسية ، او لأنها تذيبك دموعا على ذكريات منسية ، او لكونها تهيجك الى حد الجدل المفرط لما تثيره فيك بطريق التداعي • انها قد تفعل كل ذلك ، وهي جوانب لا تنفصل عـن الانفعال الجمالي ، كالاتزان والكياسة •

ترى ما هو رد فعل المرء ازاء عمل فني عظيم ؟ ما شعوره عندما ينظر مثلا الى لوحـة (تيتيان) المسماة (الدفن) في متحف اللوفر ، او عندما يصغي الى خماسية (مايسترنجر) ؟ انني اعرف شعوري ، انه تأثر يؤدي الى شعور بابتهاج عقلي ولكنه مصطبغ بالشهوة ، شعور من العافية أحس معه بالقوة وبالتحرر مـن القيود البشرية ، واشعر في نفس الوقت بحنان غامر غني بالعطف الانساني وبراحة وسلام وسمو في الروح • وفي الحقيقة عندما كنت انظر احيانا الى لوحات او تماثيل معينة او اصغي الى بعض الموسيقى كان يجتاحنـي انفعال مـن القوة بحيث لا يمكن ان اصفـه الا باستعارة نفس التعابير التي استعملها الصوفيون لوصف اتحادهم بالله• وهـذا ما حـدا بي الى الاعتقاد بأن شعور الاندماج بحقيقة اكبر ليس مقتصرا على الدّين فحسب ، بل يمكن بلوغه بوسائل اخرى غير الصلاة والصوم • ولكني تساءلت عما ينفع هذا الانفعال • لا شك انه مبهج ، والمتعة في ذاتها حسنة ، ولكن ما الذي فيـه ليفضل المتع الاخرى ، تلك الافضلية التي تجعل وصفه بمجرد المتعة انتقاصا من قيمته ، أكان (جرمي بنثام) احمق عندما قال ان السعادة لا تختلف الوانا أو طعوما ، وانه لا فرق بين الدبوس والقصيدة الشعرية اذا كان مقدار المتعـة فيهما متساويا ؟ والجواب الذي رد به الصوفيون كان جليا لا لبس فيه • قالوا ان الوجد لا يسوى شيئا الا اذا سما بالخلق ومكّن الانسان من القيام بعمل سليم ، فقيمته بالعمل •

كان من نصيبي ان اعايش اناسا من ذوي المشاعر الجمالية ، ولست اعني انهم كانوا من الخلاّقين المبدعين ، فعندي فرق كبير بين الذي يخلق الفن والذي يستمتع به ، فالخلاق ينتج بسبب مـن دافع فيه يدفعه الى تجسيد شخصيته بالتجديـد ، فان كان فيما ينتج جمال فذاك مـن باب المصادفة ، لأنه قلما يكون مقصودا • انه يقصد الخلاص بروحه من الحمل

Twitter: @ketab_n

الذي ينوء تحت ثقله ، لذلك فهو يستعمل الوسيلة ، قلما او الوانا او طينا، مما يسهل عليه استخدامه • انما اقصد بحديثي اولئك الذين يعتبر التأمل في الفن وتقديره من صلب عملهم في الحياة • لم اجد فيهم الا القليل مما يدعو الى الاعجاب بهم ، فهم مغرورون راضون عن انفسهم ، وهم ، لافتقارهم الى ما يؤهلهم للقيام بعمل فعلي ، يهزأون بالذين يقدمون بتواضع خدماتهم الاعتيادية التي قدرتها لهم الاقدار • انهم يرون انفسهم أسمى منزلة من غيرهم لمجرد كونهم قد قرأوا عددا ضخما من الكتب او شاهدوا العديد من اللوحات • انهم يستغلون الفن للهرب مع واقع الحياة ، وفي غمرة احتقارهم الأبله لكل ما هو عادي ، ينكرون قيمة النشاطات الانسانية الجوهرية • فهم في الواقع ليسوا بافضل من مدمني المخدرات ، بل أحط ، ذلك ان المدمن مهما يكن ينتصب فوق منصة لينظر من عليائه باحتقار الى بني جلدته • قيمة الفن ، كقيمة الطريقة الصوفية ، تكمن في أثره ، فان لم يعط غير المتعة ، وان تكن روحية ، فلن يكون له شأن يذكر ، او في الاقل ، يكون شأنه شأن طبق من المحار وزجاجة (مونترخت) • اما ان كانت فيه سلوى فذاك حسن ، فالعالم مليء بشرور محتمة ومن الخير ان يكون للمرء تركة يرجع اليها من حين الى آخر ليستجمع بعض قوة لمواجهتها ، لا ان يتهرب منها • والفن ، ان اعتبر واحدة من القيم العظيمة في الحياة فعليه ان يعلّم الانسان التواضع والتسامح والحكمة والشهامة • ليس الجمال قيمة الفن ، بل قيمته العمل السليم •

واذا كان الجمال من القيم العظيمة في الحياة فمن الصعب القول بأن الحس الجمالي ، الذي يمكّن الانسان من تقديره ، ينبغي ان يكون امتيازا مقصورا على طبقة معينة من الناس • ليس من الممكن القول بأن احساسا لا يشترك فيه الا الخاصة يمكن ان يكون ضرورة من ضرورات الحياة • الا أن هذا هو ما يزعمه الجماليون • أرى أن علي أن اعترف بأني في ايام شبابي الاحمق كنت احسب الفن (الذي كان يشمل عندي جمال الطبيعة لاني كنت اعتقد انه جمال من صنع يد الانسان التي رسمت اللوحات او كتبت السيمفونيات) قمة الجهد الانساني الذي يسوّغ وجود الانسان ، وكنت اشعر برضى لاعتقادي بأنه لا يقدره حق قدره الا النخبة المختارة • الا انها كانت فكرة داخلتني منذ زمن بعيد • انني لا اؤمن بأن الجمال اقطاعية تملكها زمرة معينة ، وانما اميل الى الاعتقاد القول بأن المظهر من

Twitter: @ketab_n

مظاهر الفن لا يكون له معنى الا عند افراد تدربوا تدريبا خاصا قول تافه تفاهة الذين يستميلهم . الفـن العظيم المتميز انما هـو ذلك الذي يسرّ الجميع ، وفن الخاصة ليس سوى ملهاة . ولست أرى ما يدعو الى التفريق بين فن قديم وفن حديث ، فكل فن . والفن حي ، فمحاولة احياء موضوع فني بالكلام على روابطه التاريخية او الثقافية او الاثرية لا معنى لها ، فكون تمثال ما قد نحته اغريقي بائد او فرنسي معاصر لا يغير منه شيئا ، فقيمته الوحيدة انه ينبغي ان يشيع فينا في هذه اللحظة هزة جمالية ، وان تدفعنا تلك الهزة الى العمل . واذا كان فيه شيء اكثر من مجرد الانطلاق الذاتي والرضى عن النفس احيانا فانه لا بد ان يزيد من تقويم خلقك ومن قيامك بالعمل الصالح . وعلى الرغم من عـدم ميلي الى الاستدلال فلا يسعني الا قبوله ، ومن ذلك ان الحكم على العمل الفني يجب ان يكون معتمدا على نتائجه ، فان لم تكن هذه حسنة فلا خـير فيه . وهناك حقيقة غريبة ينبغي تقبلها لانها مـن طبيعة الاشياء ولا تفسير عندي لها ، تلك هي ان الفنان لا يبلغ هذا الاثر الا عندما لا يتقصده تقصدا ، وعظته ابلغ ما تكون أثرا عندما لا يخطر له ان في نتاجه عظة . والنحلة تصنع الشمع لنفسها غير عالمة ان الانسان يتخذه لشتى الاغراض .

٧٧

من الظاهر اذن استحالة القول بأن للحق او للجمال قيمة حقيقية ، فماذا عن الخير ؟ ولكن قبل الكلام على الخير ، يطيب لي الحديث عـن الحب ، فبعض الفلاسفة الذين يرون ان الحب يشمل القيم الاخرى يعتقدون انه اسمى القيم الانسانية . وتتفق الافلاطونية والمسيحية في اسباغ سمة الصوفية عليه . وما يرتبط بالكلمة بالتداعي يضفي عليها لونا من العاطفة تجعلها اقوى اثارة للانفعال من الخير المحض الذي يبـدو بالمقارنة كليلاً بعض الشيء . غير ان للحب معنيين : الحب المحض البسيط ، واعني بـه الحب الجنسي ، والمحبة . ولا احسب ان احدا حتى افلاطون استطاع ان يميز بينهما بدقة ، فالظاهر انه ينسب الجذل والاحساس بالقوة والشعور بالحيوية العالية التي تصاحب الحب الجنسي الى الحب الآخر الذي يدعوه بالحب السماوي والذي افضل ان ادعوه بالمحبة ، فهو بذلك يلوثه برذيلة

Twitter: @ketab_n

حب دنيوي لا تمحى • الحب زائل ، الحب يموت • فمأساة الحياة العظيمة ليست في فناء الانسان وانما هـي في موت الحب عندهم • و شر شرور الحياة ، الشر الذي لا تنفع فيه حيلة ، هو ان تحب من لم يعد يحبك • عندما اكتشف (لا راشفوكول) ان احد الحبيبين هو المحب والآخر هو الذي يسمح لنفسه ان يكون محبوبا ، نظم قصيدة ساخرة عن التنافر الذي يحول دائما بين الانسان وبين بلوغه السعادة الكاملة في الحب • ومهما يرفض الناس الحقيقة ويتنكروا لها ، فليس من شك في ان الحب يعتمد على افرازات خاصة للغدد الجنسية ، وهذه لا تبقى في الاغلبية العظمى مـن الناس تنفعل بنفس المحفز الى امد غـير محدود ، بـل تصيبها السنون بالضمور • والناس اشد ما يكونون نفاقا في هذا الموضوع ولا يرضون بمواجهة الحقيقة ، وانهم لشد ما يخدعون انفسهم حتى انهم يتقبلون بكل خضوع تضاؤل حبهم واستحالته الى ما يصفونه بأنه التعلق الصلد الثابت ، وكأن للتعلق شأنا بالحب ! فالتعلق تخلقه العادة وتماثل الرغبات والملاءمة والرغبة في المصاحبة • انه عزاء وراحة قبل ان يكون ابتهاجا وانتعاشا • اننا مخلوقات متغيرون ، والتغـير هو الجو الذي تتنفسه ، أفهل يمكن لأقوى الغرائز فينا ان تتحرر من القيد ؟ اننا اليوم لسنا كما كنا قبل عام مضى ، وكذلك الذين نحبهم ايضا • وانه ليسعدنا ، ونحن متغيرون ، ان نديم حبنا لاشخاص متغيرين • ولكن الغالب هو اننا ، وقد تغيرنا ، نبذل جهد اليائس البائس لكي نحب في الشخص المتغير الشخص الذي كنا نحبه ، وذلك لان سلطة الحب المسيطرة علينا تبدو من القوة بحيث نحسبها دائمة الى الابد ، وعندما ينحسر سلطانها نحس بالخجل ، واذ نجدنا مغفلين نلوم النفس على ضعفنا ، بينا الاجـدر بنا ان نرضى بتبدل ما في قلوبنا كأثر طبيعي لبشريتنا • لقد ادت تجارب البشر الى النظر الى الحب بخليط من المشاعر ، فقد كانوا يرتابون فيه ، ولطالما لعنوه مثلما هم اثنوا عليه • وروح الانسان التي تكافح للتحرر كانت ، الا فيما ندر ، تعتبر الاستسلام ، الذي يدعيه الحب ، اخلالا بالهيبة • قد تكون السعادة التي يأتي بها الحب اعظم ما يستطيعه الانسان ، ولكنها قلما تكون خالصة ، فالحب يكتب قصة ذات نهاية محزنة في الاعم الاغلب • كثيرون اسخطهم سلطانه وابتهلوا للخلاص من ربقته • لقد احتضنوا قيودهم ، حتى اذا عرفوا انهـا قيود ابغضوها ايضا • والحب ليس اعمى دائما ، فقليل من الامور ما تسبب شقاءاً أتعس

Twitter: @ketab_n

مما يسببه حبك بمجامع قلبك شخصا تعرف تماما انه ليس جديدا بحبك .

اما المحبة فليست مصابة بسرعة الزوال المقصورة على الحب داءاً لا يبرأ ، ولو انها لا تخلص كليا من العنصر الجنسي . انها كالرقص ، فالمرء يرقص حبا بالحركة الايقاعية ولا يلزم ذلك ان يود مضاجعة من يراقصها ، ولكنها تكون تجربة ممتعة ان لم يكن فيها ما يكدّره . في المحبة تتسامى الغريزة الجنسية ، ولكنها تهب العاطفة شيئا من طاقتها الدافئة الحيوية . والمحبة هي الجزء الافضل في الخير ، تسبغ الجلال على الاجزاء القاسية التي تتألف منها ، فتسهّل ممارسة الفضائل الصغرى كضبط النفس والكبت والصبر والسلوك الحسن والتسامح ، وهي العناصر السلبية غير المبهجة كثيرا في الخير . والخير ، في هذا العالم ذي المظاهر ، هو المثل الوحيد الخليق بان يكون غاية لذاته ، والفضيلة مردوده . واني ليخجلني ان اصل الى هذه النتيجة المبتذلة . فبسبب ما فيّ من غريزة حب التأثير كنت افضل ان انهي كتابي بتصريح مثير متناقض الظاهر ، او بسخرية لاذعة تضحك القاريء فاتميز بها عنده . ولكن بحسب الظاهر لم يبق لدى ما يقال اكثر مما يمكن ان يقرأ في دفتر او يسمع من على منبر . اراني قد مشيت دورة طويلة لاكتشف ما كان يعرفه كل امرىء من قبل .

ان شعوري بالاحترام ضعيف ، بيد ان في العالم الكثير الكثير منه ، تدعيه اشياء ليست جديرة به ، وفي الاغلب انه ليس سوى انحناءة عادية تؤديها لاشياء لا رغبة لنا فيها كثيرا . ان خير ما نحترم به شخصيات الماضي العظام ، مثل دانتي وتيتان وشكسبير وسبينوزا ليس بتبجيلهم ، وانما برفع الكلفة بيننا وبينهم كما لو كانوا من معاصرينا ، وبذلك نقدم لهم اسمى ايات الثناء . اننا برفع الكلفة نعترف بانهم ما يزالون احياءاً عندنا . ولكني عندما كنت اصادف الخير الحق وجها لوجه احيانا ، كنت احس بالاحترام له في قلبي ، ولم يعنني يومئذ ان تلك الندرة من فعلة الخير كانوا اقل ذكاءا مما كنت اود ان يكونوا . كنت ، وانا صبي صغير تعس ، احلم الليلة بعد الليلة بأن حياتي المدرسية حلم واني سوف استيقظ لاجدني مع امي في البيت . كان موتها جرحا لم تستطع السنون الخمسون ان تشفيه تماما . لم اعد أرى ذلك الحلم منذ زمن طويل ، ولكني لم افقد كليا شعوري بأن حياتي كلها كانت سرابا قمت فيها بهذا العمل او ذاك لانه هكذا حدث ، ولكني حتى وانا اقوم بدوري فيه كنت كأنني انظر اليه من بعيد كما انظر

Twitter: @ketab_n

الى سراب • وعندما ارجع البصر في حياتي بما كان فيها من نجاح وفشل ، باخطائها التي لا تحصى ، بخداعها وانجازاتها ، بافراحها واتراحها ، اشعر شعورا غريبا بانهـا كانت مفتقرة الى الواقعية وانهـا كانت مفتقرة الى الواقعية وانها كانت غامضة وهمية • ولعله كان في قلبي ، الذي لم يجد منتجعا يستكن اليه ، توقان عميق موروث الى الله والى الخلود لم توصلني اليهما عاقلتي • كثيرا ما كان يبدو لي ان اقنع نفسي بان الخير ، الذي قلما رأيته عند الكثيرين ممن عرفتهم ، حقيقة واقعة ، لافتقاري الى شيء افضل اقنع نفسي به • ولعلنا لا نرى في الخير سببا من اسباب الحياة ولا تفسيرا لها ، وانما نرى فيه مسوّغا جزئيا • وفي هذا الكون المحايد البعيد عـن الافراط والتفريط ، بشروره الحتمية التي تكتنفنا مـن المهد الى اللحد ، لا يقدم الخير تحديا او جوابا ، وانما هو يؤكد استقلالنا • انه رد الخلق على سخافة المصير المحزنة • وهو ، بخلاف الجمال ، يمكن ان يبلغ الكمال دون املال ، وهو اعظم من الحب لأن الزمن لا يذهب ببهجته • غير ان الخير يظهر في العمل الصالح ، فمن ذا الذي يستطيع في عالم لا معنى له ان يدلنا على ماهية العمل الصالح ؟ وليس العمل هو الذي يرمي الى السعادة ، فان كانت سعادة فبالمصادفة الحسنة • لقـد أهاب افلاطون ، كما نعلم ، بصاحبه العاقل ان يهجر حياة الهدوء والتأمل في سبيـل صخب الامور العملية ، واضعا بذلك نداء الواجب فوق الرغبة في السعادة • واحسب اننا جميعا قد اتفق لنا ان سلكنا سبيلا معينا لاعتقادنا بصحته بالرغم من معرفتنا انه لن يوصلنا الى السعادة ، لا في بدايته ولا في نهايته ، فمتى اذن يكون العمل الصالح ؟ عندي ان خير جواب على ذلك هو ما قاله (فراي لويس ليون) وليس اتّباعه من الصعوبة بحيث يجبن الضعف البشري امامه كأمر فوق طاقته • سأختتم كتابي به •

قال : ما جمال الحياة الا أن يفعل كل امرىء وفق طبيعته ومهنته •

Twitter: @ketab_n

منشورات عويدات ١٩٧٧/١٠/٤٨١

مطبعة نمنم ـ الشياح ـ بيروت ١٩٧٧

Twitter: @ketab_n

تجربتي في الأدب والحياة

هذا الكتاب هو، في الواقع، خلاصة لافكار سومرست موم ومواقفه في الادب والفن والاخلاق والدين والفلسفة. بالاضافة الى الاحداث التي اثرت في حياة موم كاتبا وانسانا ناقدا.

وقد صرح بهذه الحقيقة موم نفسه وهو يستهل كتابه بقوله: «ليس هذا الكتاب ترجمة لحياتي، ولا هو بمذكرات، فلقد ادرجت في كتبي الماضيات ما صادفني في حياتي. ولكم اتخذت من تجربة مرت بي نواة انسج حولها من الحوادث ما يبرز صورتها. ولكم من اشخاص مروا في حياتي اصبحوا شخوصا يمثلون على مسرح كبير. فالحقيقة والخيال في كتبي مزاج متداخل بحيث لا اكاد اميز احدهما عن الآخر»...